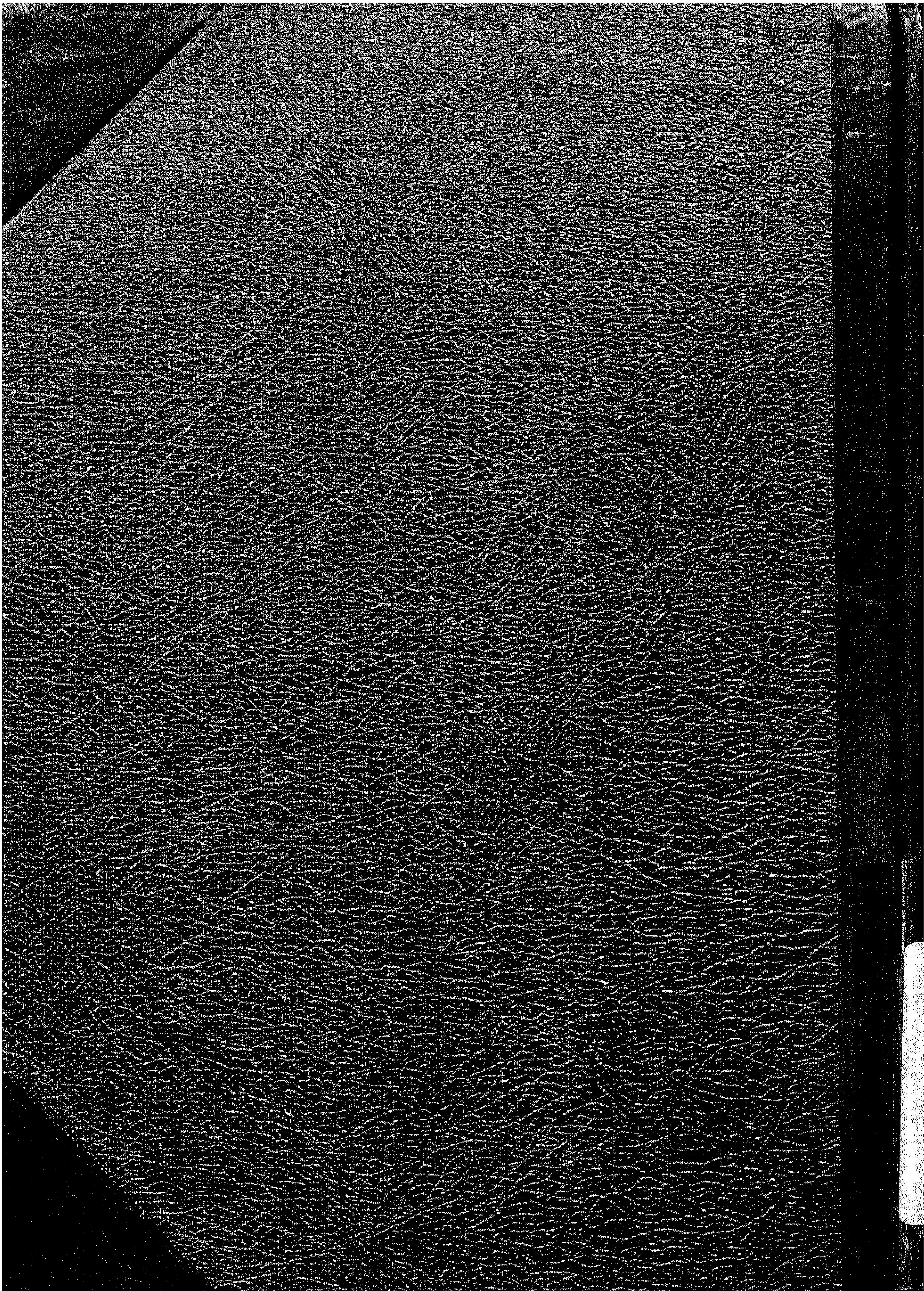
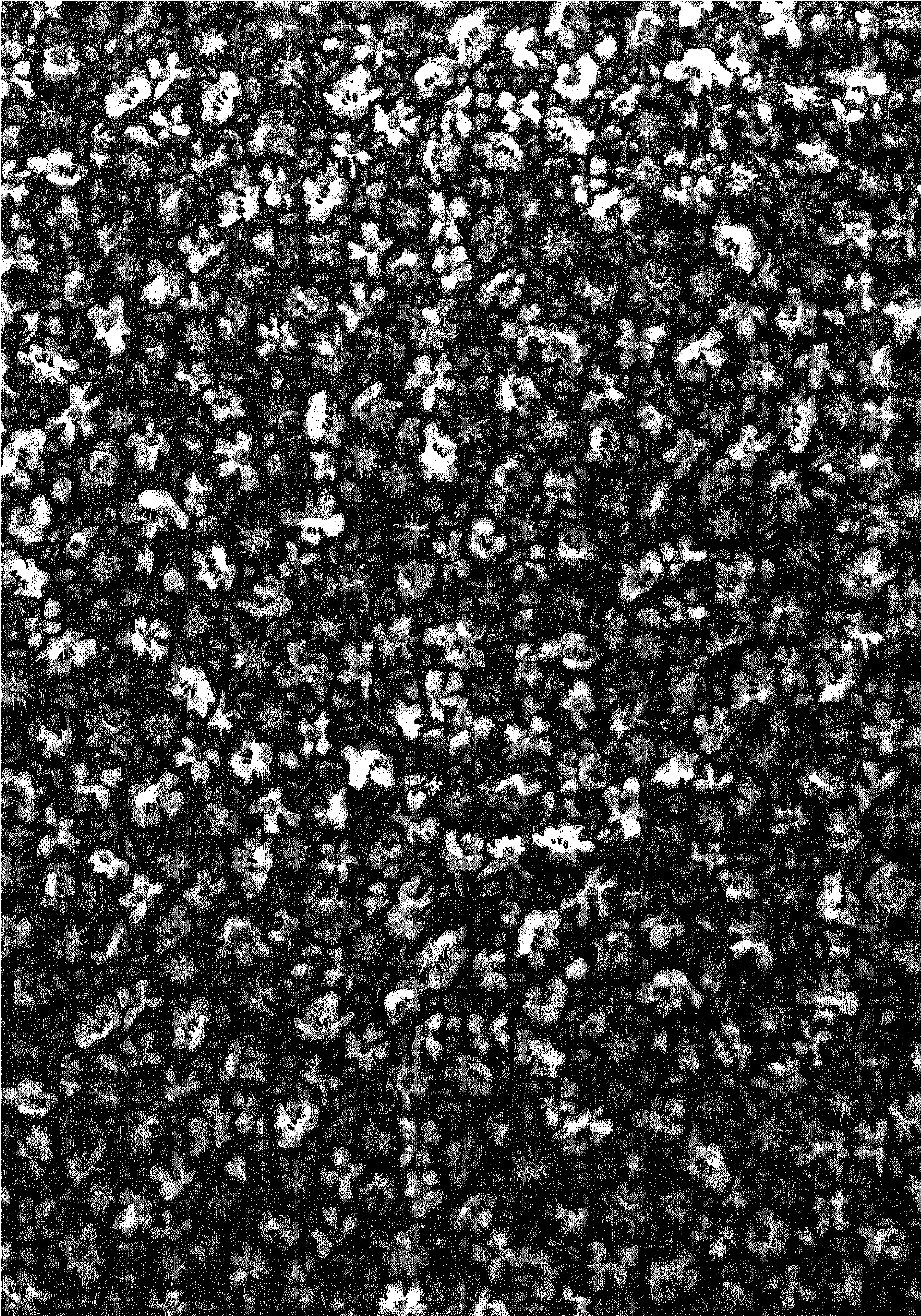
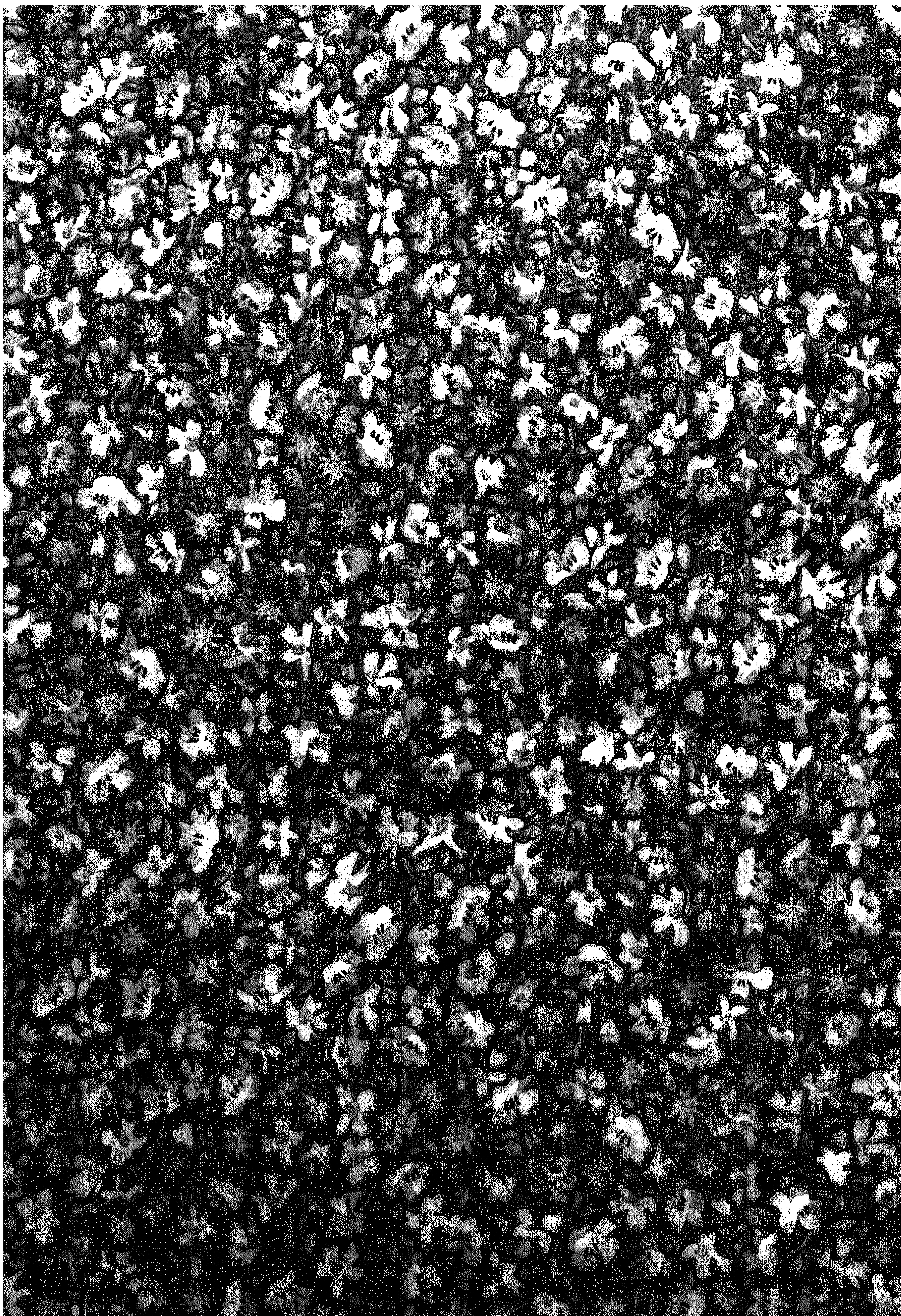








اهداءات ٢٠٠٣

الدكتور/ محمد طلعت الغنيمي

الإسكندرية

المجتمع التكنولوجي الحديث

دكتور حازم الببلاوي

تقديم

دكتور زكي نجيب محمود

تصـــدير

هذا الكتاب الذى أقدمه اليوم لم يكن نتيجة تخطيط مسبق • فهو فى الواقع عبارة عن مجموعة من الأبحاث كتبتها فى مناسبات وفى تواريخ مختلفة ، ويجمعها كلها أنها ترتبط بشكل عام بموضوع واحد وهـو « **مظاهر المجتمع الحديث وتأثير الثورة التكنولوجية عليه** » • وقد رأيت ـ بتشجيع من بعض الأصدقاء ـ أن أجمع هذه الأبحاث فى مؤلف واحد مما قد يزيد الفائدة منه ، خاصة وأنها قد نشرت فى أماكن متفرقة وأغلبها غير متاح الآن •

وقد كانت تراودنى دائما فكرة اعداد كتاب فى هذا الموضوع ، وبحيث أعيد صياغة الأفكار التى أوردتها سابقا فى شكل أكثر اتساقا • ولكنى ادراكا منى بما تحمله الحياة عندنا من مشاغل يومية وما يفرض على أستاذ الجامعة من الكتابة لطلبته ، خشيت أن يؤدى الانتظار الى قبر الفكرة تماما • ولذلك فقد اقتنعت ـ مؤقتا ـ بتجميع هذه الأبحاث فى هذا المجلد •

وقد كتبت الأبحاث الثلاثة التى يتضمنها هذا الكتاب فى ظروف مختلفة ، وهذا ما يوضح الى حد بعيد ما يشوب الكتاب من قصور أعتـذر عنه مقدما • فالدراسة الأولى من حيث تاريخ الصدور « **مجتمع الاستهلاك على ضوء أحداث مايو ١٩٦٨ فى فرنسا** » ـ قد كتبت فى شكل أشبه بالمذكرات الخاصة وحيث دفعنى اليها الرغبة فى تسجيل الأحداث التى عشتها بالصدفة لثورة الطلبة فى فرنسا فى مايو ١٩٦٨ • فقـد سافرت فى تلك السنة الى باريس بدعـوة من Ecole Pratique des Hautes Etudes فى السربون لالقـاء بعض المحـاضرات عن اقتصـاديات الشرق الأوسط لطلبـة صـديقى الأستاذ P. Marthelot • وقد وصلت فرنسا فى النصف الثانى من أبريل ، والتقيت لقاء واحدا مع مجموعة طلبة الأستاذ مارتيلو ، لكى أكتشف بأنى وصلت فى

لحظة من أخطر لحظات الانفجار الطلابى فى باريس • وبعدها بيوم واحـد ، على ما أذكر ، قام اضراب عام للطلبة يعد من أشـــد الاضرابات خطـورة • وهكذا تتابعت أحداث مايو فى فرنسا فى تلك السنة ، وبات واضحا أن الهدف الذى حضرت من أجله قد أصبح غير ذى موضوع• وفى نفس الوقت ظهر لى جليا أن حركة الاضطراب فى فرنسا فى ذلك الوقت لم تكن حركة عادية • وأنها على العكس ـ تمثل نوعا من الثورة الجـــديدة • وأثارتنى التجـربة ، وخالجنى شعور بأنى أعيش أياما تاريخية • ولذلك فقد رأيت أن أحاول أن أسجل انطباعاتى عن هذه الفترة ، فقمت بـذلك فى شهر أغسطس من نفس السنة • وأثناء كتابة هذه المذكرات ورد على خـاطرى أن أنشرها على الرأى العام فى مصر • ولذلك فاننى لم أحاول فى هـــذه المقالة أن أشـــير الى أية مراجع ، وغلب عليها أسلوب السرد فى شـــكل انطباعات • وبعد عودتى الى مصر نشرتها كملحق للأهرام الاقتصادى ظهر فى ١٥ أكتوبر ١٩٦٨ •

أما البحث الثانى ـ من حيث تاريخ الصدور ـ فقد أعددته للعدد الأول من مجلة « عالم الفكر » التى تصدر فى الكويت ، وكان العنـوان المقترح على هو « **التنظيم السياسى فى المجتمع التكنولوجى الحديث** » • وقد قمت باعداد البحث المطلوب • ونظـرا لأننى بحسب التـــكوين اقتصــــادى ، فقد غلبت الجوانب الاقتصـادية بحيث تقلصت الجوانب السياسية الى حـد بعيد • وازاء هذا التطور غير المتوازن للدراسة فقد أضفت الى عنـــوان المقالة تحديدا بأنها « **وجهة نظر اقتصادى !** » •

والبحث الثالث أعد أيضـا لنفس المجلـــة (عـــالم الفـــكر) بعنوان « **الأوتوميشن والاقتصاد** » ، وكان العنوان المقترح على « الآثار الاقتصـــادية للأوتوميشن » ، ولكننى اكتشفت أن الدراسة تطورت معى الى التعرض أيضا لآثار الثورة العلمية التى صاحبت الأوتوميشن على علم الاقتصاد ذاته ، ففضلت العنوان المتقدم •

وازاء كل ما تقدم يتضح ما قد يبدو من أوجه انتقاد للكتاب • فالأبحاث

التى يتضمنها لم تكتب دائما لنفس الجمهور • فعلى حـــين أن بحثى « التنظيم السياسى فى المجتمع التكنولوجى الحديث » و « والاوتوميشن والاقتصاد » قد كتبا ـ بوجه عام ـ للقارىء المتخصص مما استتبع ضرورة الاشارة للمراجع ، فان دراسة « مجتمع الاستهلاك » تبدو خلوا من اية اشارة للمراجع •

كذلك فانه بالنظر الى ان فكرة اعداد كتاب متكامل لم تكن واردة ، فان القارىء سيجـــد بالضرورة بعضـــا من التكرار • وبالمثل فان امتداد هـــذه الدراسات عبرة فترة من الزمن ـ وان كانت ليست طويلة ١٩٦٨ ـ ١٩٧٢ ـ يؤدى بالضرورة الى الرغبة فى التعديل • ولكن نفس الاعتبارات التى دعتنى الى اصدار الكتاب فى شكله الحالى دون انتظار لاعداد مؤلف جديد هى نفسها التى أقنعتنى بجدوى ابقاء الدراسات على شكلها دون أدنى تعديل •

وقد رأيت فقط أن أعيد ترتيب هذه الدراسات دون التفات الى تواريخ صدورها • فوضعت أولا « التنظيم السياسى للمجتمع التكنولوجى الحـديث » لأنه يتناول خصائص هذا المجتمع • ثم وضعت بعد ذلك « مجتمع الاستهلاك » لأنه يتناول جانبا محددا من هذا المجتمع الجديد ، وهو بعض الآثار الاجتماعية والنفسية للأوضاع الجديدة ، كما أنه يتعرض لتسجيل أحداث محددة بالذات وهى ثورة الطلبـــة فى فرنســـا فى مـــايو ١٩٦٨ • وبعـــد ذلك وضعت « الأوتوميشن والاقتصـــاد » لأنه يتناول مظهرا جـــديدا من مظاهر الثورة التكنولوجية الحديثة فى علوم السبرناطيقا وفى التحكم الذاتى • **وأخيرا رأيت أن أضيف فى « خاتمة » بعض الانطباعات عن العالم الثالث فى مواجهة ثورة التكنولوجيا •**

والواقع أنه ينبغى أن أضيف شيئا هاما ـ مادمت قد أوردت قصة الكتاب فى هذا التصدير ـ ذلك أننى شعرت بسعادة غامرة عندما وجدت تشجيعا من أستاذى الدكتور زكى نجيب محمود عندما قرأ « مجتمع الاستهـــلاك » حين رأيته لأول مرة وكان ذلك فى الكويت فى سنة ١٩٦٩ ، ثم وجدت منه نفس التشجيع عندما نشرت مقالات مجلة «عالم الفكر» • وذلك كله أكد عزمى على

اصدار الكتاب ، فكان أن تفضل الأستاذ الدكتور زكى نجيب محمود بأن قدم له . وهو شرف أعتز به .

وأخيرا فانى أود أن أشكر « الأهرام الاقتصـــادى » ، ومجلــة « عالم الفكر » لسماحهما باعادة نشر الدراسات المتقدمة .

حازم الببلاوى

زيزينا ـ رمل الاسكندرية

ابريل ١٩٧٢

محتويات الكتاب

تقديم بقلم دكتور زكى نجيب محمود
التنظيم السياسى فى المجتمع التكنولوجى الحديث
مجتمع الاستهلاك ، ثورة الطلبة
الأوتوميشن والاقتصاد
خاتمة : العالم الثالث فى مواجهة الثورة التكنولوجية

تقديم الكتاب

بقلم : الدكتور زكي نجيب محمود

جاءت فى تاريخ الجبرتى عبارة قصيرة ــ ولكنها مشحونة بالدلالة ــ قدم الكاتب فيها صورة للمركز العلمى الذى أقامه الفرنسيون فى القاهرة ، ولم يكن قد مضى على وصول نابليون بحملته على مصر الا فترة وجيزة ، وقد بدأ الجبرتى صورته الوصفية بقوله : « أحدثوا على التل المعروف بتل العقارب بالناصرية ، أبنية وكرانك وأبراجا ، ووضعوا فيها عدة من آلات الحرب ... وأفردوا للمدبرين (العلماء القائمين على معامل التجارب) والفلكيين وأهل المعرفة والعلوم الرياضية ، كالهندسة والهيئة والنقوشات والرسومات والمصورين والكتبة والحساب والمنشئين ، حارة الناصرية ... ... واذا حضر اليهم بعض المسلمين ممن يريدون الفرجة لا يمنعونه الدخول الى أعز أماكنهم ، ويتلقونه بالبشاشة والضحك ... ... ومن أغرب ما رأيته فى ذلك المكان أن بعضهم قد أخذ زجاجة من الزجاجات الموضوع فيها بعض المياه المستخرجة ، فصب منها شيئا فى كأس ، ثم صب عليها شيئا من زجاجة أخرى ، فعلا الماء وصعد منه دخان ملون حتى انقطع وجف ما فى الكأس وصار حجرا أصفر ... أخذناه بأيدينا ونظرناه ، ثم فعل كذلك بمياه أخرى فجمد حجرا أزرق ، وبأخرى فجمد حجرا أحمر ياقوتيا ، وأخذ مرة شيئا قليلا جدا من غبار أبيض ووضعه على السندال وضربه بالمطرقة بلطف ، فخرج له صوت هائل كصوت القرابانة ، انزعجنا منه فضحكوا منا ... وأداروا زجاجة فتولد من حركتها شرر يطير بملاقاة ادنى شىء كثيف ، ويظهر له صوت وطقطقة ، واذا لمس شخص ولو خيطا لطيفا متصلا بها ، ولمس آخر الزجاجة الدائرة ، أو قرب منها بيده الأخرى ، ارتج بدنه وارتعد جسمه وطقطقت عظام أكتافه وسواعده فى الحال ، برجة سريعة ، ومن لمس اللامس أو شيئا من ثيابه أو شيئا متصلا به ، حصل له ذلك ولو كانوا ألفا أو

أكثر ، ولهم فيه أمور وأحوال وتراكيب غريبـــة ينتج منها نتائج لا يسعها عقول أمثالنا » (عبد الرحمن الجبرتى ، عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، حوادث سنة ١٢١٣ هـ) •

قلت انها عبارة قصيرة ، ولكنها مشحونة بالدلالة ، ومن أوضح دلالتها أنها وان تكن عبارة تصور زيارة قام بها مصرى لمركز علمى اقامه الفرنسيون فور وصولهم غزاة لمصر ، عندما كان القرن الثامن عشر قد اخـذ يغلق أبوابه لتنفتح بعدها أبواب القرن التاسع عشر ، الا أنها فى أعماقها صـورة موجزة مركزة للحظة التقت فيها حضارتان : جديدة وافدة وقديمـة راكدة ، فكانت أجهزة الحضارة الجديدة الوافدة فى أعين أبناء الحضارة القديمة الراكدة ــ وأى أبناء ؟ علية العلية من مثقفيهم ، بمقدار ما كانت ثقافة الجبرتى بالقيـاس الى ثقافة الجماهير من أبناء الشعب العريض ــ أقول ان اجهزة الحضارة الجديدة قد بدت لأعين تلك العلية المصطفاة من رجال الفكر فى الحضارة العتيقة ، وكأنها ألاعيب السحرة ، فكلما تفجرت تجربة كيمـاوية أمامهم بصوت ، أخـذهم الفزع فضحك الغزاة الفاتحون ضحك من جاء يحمل معه العلم الجديد ، ممن كانوا قد عشيت أبصارهم من عتمة الجهالة والركود ، ولعل الجملة الأخيرة من النص المختار ، فيها ما يلخص الموقف الحضارى عندئذ أكمل تلخيص وأجلاه ، اذ يقول الجبرتى ــ بعد أن أبصر علمـاء القوم يداعبونه هو وزملاءه ببعض مظاهر الكهرباء ــ « ولهم فيه أمور وأحوال وتراكيب غريبة ينتج منها نتائج لا يسعها عقول أمثالنا » •

كانت تلك هى اللحظة الفريدة فى تاريخنا الفكرى ، التى آذنت بشوط حضارى جديد نبدأ السير فيه ، لنأخذ عن هؤلاء القوم علومهم وآدابهم ، ولقد أخذنا نغذ السير ما وسعتنا الهمة ، وننقل من علومهم وآدابهم ما أسـعفتنا القدرة وأعانتنا الظروف ، طوال القرن التاسع عشر ونصف القرن العشرين •

فليس الانتقال من عصر حضارى الى عصر ، ألعوبة يلهو بها من اراد أن يلهو وفى أى وقت أراد ، لا ، ليس هذا الانتقال شربة يجرعها من شاء حيثما شاء وكيفما ، بل انه لأقرب الى جهاد المؤمنين ، فيه الصبر وفيه العناء وفيـه الاخلاص وفيه التضحيات ، ألا ما أسرع ما تضلنا اللغـة بألفاظها ، فتعطينا

اللفظة الواحدة ، فيسهل علينا نطقها وتداولها فى الحديث ، ثم ما هو الا أن نظن بذلك أن قد فرغت مهمتنا وتحقق الأمل ! فهذه كلمـــة « حضارة » : يقولون لنا « حضارة العصر » فنردد بعدهم القول « حضارة العصر » ، ونظل نردد ونردد ، بكلام منطوق مرة ، ومكتوب مرة ، ومذاع على الناس مرات . وعندئذ توشك النفس أن تنجح فى خداع نفسها ، اذ توشك على الاعتقـاد بأنها قد لبست حضارة العصر بالفعل ما دام اللفظ « حضارة العصر » قد دار على الألسنة كل هـذا الدوران ! لكن هـذه اللفظة ، أو هاتين اللفظتين ، وراءهما ما وراءهما من تفصيلات تعد بألوف الألوف ، ان « حضارة العصر » ليست خيطا رفيعا نلفه حول خناصرنا متى شئنا ، ثم نزيله متى شئنا ، بل هى نسيج نسجت ديباجته من ملايين الخيوط الدقيقة ، التى تتشابك فيهـا اللحمة بالسدى تشابكا يجعل مما يشبه المحال أن نأخذ منهـا خيطا وندع خيطا على مزاجنا ، ولكى تنقل الى قومك هذه الديباجة بكل خيوطها ، يتطلب منك جهادا طويلا مستميتا مؤمنا بالهدف وبالوسيلة معا ، وفوق ذلك يتطلب منك أن تعرى الأجسام من الأسمال التى تغطيها ، لتتلقى ما تنقله اليهـا من رداء جديد .

أقول ذلك وفى ذهنى صـورة سريعة للطريق الذى كانت بدايته تلك اللحظة التى صدم فيها الجبرتى وزملاؤه حين وقعت أبصـارهم على أفاعيل السحرة الفرنسيين من علماء الكيمياء والفزياء وغير ذلك ، وهو الطريق الذى أخـذنا طيلة قرن ونصف قرن نمهده ونعبـده ونفتت ما ملأ جوانبـه من « الزلط » والحصى ، ولم يكن هذا الجهد كله ليفلح قيد أنملة لولا أن هيأ لنـا الله خلال تلك الفترة الطويلة رجالا حملوا الشعلة وأمسكوا بالفئوس ، ينيرون المكان بالشعلة ثم يحطمون العوائق بالفئوس ، وهم الرجـال الذين ما انفكوا ينقلون الينا ما قد بلغته أوروبا عندئذ من نتاج حضارى جديد .

لم يكن قد بلغ منا اليأس شيئا مذكورا ، برغم مسافة الخلف البعيـدة التى كانت ما تزال تفصل بيننا وبين ما أردنا تحقيقه ، وفجاة تفجر العـالم المتقدم عن حضارة جديدة تكاد تنسخ سابقتها نسخا ! وهى حضارة كلمـا واجهتنا بنتاجها المذهل العجيب ، وقفنا مما نراه موقفـا لا يختلف كثيرا عن

وقفة الجبرتي أمام ما رآه من معالم الحضارة الأوروبية عندئذ ، فالنظرة في كلتا الحالتين واحدة ، تلخصها جملة الجبرتي : « ... نتائج لا يسعها عقول أمثالنا » .

ومع ذلك فقد كانت دهشة الجبرتي بداية طريق سرنا فيه طيلة قرن ونصف لا نيأس من الجهاد لننقل شيئا ولو يسيرا مما فاتنا ، فهل يهيىء لنا الله هذه المرة أيضا من يدفعنا الى بداية أخرى بطريق جديد نسير فيه الى ما شاء لنا الله أن نسير ؟ ان الأمر ليقتضي بادىء ذي بدء أن يظهر منا رجال يشعلون لنا القبس ، ويبصروننا بما ينبغي تحقيقه لو أردنا أن نلحق بعصرنا بأي معنى من معاني اللحوق .

ويقيني ان هذا الكتاب الذي بين يديك ، هو من هذا القبيل المرتجى ، واني لأشهد الله بأنني ما وجدت نفسي على مرأى البصر والبصيرة معا ، من عوامل الحياة المعاصرة لنا ، بكل ما تشابكت فيها من خيوط ، بقدر ما وجدتها حين قرأت فصول هذا الكتاب ، فقد استطاع مؤلفه الفاضل المطلع القدير الأستاذ الدكتور حازم الببلاوي أن يضع قارئه في الخضم المتلاطم الذي هو عصرنا ، دفعة واحدة ، فمن حولك المشهد ناطق صارخ ، لا يدع أدنى مجال لريبة المرتاب ، بالشروط التي لا مندوحة عن توافرها للأمة اذا أرادت أن تكون بحق أمة تعيش في عصرها هذا ، نعم ، انني لأجد نفسي بين صفحاته أحيانا وكأنما اليأس قد أمسك بخناقي ؛ حين أشعر أن ما يصف به الكاتب عصرها هذا وما يقتضيه ، انما هو شيء أبعد من بلوغ الشمس ، فأين لنا هذه التقنيات كلها (التكنولوجيا) ، وهذا الوعي كله ، وهذه الدقة كلها والتنظيم كله ؟ وأين لنا هذا وليس لنا منه الا القليل الأقل ؟ .

لكني سرعان ما أنقذ نفسي من هوة اليأس — وبتأثير الكاتب نفسه — فأقول مخاطبا نفسي : انهن أسئلة ثلاثة تلقيها على نفسك لتجيب عنها جوابا لا تلتاث فيه عبارة ولا يغمض معنى ، وعندئذ ينفتح أمامك طريق السير واضح المعالم محدد الأهداف ، فأولها هو السؤال المشهور الذي واجه به هاملت نفسه الحيرانة : أبقاء تريد أم فناء ؟ فاذا كان جوابك : بل بقاء ، جاءك السؤال الثاني : أهو بقاء المعزول عن عصره أم المغموس في تياره الدافق ؟

واذا كان الجواب : بل البقاء المعتلي ظهور الموج في تيار الحياة ، جاءك السؤال الثالث والأخير : لكن تيار الحياة يا صاحبي فيه المتبوع والتابع ، فأيهما تريد ؟ ولا أظن الجواب الا أن يكون بأنها حياة المتبوع لا التابع ما أريد ، فاذا كان ذلك كذلك ــ وانه لكذلك ــ فليس أمامك الا سبيل واحدة لا ثانى لها ولا ثالث ، وهى أن تتمثل عصرك هذا بثقافته وقيمه ومسالكه وأهدافه ، بعلومه وتقنياته وقوته وحريته ••• ومن لى بصورة منه لأحتذيها ؟ انك واجد فى هذا الكتاب الصغير صورة أكاد لا أعرف لها شبيها مما نشرته الأقلام العربية فى تصوير عصرنا ودوافعه وثناياه •

ولست أريد أن اذكر لك لمحة مما ورد فيه ، لأننا أمة ــ وليعذرنى القارىء فى هذه الصراحة الجارحة ــ تريد خلاصات الأفكار مقدمة لها على أطباق من فضة ، حتى لا تتجشم مؤونة السير فى حنايا الصفحات وسطورها ، ولكنى أريد هنا شيئا واحدا ، هو أن أعبر للأستاذ الدكتور حازم الببلاوى عن أعمق التقدير وأخلصه ، أن أتاح لنا مثل هذا السراج المضيىء •

زكى نجيب محمود

التنظيم السياسي في المجتمع التكنولوجي الحديث

وجهة نظر اقتصادي

تمهيد

ان موضوع التنظيم السياسي في المجتمع التكنولوجي الحديث موضوع واسع ومتشعب الأطراف ، ولا يمكن الاحاطة به في مقال واحد أو من جانب متخصص في فرع واحد • ولذلك فان حديثنا فيه هو بالضرورة حديث قاصر ، والأمر يستدعي مساهمات أخرى من جانب متخصصين في فروع أخرى • وهذا المقال ليس في حقيقته سوى مقدمة ودعوة لمزيد من التأمل في هذا الموضوع الحيوي •

كثر الحديث هذه الأيام عن « المجتمع التكنولوجي الحديث » أو عن « المجتمع الصناعي الحديث » أو عن « مجتمع الاستهلاك(١) » وكلها عبارات

---

* نشرت هذه الدراسة في مجلة « عالم الفكر » ، المجلد الأول ، العدد الأول ، ابريل — يوليو ١٩٧٠ •

(١) أنظر على سبيل المثال : J. Kenneth Galbraith, The New Industrial State, Hamish Hamilton, London 1967;

R. Arron, Dix-Huit Leçons sur la Société Industrielle, Paris, Idée, 1961.

وانظر أيضا ، حازم الببلاوى ، مجتمع الاستهلاك ، على ضوء أحداث مايو ١٩٦٨ في فرنسا ، القاهرة ، ملحق الأهرام الاقتصادى — أكتوبر سنة ١٩٦٨ (المقالة الثانية في هذا المجلد) •

تستخدم الآن للدلالة على الاحساس العام بأننا بدأنا ندخل مرحلة جديدة تمتاز عن سابقتها فى كثير أو قليل ، وتحتاج فى جميع الأحوال الى مزيد من التأمل والمعرفة •

وقبل أن نبدأ فى محاولة التعريف بهذا المجتمع الجديد وخصائصه ، فاننا ننبه الى أمر هام وهو أن التاريخ مستمر لا انقطاع فيه ، وأننا نستطيع أن نجد بذور هذا « المجتمع الحديث » منذ وقت طويل • كذلك فان ما نتصور أنه « المجتمع الحديث » لا زال يحمل آثارا وبقايا كثيرة من مخلفات الماضى وبدرجات متفاوتة • ولذلك فاذا تحدثنا عن خصائص هذا « المجتمع الحديث » فيجب ألا ننسى أنه لا توجد صورة نقية لهذا المجتمع وأن « الواقع » هو عبارة عن خليط من عناصر كثيرة بعضها متنافر وبعضها متناسق • ولذلك فان ما سنتكلم عنه هو فى الواقع عبارة عن طراز نظرى Type وصورة نقية من « الواقع » ، أو عبارة عن نموذج أو تصور Concept لهذا المجتمع ، رغم أنه لا يوجد فى الواقع بهذا النقاء • فالمجتمع المعاصر هو خليط من خصائص هذا المجتمع الجديد ، ومن آثار وبقايا صور المجتمعات السابقة ، ولا تخفى أهمية هذه الآثار والبقايا فى التأثير على سلوك الأفراد والجماعات ، ولو كانت تعبيرا عن أوضاع هى فى سبيل الانتهاء • وهذا الأسلوب فى تحليل خصائص المجتمع الحديث ، رغم ما يتضمنه من تهذيب أو تشويه للواقع ، وهو الأسلوب الوحيد الذى يسمح لنا بادراك خصائص هذا « المجتمع الحديث » والنتائج التى يمكن ترتيبها عليه • وقد كان هذا الأسلوب ناجحا فى جميع المحاولات التى بذلت لمعرفة تطور الجماعات وخصائصها وقد اتبعه Max Weber ، كما أن تجريد ماركس لا يخرج عن هذا الأسلوب •

ونشير أولا الى أن تسمية هذا « المجتمع الحديث » بالمجتمع « التكنولوجى » انما هى اشارة الى الأهمية الكبرى التى تحتلها التكنولوجيا الحديثة وتطورها وأثر ذلك على طبيعة وخصائص المجتمع الحديث • واذا كان تاريخ الانسان هو فى الواقع تاريخ تطور أدوات الانسان ، أو هو تاريخ

التكنولوجيا بالمعنى الواسع(١) ، فان التكنولوجيا الحديثة قد أخذت طابعا جديدا تميز بوجه خاص في سرعة التطور وخطورته واعتمـــاده على العلم والمعرفة والبحث وليس على مجرد التجريب والخبرة .

وهذا المجتمع الحديث يمثل في الواقع مرحلة جديدة من مراحل الثورة الصناعية . فالسائد هو أن الثورة الصناعية بدأت في انجلترا وفي غرب أوروبا في النصف الأخير من القرن الثامن عشر . ولعل الحقيقة أن هذه ليست الثورة الصناعية الأولى ، ولكنها الثورة الثانية . فالثورة الصناعية الأولى تمت في القرن السادس عشر في انجلترا وفي أجزاء كثيرة من أوروبا ، وقد أخـذت صورة الثورة الزراعية في انجلترا بالقضاء على الحقول المفتوحة Open Fields ، وظهور طبقة الكادحين ، وقيام صناعات كثيرة في جنوب ألمانيـــا وفرنسا وفي انجلترا . وهذه الثورة الصناعية الأولى هي التي مهدت للثورة الصناعية الثانية في القرن الثامن عشر وعصر اكتشاف البخار(٢) . ولعل مجتمع اليوم الحديث يمثل الثورة الصناعية الثالثة ! وهكذا نستطيع أن نلمح أن المجتمع التكنولوجي الحديث انما هو مرحلة من تطور بدأ منذ وقت طويل وان لم تظهر خصائصه على نحو واضح الا في أيامنا هذه وفي أجزاء بسيطة من المعمورة في مقدمتها الولايات المتحدة الامريكية وبدرجة أقل في أوروبا .

والتطور الذي لحق التكنولوجيا الحديثة من الخطورة والأهمية ، بحيث اننا نستطيع القول بأن طبيعة المجتمع الذي نعيش فيه ، والقيم التي تسيطر على سلوكنا ، والحاجات التي نسعى لاشباعها .. الخ قد تأثرت بشكل مباشر بهذه الثورة التكنولوجية الحديثة ، ونود أن نشير هنا الى أن الماركســـية قد فتحت طريقا خصبا لدراسة تطور المجتمعات بربط هذا التطور بالتطـور الذي لحق

---

(١) أنظر على سبيل المثال تاريخ العالم « الطبعة الفرنسية » Cf U.N.E.S.C.O. Histoire Universelle de l'Humanité, Vol. I, Prehistoire, Paris, Robert Laffont, 1968.

(٢) cf NEF, la civilisation industrielle, Paris, Armant Colin, 1954.

أدوات الانتاج ، ولكن الماركسية ذاتها قد عاقت دون الوصول الى نهاية هـذا المنطق ، وكانت من أسباب تأخر الاهتمام بخصـائص المجتمع التكنـولوجى الحديث ـ وذلك لأنها ركزت بوجه خاص على نظام الملكية ، بتأكيدها أن تطور أدوات الانتاج يؤدى الى تطور مقابل فى شـكل الملكية : ملكية خاصـة أو ملكية عامة • ولكن هذا ليس الا جانبـا فقط من آثار تطور التكنولوجيـا • وهناك آثار أخرى على الادارة الاقتصـادية بصفة عامة قد لا ترتبط بالملكية القانونية • ومن هنا وقفت الماركسية عند حـد التمييز بين الدول الرأسمالية والدول الاشتراكية • وسوف نرى أن تطور التكنولوجيـا قد أدى الى ظهور نوع من التماثل ان لم يكن من التشـابه بين الدول الرأسـمالية والدول الاشتراكية التى قطعت أشواطا كبيرة فى مجال التقدم التكنوولوجى • وهكذا فاننا نعتقد أن دراسـة خصائص المجتمع التكنولوجى الحـديث تجاوز فكرة الملكية القانونية •

ونود الآن أن نتعرض لأهم خصـائص المجتمع الصناعى الحـديث أو التكنولوجى الحديث • ونلاحظ أن بعض هذه الخصائص ليست حديثة ، بل اننا نعرفها منذ مدة ــ على الأقل منذ الثورة الصناعية فى القرن الثامن عشر ــ والجديد فى الواقع هو فى مدى تأكيد هذه الخصائص من ناحية وفى توافرها مجتمعة وليست منفردة من ناحية أخرى •

الحساب الاقتصادى :

لعل أهم ما يميز المجتمع الصناعى عن المجتمعـات السابقة هو التغـير المستمر ، التغير فى وسائل الانتاج وما يترتب على ذلك من تغـير مستمر فى الأذواق وفى الكفاءة الفنية لعناصر الانتاج ... الخ • فالمجتمعات السابقة كان يسودها نوع من الثبات والاستقرار النسبى بحيث أن العـادة والروتين كانا ينظمان كل شئون الانتاج والتوزيع • الزراعة والرعى والصيد تكاد تخضـع لناموس الطبيعة من حيث الدورة الزراعية ومواسم الصيد بحيث تكـاد تتكون مجموعة من العادات الثابتة الموروثة للقيـام بهذه النشاطات • وتتأكد هـذه

العادات وتنتقل من جيل الى آخر دون تغير يذكر ، ويكاد يحكم الفرد في مثل هذه الظروف مجموعة من ردود الفعل المشروطة • فلا حاجة هناك الى التفكير المستمر لمواجهة أحداث جديدة ، وانما لكل حدث طريقة مواجهته ، وهى طريقة أثبتت كفاءتها خلال أجيال متعاقبة • وفى مثل هذه الظروف لا تقوم أية حاجة الى الحساب الاقتصادى والتخطيط والتنبؤ • فالعادات والتقاليد كفيلة بذلك • وليس الحال كذلك فى المجتمع الصناعى •

ان تاريخ الثورة الصناعية كما هو معروف مرتبط بنشأة الرأسمالية ولا يمكن التأريخ لأحدهما دون الآخر • وقد قامت الرأسمالية الأولى ـ المعروفة باسم الرأسمالية التجارية ـ على أنقاض النظام الاقطاعى وظهور أوجه جديدة من النشاطات فى مقدمتها التجارة ثم الصناعة • وقد ارتبط ذلك بعالم جديد تسوده المخاطر وعدم الاستقرار • وعرف المنظم Entrepreneur ـ وهو عماد النظام الاقتصادى فى ذلك الوقت ـ بأنه الشخص الذى يتحمل المخاطر ويقبلها فى سبيل الانتاج ، وبذلك دخل عنصر التنبؤ والحساب كعنصر أساسى فى الحياة الاقتصادية • وظهرت النظرية الاقتصادية كمحاولة لبيان أفضل الطرق للاختيار بين الامكانيات المتاحة ، Problem of Choice ، وظهرت فكرة الرشادة الاقتصادية Economic Rationality • ومن ذلك كله نجد أن الحساب والتفضيل بين مختلف الامكانيات المتاحة أصبح أمرا ضروريا• فعلمتنا النظرية الاقتصادية سلوك المستهلك الرشيد وكيف يحاول أن يستخدم دخله المحدود للحصول على أكبر قدر ممكن من الاشباع ـ باختيار السلع التى تحقق له ذلك ، وتحديد الكميات المناسبة من كل منها • كذلك على المستهلك أن يختار بين الاستهلاك الحالى وبين الاستهلاك المستقبل (الادخار) مراعيا فى ذلك ـ قدر الامكان ـ تحقيق أكبر قدر من الاشباع • ونفس الأمر نجده عند المنتج ، وربما بشكل أوضح ، فنظرية المشروع تبين لنا كيف يستطيع المنتج أن يتخذ قراراته المتعلقة بالانتاج لتحقيق أكبر قدر ممكن من الربح ، أو أقل خسارة • هناك اختيار المنتج لوسيلة الانتاج المناسبة ، اذ أن انتاج السلعة مع تقدم الفن التكنولوجى قد أصبح ممكنا بعدة وسائل • ثم عليه

أن يختار الكمية المناسبة التى يمكن أن ينتجها • وهو أيضا يتخـــذ قرارات متعلقة بالمستقبل فيما يتعلق بالاسثمارات والاختيار بـــين وجوه الاستثمارات المكنة • **وفى كل ذلك نجد أن الحساب الاقتصـادى قد أصبح جزءا من حياة المجتمع ، ولم تعد العـادة والتقاليد كافيين للاستمرار فى الانتـاج ، بل ربما أصبح الخروج على هذه العادات والتقاليد هو ما يكفل التقدم المستمر** • ومن هنا نستطيع أن نفهم كيف أن كثيرين من الاقتصاديين يعرفون المنظم ودوره فى الحيـــاة الاقتصـــادية بأنه ذلك الفرد القـــادر على التجـــديد والابتكـــار Innovation (١) فى مجال الانتاج والفن الانتاجى •

وسوف نرى أن هذا الحساب الاقتصادى قد اتسع نطـــاقه بحيث يكاد يشمل الاقتصاد فى مجموعه فى شكل سياسات اقتصادية اجمالية تتدخل بهـا الدول لتحقيق أهدافها الاقتصادية ، وفى شكل خطط اقتصادية تضعها بوجـه خاص المجتمعات الصناعية الاشتراكية • وسوف نشير الى أن هنـاك نوعا من التقارب فى هذا الحساب الاقتصادى الاجمالى •

الثورة الصناعية نشأت كما سبق أن رأينـــا مع الرأسمالية التجـارية ، وتطورت مع الرأسمالية الصناعية حتى أوائل القرن العشرين • ومنـذ ثورة ١٩١٧ الاشتراكية فى الاتحاد السوفييتى ونحن نعاصر اتجاها جديدا للمجتمع الصناعى فى الدول الاشتراكية ، ولذلك يمكن القول بأن للحساب الاقتصادى للمجتمعـــات الصـــناعية الآن صورتين : الصـــورة الرأسمالية والصـورة الاشتراكية • وليس الغرض ممـــا سنعرضه الآن هو اهمـــال الفروق بين النظامين ، ولكن التركيز بوجه خاص على أوجه الشبه المتعلقة بطبيعة المجتمع الصناعى وبخاصة فيما يتعلق هنا بالحساب الاقتصادى •

كانت النظرية السائدة ــ وربما كان الـــواقع فى القرن التاسع عشر ــ تعتبر المنافسة الكاملة هى الصورة الطبيعية للمجتمع الصـــناعى • وقد علمتنا جميع كتب مبادىء الاقتصاد أن المنافسة الكاملة تتميز بعدة خصائص تجعل من

---

(١) F.J. Schumpeter, The Theory of Economic Development, Harvard University Press, 1949.

كل فرد (مستهلكا كان أم منتجا) ذرة في محيط ، غير قـادر على التأثير في الأثمان السائدة في السوق ومن ثم في قرارات غـيره من الأفراد • ويحـدث التأثير نتيجـة لمجموع أفعـال هؤلاء الأفراد مجتمعين • ولذلك فان ادارة الاقتصاد القومي تتم وفقا لما يمكن أن يسمى « باللامركزية الاقتصادية » حيث لا توجد سلطة او فرد قادر على التأثير وحده على الاوضـاع الاقتصـاديه • فالمنافسة الكاملة كما تعرض في كتب مبادىء الاقتصاد تفترض وجود عدد كبير من المستهلكين وعدد كبير من المنتجين وبحيث ان كـل مستهلك او منتج على حدة ليس له اى وزن على السوق في مجموعه • فاذا قرر المستهلك او المنتج زيادة او انقاص استهلاكه او انتاجه فان السوق لن تشعر بهذا الامر ، وينتج التأثير فقط من مجموع افعال المستهلكين والمنتجـين • وبذلك وصف بعض الاقتصاديين(١) حالة الاقتصاد في هذه الصورة بانها تتضمن ذرية atomicité للاقتصاد ، بمعنى انه يتكون من ذرات صغيرة • ويضيف الاقتصاديون عـادة بعض الشروط الفنية التي تضمن توافر المنافسة الـكاملة وعدم اسـتطاعة اى فرد منفرد التأثير على السوق ، مثل توافر العلم بأحوال السـوق ، والتجانس التام للسلعة وعدم وجود عقبات امام الصـناعة ـ وهي شروط الغرض منها الحيلولة دون تمكن أى فرد من التأثير على الاقتصاد •

وفي مثل هـذه الظروف فان الادارة الاقتصـادية للموارد تتم نتيجة لمجموع قرارات الأفراد كما سبق ان أشرنا وبذلك تعتبر مظهرا من مظـاهر اللامركزية الاقتصادية • فالمستهلك مزودا بمعرفة عن حاجاته الشخصـية وترتيب أفضلياته ودخله ، ينزل الى السوق ويطلب كميات مختلفة من السلع اذا سادت أثمان مختلفة لها • ومن مجموع طلبات المستهلكين الفردية يتحدد الطلب الكلي • وبالمثل فان كل منتج مزودا بمعرفة عن امكانياته الفنية وبرغبته في الحصول على أقصى ربح ممكن ينزل الى السوق ويعرض كميات مختلفـة

---

(١) انظر على سبيل المثال :
J. Marchal, Cours d'Economie Politique, Librairie de Medicis, 2ème édition, Paris 1957.

ن السلعة اذا سادت أثمان مختلفة لها • ومن مجموع عرض المنتجين يتكون ..رض الكلى • ويسود الثمن فى السوق الذى يسوى بين هذا العرض الكلى والطلب الكلى • وهكذا نرى أن ادارة الموارد الاقتصادية وتوزيعها قد تمت دون تدخل ارادة مركزيه واعية ، وانما نتيجة لمجموع الارادات الفردية • وقد راى ادم سميث أن هذا الوضع يحقق المصلحه العامة نتيجة سعى الافراد لتحقيق مصالحهم الفردية الخاصه و كان هناك يدا خفية Invisible Hand تحقق هذا التوافق •

وقد كان من الطبيعى فى مثل هذه الظروف أن تكون السياسة الاقتصادية المثلى للحكومات هى الامتناع بقدر الامكان عن التدخل فى الحياة الاقتصادية وترك هذه الامور للأفراد طالما ان الصالح الخاص قادر على تحقيق المصلحة العامة بأحسن الطرق • ولكن هذه الاوضاع لم تستمر طويلا ذلك ان تطورا هاما قد لحق المجتمعات الصناعية ، بحيث أصبحت السياسة الاقتصادية للدولة ضرورة لا يمكن التجاوز عنها لتمكين هذه المجتمعات من استمرار نموها دون عقبات شديدة • **وبذلك امتد مجال الحساب الاقتصادى من الوحدات الاقتصادية المنفردة الى حساب اجمالى يتضمن الاقتصاد القومى فى مجموعه ، وبحيث تتخذ السياسات الملائمة لتوقعات المستقبل بالنسبة للاقتصاد القومى فى مجموعه** • وبطبيعة الاحوال فان هذه الصورة من التدخل الاقتصادي الشامل فى الحياة الاقتصادية تجد اكمل تطبيق لها فى الدول الاشتراكية ، حيث تضع الدولة خطة عامة للاقتصاد القومى • ولكننا سوف نشير الى أن تطورا مقابلا ، وان كان بدرجة أقل طبعا ، قد لحق الدول الصناعية الرأسمالية حيث أصبح التدخل ضروريا ، وحيث لم تعد سياسة الحرية الاقتصادية مقبولة على اطلاقها •

ان المنافسة الكاملة كما صورتها النظرية الاقتصادية لم تخرج عن حيز هذه النظرية وقاعات البحث فى القرن العشرين ، أما الواقع فقد عرف صورا أخرى للأسواق بعيدة عن هذا الوضع • ولذلك فان نتائج هذه النظرية فى ضرورة الاعتماد على الحرية الاقتصادية لم تعد صالحة تماما • وسوف تتعرض

فيما بعد لتطور هذه الأســواق • على أن ما يعنينـــا الأن هو أن سياسة عدم التدخل قد قبرت تماما مع الثلث الأول لهذا القرن • فالأزمة العـالمية الشهيرة في الثلاثينيات قد أثبتت عقم السياسات الاقتصادية القائمـــة على الاعتماد على الأفراد وحدهم دون تدخل الدولة • وجاءت أفكار كينز(١) في ذلك الوقت لتبين أن الأثمان والنفقات تتمتع بشيء كبير من الجمود ، ولذلك فانه لا يمكن الاعتماد على تغيراتها وحدها لاعادة التوازن • وقد نشأت في ذلك الوقت حالة من البطالة الضخمة بشكل لم يسبق له مثيل ، ولم تنجح اية سياسات للأجور للقضاء عليها • وأوضح كينز أن الأمر متعلق في الواقع بعدم كفـــاية الطلب الفعلي في الاقتصاد ، مما أدى الى انخفاض الدخل القومي وتحقيـــق توازن للاقتصاد عند مستوى منخفض من العمالة ، مما أدى الى ظهور هذه البطالة • ولذلك فان تدخل السلطات العامة بالقيام بسياسات انفاقية ، الغرض منها زيادة القوة الشرائية والطلب الفعلي هو الاجراء الوحيد القـــادر على زيادة الدخل القومي الى مستوى يسمح بامتصاص هذه البطالة • وبالفعل فان الـدول التي استطاعت أن تخفف من حدة البطالة في ذلك الوقت هي الـــدول التي اتبعت عمدا أو بالصدفة سياسة انفاق تدخلية ، الغرض منها زيادة القوة الشرائية في يد الأفراد • وقد حدث ذلك في ألمانيا النازية مع سياسة التسليح والانفـــاق لشاخت ، كما حدث أمر مشابه في الولايات المتحدة الامريكيـــة مع سياسة الانعاش الاقتصادي للرئيس روزفلت •

ومنذ كتابات كينز قبل الحرب العالمية الثانيـة اتضح أن المجتمع الصناعي قد وصل الى مرحلة تستدعي التدخل المستمر من الدولة في الحياة الاقتصادية بغرض تحقيق الاستقرار الاقتصادي والقضاء على البطـالة • وقد ذهب بعض الاقتصاديين(٢) الى القول بأن هناك ركودا طويل المدى لا يمكن التخلص منه

---

(١) CF. J.M. Keynes, The General Theory of Employment, Interest and Money, Macmillan, London, 1936.

(٢) CF. A. Hansen, Monetary Theory and Fiscal Policy, McGraw-Hill, 1949.

دون سياسة اقتصادية تدخلية مستمرة لحمـــاية الطلب الفعـــلى عند المستوى المطلوب •

وبعد الحرب العالمية الثانيه استكملت أفكـــار كينز من ناحيتين • فمن ناحية ظهرت مشاكل التضخم وارتفاع الاسعار ، ولم يعد تدخل الدولة لازما فقط لتوفير طلب فعلى كاف عند ظهور البطـــالة ، وانما ظهرت مشاكل زيادة هذا الطلب الفعلى ، وضرورة العمل على ضغطه عند ظهور التضخم • وبذلك وجب تدخل الدولة لتحقيق الاستقرار الاقتصادى دون بطـاله ودون تضخم مبالغ فيه •

لذلك ظهرت أهمية السياسة الاقتصادية فى المدة المتوسطة والطويلة ، وليس فقط فى المدة القصيرة • فلم تعد السياسة الاقتصادية للدولة تقتصر على تحقيق الاستقرار الاقتصادى فى المدة القصيرة وانما ظهرت مشـــاكل النمو الاقتصادى فى المدة المتوسطـة والطويلـــه • وقد ارتبط ذلك فى اول الامر بمشاكل اعادة تعمير دول اوروبا ، ثم اصبح جزءا من السياسات الاقتصاديه العمل على توفير قدر معقول من النمو الاقتصادى • واصبح من المعتاد بعد ذلك ان نرى خططا اقتصاديه فى فرنسا وهولنـــدة وانجلترا وغيرها من الدول الصناعيه المتقدمة •

وفى نفس الـــوقت الذى ظهرت فيه الحـــاجة الى ضرورة التـــدخل الاقتصادى فى المجتمعات الصناعية المتقدمه وضرورة وضع سياسات اقتصـــادية اجماليه ، نجد أن الدول الصناعية التى تتبع الاسلوب الاشتراكى وفى مقدمتها الاتحاد السوفياتى قد تبنت منذ ١٩٢٩ الخطط الخمسية للاقتصـــاد القومى • وهذه الخطط تتضمن تحديدا للأهداف التى ينبغى للاقتصـــاد الوصـول اليها وبيان الوسائل الكفيلة بتحقيقها ، وغنى عن البيان أن الخطـــة تعتبر الصورة الأساسية لتطبيق الحساب الاقتصادى الاجمالى على نطاق الدولة •

وبطبيعة الحال ليس من السهـل القـــول بأن التخطيط الاشتراكى[1]

---

(١) انظر ـ احمد جامع ، الاقتصاد الاشتراكى ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٦٩ •

والسياسات الأقتصادية الأجمالية للدول الرأسمالية نتيجة لأفكار كينز ومن بعده ــ ليس من السهل القول بأنهما متشابهان فأوجه الخلاف كثيرة ومتنوعة • ولكن ما آردنا آن نوجه النظر اليه هنا هو أن الحساب الاقتصادى قد اتسع نطاقه فى المجتمعات الصناعية ، ولم يعد قاصرا على الفرد ، وانما جاوز ذلك الى الحساب الاجمالى للاقتصاد فى مجموعه ، وان كانت درجة هذا التدخل ومداه تخلف بسبب طبيعة النظام الاجمالى القائم • وبالرغم من الفروق الضخمه بين النظامين الراسمالى والاشتراكى، فاننا نلمح الان اتجاها لتخفيف هده الفروق، لما سينضح عندما نتعرض للعلاقة بين التخطيط والسوق من المجتمعات الصناعية •

اهمية المشروع الصناعي الكبير :

نشا المشروع الصناعى كوحدة للانتاج مع نشاة النظام الراسمالى وتطور معه • والواقع ان نشاة هدا المشروع لم تظهر فجاة وانما نتيجه لتطور طويل من الصناعات المنزلية الى الصناعات اليدوية ، حتى اخذ شكله الحالى • وقد احدث هذا التطور فى وحدة الانتاج الاساسيه اثارا بعيدة عن الاوضاع الاقتصادية والاجتماعيه السائدة • فمن ناحية انفصل العمل عن الاسرة ، مما كان له ابعد الاثار فى طبيعه العلاقات الاجتماعيه • كما ادى تركيز عدد هائل من العمال فى مكان واحد وفى ظروف متشابهه الى نشوء الوعى الطبقى بين العمال ، كما كان له اثار ايضا على ظروف الحياة فى المدن الصناعيه المكتظه بالسكان وغير ذلك كثير •

على أن المشروع الصناعى لم يعد مظهرا من مظاهر النظام الرأسمالى وحده ، بل جاوز ذلك ليصبح وحدة الانتاج الرئيسية فى ظل المجتمعات الصناعية الحديثة • فالدول التى أخذت بالنظام الاشتراكى ــ وهى تضع نصب أعينها تحقيق أكبر معدل للنمو الاقتصادى على ما سنرى ــ قد وجهت أكبر الاهتمام الى الصناعة وبوجه خاص الصناعات الثقيلة ــ حتى كاد البعض يتصور أن أسلوب النمو الاشتراكى يختلف عن أسلوب النمو الرأسمالى فى الاهتمام

الزائد بالصناعات الثقيلة • (وأيا ما كان الأمر فان الخلاف بين تحقيق التنمية عن طريق الصناعات الثقيلة أو عن طـــريق الصناعات الخفيفة لم تعـد الآن مشكلة مذهبية بين النظامين الرأسمالى والاشتراكى) • والصناعات الثقيلـــة تحتاج أكثر من غيرها الى تراكم رأس المال والى التقدم الانتاجى • ولذلك فان أهمية المشروعات الصناعية الكبرى لم تقل فى النظام الاشتراكى عنها فى النظام الراسمالى •

ونريد أن نلقى نظرة على طبيعة هذه المشروعات الصناعية والتطور الذى لحقها وآثر ذلك على تحديد خصائص المجتمع التكنولوجى الحـــديث أيا كان نظامه الاقتصادى •

هناك أولا ظاهرة أساسية وهى اتجاه المشروعات الصناعية نحو التركز • وقد تنبأ ماركس فى القرن الماضى بأن طبيعة النظام الرأسمالى تؤدى بالضرورة الى تركز المشروعات الصناعية فى عدد قليل من الاحتكـارات الكبرى ، وقد راى فى ذلك ما يساعد على زيادة التناقضات فى هذا النظام • اذ أنه يؤدى الى زيادة عدد الطبقة العاملة والى القضاء على أصحاب الحرف والمشروعات الصغيرة مما سيقوى التناقض الطبقى • كما رأى أنه من ناحية أخرى فان هذا التركز سيؤدى الى انخفاض معدل الأرباح ومن ثم اتجاه النظام الراسمالى الى مرحلة من الركود •

وقد صحت نبوءة ماركس فيما يتعلق باتجـــاه النظـــام الرأسمالى الى التركز ، ولكن بقية الآثار لم تتحقق ، أو على الأقل لم تتحقق على النحو الذى ذكره ماركس • كما لوحظ أن الاتجاه نحو التركز فى المشروعات الصناعية الكبرى ليس ظاهرة خاصة بالنظام الرأسمالى وحده ، وانما هو ظاهرة عـامة فى كافة المجتمعات الصناعية المتقدمة ، سواء أكانت اشتراكية أم رأســمالية • والواقع أن التنبؤ بأن النظام الرأسمالى سوف يتجه بالضرورة الى حـــالة من الركود Stationary State ينخفض فيها معدل الأرباح بحيث لا تقوم أية استثمارات جديدة ولا تحقق أى نوع من التقدم الاقتصادى ـ الواقع أن هذا

النوع من التفكير لم يبتدعه ماركس كلية ، وانما كان قاسما مشتركا بين جميع الاقتصاديين الانجليز فى القرن التاسع عشر ، مما أدى الى تسميتهم بالمدرسة التشاؤمية • فهؤلاء جميعا كانوا يعتقدون فى صحة آراء مالتس فى السكان ، وخاصة قوله بأن عدد السكان يزيد بنسبة اكبر من زيادة الموارد الزراعيه ، وقد كان هؤلاء الاقتصاديون ـ وبوجه خاص ريكاردو الذى اثر فى جميع اجيال الاقتصاديين اللاحقين ـ ضحيه المبالغه فى خطورة ظاهرة تناقص الغله فى الزراعة • فالمجتمع الراسمالى عندهم سيستمر فى النمو مع زيادة تراكم راس المال ، ولكن هذا التراكم لن يستمر الى النهايه نظرا لان ظاهرة تناقص الغله من شانها ان تؤدى الى انخفاض معدل الارباح باستمرار ، وبذلك نصل الى مرحلة الركود التى ينعدم فيها تراكم راس المال لانخفاض معدل الارباح وحيث يحصل الافراد على اجور تلفى حد الكفاف • وقد اخذ ماركس هذه الصورة مع تعديل فى اسباب الركود نتيجة لتركز المشروعات وارتباطها بما يسمى بزيادة الكثافة العضويه لراس المال الثابت • فعند ماركس ينقسم راس المال الى متغير وثابت • وراس المال المتغير يقابل ، بوجه عام ، مايخصص لاجور العمال وهو وحده القادر على خلق فائض القيمه • وراس المال الثابت هو ما يقابل ، بصفة عامة ، ما يخصص للمواد الاوليــــة والالات وغير ذلك (وهذا التعريف يقابل تعريف راس المـــال الثابت والمتداول فى الأصطلاح الحديث) • ويرى ماركس ان هناك اتجاها عاما نحو زيادة نسبة راس المـال الثابت الى رأس المال المتغير ، ونظرا لان فائض القيمة ينتج عن راس المال المتغير وحده فان معدل الأرباح سيتجه بالضرورة الى الانخفاض مما سيؤدى الى حالة الركود المتقدمة •

والحقيقة أن النبوءات المتشائمة بالنسبة الى تركز المشروعات الصناعيــة قد أهملت علاقة هذا التركز بزيادة الكفـــاءة الانتاجية ، وما يستدعيه الفن الانتاجى الحديث من ضرورة تركز المشروعات فى عدد محدود من المشروعات الـــكبرى • **فتركز المشروعات ليس سببه الوحيد طبيعة النظام الرأسمالى ، وانما هو ضرورة فنيـــة يقتضيها الانتاج فى المجتمع التكنولوجى الحـــديث**

وتتطلبها خصائص هذه التكنولوجيا الحديثة •

وأهم ما يميز التكنولوجيا الحديثة هو حاجتها الى مشروعات كبيرة نسبيا وأحيانا كبيرة جدا ، وذلك حتى يمكن استنفادجميع المزايا الفنية • وقد تحدث الاقتصاديون منذ زمن بعيد عما اسموه بمزايا الانتاج الكبير Economies of Scale او مزايا الحجم الكبير • فزيادة حجم المشروع تؤدى الى زيادة فى الانتاج اكبر من الزيادة النسبية فى عناصر الانتاج المستخدمة ، فمضاعفة حجم المشروع يؤدى الى زيادة فى الانتاج اكبر من الضعف • والسبب فى ذلك هو ان المشروع الكبير يستطيع الافادة من مزايا لا تقبل بذاتها الانقسام ، ومن ثم يحرم منها المشروع الصغير • وهذه المزايا عديدة ، مزايا فى الادارة ، مزايا فى الفن الانتاجى باستخدام نوع من الالات او من الطاقة الذى لا يقبل التجزئة ، مزايا فى الحصول على انواع من العمل الماهر ، امكانيات اكبر فى دراسة حاجات السوق •• الخ • وقد اطالت كتب مبادىء الاقتصاد فى تعداد هذه المزايا وانواعها • على انه يبدو أن العامل الحاسم فى العصر الحديث بالنسبة للمشروعات الصناعية الكبرى هو « الابحاث » وهذه الابحاث تتطلب فى العصر الحديث امكانيات مالية ضخمة لا يمكن أن تتوافر للمشروعات الصغيرة • ولذلك يكاد يكون التقدم التكنولوجى الضخم محدودا بالصناعات التى يتركز فيها الانتاج • ولكى تتضح هذه الصورة بشكل أكبر فسوف نشير الى المقصود بعدم القابلية للانقسام والتجزئة وأثر ذلك على مزايا الانتاج الكبير ، ثم نرى مدى امكان تجزئة الأبحاث حتى تفيد منها المشروعات الصغيرة •

حققت العلوم الطبيعية تقدما هائلا لادخال فكرة المتناهى فى الصغر infinitesimale وما ترتب عليها من دراسة معدل التغيير الذى يلحق أحد المتغيرات نتيجة لتغيير متناه فى الصغر لمتغير آخر • وقد أدت هذه الأفكار بليبنز ونيوتن فى القرن السابع عشر الى اكتشاف قواعد التحليل الرياضى (التفاضل والتكامل) وما ترتب على ذلك من نتائج هامة فى جميع العلوم

الطبيعية التى لا تزال تجنى ثمارها حتى الآن فى مجال التطبيق • وهذه الفكرة تفترض القابلية للانقسام والتجزئة بما يسمح بأخذ تغيير صغير جدا (متناه فى الصغر حتى يقترب من الصفر) •

هذه الفكرة نفسها عرفها الاقتصاد متأخرا قرنين من الزمان عندما قام ثلاثة من الاقتصاديين منفردين وفى أماكن مختلفة ، بتقديم أساس التحليل الحدى Marginal analysis (كارل منجر فى النمسا ، ليون فالراس فى سويسرا ، ستانلى جيفونز فى انجلترا) حوالى ١٨٧٠ • وتقوم هذه النظرية الحدية على دراسة ماذا يحدث فى أحد المتغيرات اذا حدث تغيير طفيف جدا فى أحد المتغيرات الأخرى (يكاد يقترب من الصفر) • ومن الواضح أن صلة القرابة قوية بين هذا التحليل الحدى فى الاقتصاد والتحليل الرياضى فى العلوم الطبيعية • وقد قدم هذا التحليل الحدى نتائج باهرة فى الاقتصاد الى جانب أنه ساعد على أناقة عرض النظريات الاقتصادية • ولكن هذا التحليل الحدى يفترض أيضا القابلية للتجزئة وللانقسام ، أو بعبارة أكثر فنية يفترض أن دوال الاقتصاد دوال مستمرة Continuous Functions • والحقيقة أن الاقتصاد يعرف كثيرا من الحالات التى لا يصدق فيها ذلك ، وحيث يكون الأصل انقطاع وعدم اتصال هذا الدوال Discontinuity • ولبيان فكرة الاستمرار والانقطاع فى مجال الفن الانتاجى • وهو الذى يهمنا هنا ــ بأمثلة توضح هذه التفرقة نشير الى أن النظرية الحدية فى الاقتصاد تفترض أن دوال الفن الانتاجى Production Functions مستمرة • ومعنى ذلك أنه اذا كان هناك فن انتاجى معين لانتاج سلعة معينة وأن هذا الفن الانتاجى يستخدم نسبة معينة من العمل من نوع معين ومن رأس مال من نوع معين ، فانه يمكن دائما افتراض حدوث تغييرات متناهية فى الصغر فى كل من هذا العمل ومن الرأسمال • ومعنى ذلك أن هذا العمل وهذا الرأسمال قابل للانقسام والتجزئة الى أى درجة نريد • وعلى ذلك فاذا كان هناك مصنع صغير جدا فانه يستطيع أن يفيد من هذا الفن الانتاجى بحصوله على قدر صغير جدا من هذا العمل وقدر صغير من هذا الرأسمال ، ولا خطورة لأننا نفترض القابلية للانقسام •

أما القول بأن دوال الانتاج غير مستمرة ، فمعنى ذلك أنه اذا كان هناك فن انتاجى معين لانتاج سلعة معينة ، وان هذا الفن الانتاجى يستخدم نسبة معينة من العمل من نوع معين ومن رأس المال من نوع معين ، فانه لا يمكن افتراض تجزئة هذا العمل أو هذا الرأسمال كما نريد ، وانما هناك حدود لامكان احداث هذه التجزئة • فقد تكون الآلة التى تتضمن نوعا معينا من الكفاءة الانتاجية بحجم معين لا يمكن تجزئتها بالحصول على نفس النوع من الآلة بحجم أصغر ، ولعل من أبرز الأمثلة على عدم امكان التجزئة : الطاقة الذرية • فمن المعروف أن الطاقة الذرية تولد طاقة كبيرة جدا ، وحيثما نكون بحاجة الى هذه الطاقة الضخمة فانها تكون أرخص من غيرها من أنواع الطاقة الأخرى • ولكن هذه الطاقة الذرية لا تنتج الا بأحجام ضخمة بحيث لا يمكن استخدامها الا فى مشروعات ضخمة جدا • فهى لا تقبل التجزئة • فهذه الطاقة قد تكون أرخص من البترول بالنسبة لمشروعات ضخمة جدا مثل ازالة بعض الجبال وتمهيد الأرض أو انشاء سفينة تدور حول الأرض عدة مرات ، ولكن لن يأتى اليوم — على الأقل فى حدود المعقول — الذى تستخدم فيه هذه الطاقة لاشعال ولاعة للسجائر • والسبب فى ذلك هو أن الطاقة الذرية غير قابلة للتجزئة فى جميع الأحوال •

وهكذا نرى أن عدم القابلية للتجزئة والانقسام هو السبب فى مزايا الانتاج الكبير الذى يتمكن من الافادة من عناصر لا تقبل بطبيعتها التجزئة ومن ثم تحرم منها المشروعات الصغيرة •

وقد سبق أن أشرنا الى أن العناصر التى لا تقبل التجزئة والانقسام كثيرة ، ولكن لعل أهمها فى العصر الحديث **هو فى مجال البحث** • وهذا السبب هو ما يفسر تفوق المشروعات الكبرى على المشروعات الصغيرة • وهو أيضا يفسر الى حد بعيد المزايا التى تحققها الدول الكبرى بالنسبة للدول الصغيرة بالنظر الى تمتعها بمزايا الانتاج الكبير فى مجال الأبحاث •

لعل أهم ما يميز البحث العلمى فى العصر الحديث ، على ما سنشير اليه ،

أن التقدم العلمى لم يعد نتيجة عمل فرد عبقرى بقدر ما هو نتيجة لعمل مجموعة كبيرة من الباحثين فى فروع مختلفة ومتكاملة ، وبحيث يتوافر لها امكانيات مالية ومعملية ضخمة تمكنهم من اجراء البحوث والتجارب • وهكذا نجد أن البحث هو من أهم المجالات التى تظهر فيها مزايا الانتاج الكبير • فحيثما تتوافر الامكانيات المالية والمعملية يمكن دائما تحقيق نتائج أفضل •

والمشروعات الكبرى فى العصر الحديث لم تعد مجرد وحدات للانتاج ، ولكنها أيضا وحدات للبحث العلمى • وتركز الصناعة يساعد الى حد بعيد على زيادة الامكانيات المخصصة للبحث فى الصناعة • ولذلك نجد أن البحث العلمى لا يقتصر فى الدول الصناعية المتقدمة على الجامعات بل تشارك فيه أيضا الصناعات الكبرى بنصيب كبير • وهذا الأمر واضح بالنسبة للولايات المتحدة الامريكية • كذلك تقدم الصناعات الكبرى المنح المالية والعقود الى الجامعات للقيام بأبحاث مشتركة ، كما قد تقوم بعض هذه الصناعات برعاية مراكز الأبحاث وبعض الجامعات كما حدث أخيرا بالنسبة للجامعات الاقليمية الحديثة فى انجلترا • وعلى ذلك فان المشروعات الكبرى تحقق مزايا ضخمة لا تعرفها المشروعات الصغيرة فى مقدمتها الأبحاث •

وهكذا نستطيع أن نفهم لماذا حققت معظم الدول الصناعية الكبرى معدلات كبيرة من النمو فى ظل الصناعات المركزة ، فى حين أن النظرية الاقتصادية كانت تدعى أن المنافسة الكاملة وحدها هى الكفيلة بتحقيق التقدم الاقتصادى ، وأن أى مظهر من مظاهر الاحتكار (التركز يأخذ غالبا شكل المنافسة الاحتكارية بين عدد قليل من المشروعات) من شأنه الاضرار بالكفاءة الاقتصادية • ولعل السبب فى هذا الموقف من النظرية الاقتصادية «التقليدية» هو أنها كانت تفترض دائما القابلية المطلقة للانقسام لجميع العناصر ، وأن المنافسة من شأنها تحقيق الانتاج عند أقل تكلفة (التكلفة الحدية تساوى مع[1])

---

(١) أنظر فى ذلك كتب مبادىء الاقتصاد على سبيل المثال ، أحمد أبو اسماعيل ، أصول الاقتصاد ، دار النهضة العربية ، ١٩٦٦ •

التكلفة المتوسطة وتعادل الثمن) • وهذه النظرية تهمل نتائج التقـدم الفنى المتحقق عن طريق الأبحاث والافادة من مزايا الانتاج الكبير الناجم عن تركز المشروعات الصناعية[1] •

وتركز المشروعات الصناعية ليس ظاهرة قاصرة على الدول الرأسمالية ، بل هو ظاهرة فنية نجدها أيضا فى الدول الاشتراكية الصناعية المتقدمة • لأن ظاهرة عدم الانقسام والتجزئة بالنسبة لكثير من عناصر الانتـاج انما هى من الأمور الفنية والتى ترتبط بطبيعة التقدم التكنولوجى بصرف النظر عن شـكل الملكية القانونية لعناصر الانتاج • واذا كان من الممكن فى الدول الاشتراكيـة تركيز الأبحاث فى مؤسسات ومعاهد قومية بحيث تؤدى خدماتها للمشروعات الكبيرة والصغيرة على السواء الا أنه من الواضح أن المشروعات الكبرى ستكون أقدر على الافادة من هذه الأبحاث لتنوع مشاكلها ولوجود عناصر عالية الكفاءة فى ادارتها تمكنها من توجيه الأبحـاث لصالحها وذلك بعكس المشروعـات الصغيرة التى ليس لديها المشاكل ولا القدرة الفنية اللازمة للافـادة من هـذه الأبحاث وللتأثير على توجيهها •

كذلك فان جميع أسباب مزايا الانتاج الكبير الأخرى الراجعة الى عدم انقسام العناصر الأخرى كالفن الانتـاجى الحـديث ، وبعض أنواع الطاقة والادارة المالية ، ودراسة الأسواق •• الخ • تتوافر بصرف النظر عن النظام الاقتصادى ، رأسماليا كان أو اشتراكيا •

عـلى أنه ينبغى أن يلاحظ أن التقـدم الفنى والذى أدى الى تركز الصناعات لم يكن متماثلا فى جميع الصناعات من ناحيـة ، وان التركز فى الصناعات الأساسية قد اصطحب من ناحيـة أخرى ، بمزيد من الارتبـاط والتبعية بين قطاعات الاقتصاد • وقد ترتب على ذلك أن نشأ نوع من الارتباط

---

(١) Cf. K. Galbraith, American Capitalism, Boston, Houghton, 1956.

والتبعية بين قاطعات الانتاج . وقد تطورت فكرة الارتباط بين قاطعات الانتاج في النظرية الاقتصادية .

فقد بدأ منذ نهاية القرن التاسع عشر الاتجاه نحو النظر الى الاقتصاد القومي باعتباره كلا مترابطا لا يمكن فصل أجزائه ودراستها دراسة منفصلة، فكل جزء يتوقف على ما يتم في الأجزاء الأخرى. وقد ظهر ذلك بوجه خاص في أعمال فالراس في نظريته في التوازن الشامل General equilibrium(1) وبمقتضى هذه النظرية فان تحديد التوازن في سوق سلعة معينة لا يتوقف على ظروف هذه السوق وحدها ، وانما يتوقف أيضا على أثمان جميع السلع الأخرى ، ومن ثم فانه لا يمكن تحديد ثمن التوازن في كل سوق منفصلة كما تتجه نظرية التوازن الجزئي Partial equilibrium . وبعبارة أخرى اذا كان التوازن يتحقق عندما يسود الثمن الذى يسوى بين الكمية المطلوبة والكمية المعروضة من السلعة ، واذا كانت الكمية المطلوبة بدورها تتوقف على الثمن (أى أنها دالة للثمن) وبالمثل تتوقف الكمية المعروضة على الثمن (أى أنها دالة للثمن) ، فان التجديد الذى أتى به فالراس هو انه ذكر أن دالة الطلب على السلعة لا تتوقف على ثمن هذه السلعة فقط وانما أيضا على أثمان السلع الأخرى . وبذلك لا نكون بصدد دالتين للعرض والطلب ومتغير واحد هو الثمن للسلعة محل الدراسة ، وانما يكون هناك عدد كبير من المتغيرات بعدد أثمان السلع الأخرى . ومعنى ذلك أننا نكون بصدد نظام كامل للتوازن ينبغى حله مرة واحدة بايجاد حل آنى لنظام من المعادلات الآنية Simultaneous equations لطلب وعرض جميع السلع ، وكل منها تتوقف على متغيرات عديدة هى أثمان السلع الأخرى . ويمكن حل هذا النظام دفعة واحدة لأننا نكون بصدد عدد من المعادلات مساو للمتغيرات . وأهمية هذا النوع من التفكير هو أنه بين الترابط بين أجزاء الاقتصاد .

ويستند هذا الترابط فى الاقتصاد الى الترابط فى الطلب وفى العرض .

---

(1) Eléments d'Economie Politique Pure, 9ème édition, Paris, 1958.

فمن ناحية يرتبط الطلب على سلعة معينة ليس فقط بثمنها وانما بأثمان السلع الأخرى المنافسة والمكملة لها • وبالمثل فان عرض السلعة لا يتوقف على ثمنها فقط وانما على أثمان عناصر الانتاج الأخرى وبحسب درجة الاحلال بين هذه العناصر •

وقد ظلت فكرة الترابط فى أجزاء الاقتصاد أو تحليل التوازن الشامل مسألة نظرية هامة بين المفكرين ، ولكنها لم تلق العناية الكافية من حيث أثرها على فهم التطور الواقعى وعلى السياسة الاقتصادية حتى أخرج الاقتصادى الامريكى ـ الروسى الأصل ليونتيف دراسته عن جداول المنتج ـ المستخدم للولايات المتحدة الامريكية(١) • وتعتمد دراسة المنتج ـ المستخدم input-output على الترابط بين أجزاء الاقتصاد كما تظهر فى الترابط الفنى للانتاج • فالانتاج فى كل صناعة يعتمد على استخدام مواد أولية ونصف مصنوعة منتجة فى صناعات أخرى ، وهكذا تقوم سلسلة من العلاقات المتداخلة بين الصناعات المختلفة قبل ظهور الناتج النهائى فى سوق الاستهلاك والاستثمار والصادرات • وهذا الترابط أو التداخل بين الصناعات المختلفة هو الذى يجعل كل صناعة حلقة فى سلسلة طويلة من العمليات الانتاجية ومن ثم فانه لا يمكن دراسة توازن صناعة واحدة مستقلة عن شروط التوازن فى الاقتصاد الكلى • ومن الواضح أن هذا المظهر من مظاهر الترابط هو تطبيق مباشر لأفكار فالراس فى الترابط من ناحية العرض •

وقد أظهرت دراسات المنتج ـ المستخدم فائدة هامة لمعرفة سلوك الاقتصاد فى الدول المقدمة • فقد كان الغرض من دراسة ليونتيف ابراز أهمية الطلب غير المباشر الناتج عن الترابط الصناعى الى جانب الطلب المباشر الناجم عن السوق النهائية (الاستهلاك ، والاستثمار والصادرات) وظهر أنه فى كثير من الأحوال يكون هذا الطلب غير المباشر من الأهمية بمكان بحيث أن اتخاذ قرارات دون مراعاته بشكل صريح يؤدى الى ظهور اختناقات فى

(١) W. Leontief, The Structure of American Economy, 1919-1939. Oxford University Press, New York, 1951.

الاقتصاد .

ويتم تكوين جداول المنتج ـ المستخدم عن طريق تقسيم الاقتصاد الى قطاعات للصناعات المختلفة (الزراعة ، الصناعات الاستخراجية ، الصناعات الهندسية ، الصناعات الكهربائية ، النسيج ..) وتختلف درجة التقسيم باختلاف الحاجة الى التفصيل . وتوضح الجداول بحيث تكون ذات مداخل مزدوجة Double entry بمعنى أن كل صناعة توضع مرة على الصف ، ومرة على العمود . وتقيد مبيعات كل صناعة فى الصف المقابل لها للصناعات المشتركة والباقى يباع فى السوق النهائية . وبالمثل فان مشتريات كل صناعة تقيد فى العمود المخصص لها ، وهى تشترى من الصناعات الأخرى ، وبالاضافة الى ما تشتريه من سوق عناصر الانتاج . وهكذا نجد أن لدينا جدولا يبين عمليات البيع والشراء داخل الاقتصاد . وفى هذا الجدول نجد أن الجزء الخاص بمبيعات ومشتريات الصناعات مع بعضها هو الذى يهم فى بيان التداخل الصناعى بين القطاعات المختلفة . ونظرا لأن ليونتيف قد استخدم أسلوب المصفوفات الرياضية للتعبير عن هذه العلاقات ، فان هذا الجزء الأساسى يطلق عليه عادة اسم مصفوفة التداخل الصناعى أو مصفوفة الطلب الوسيط . ويمكن أن نعبر عن ذلك بالجدول الآتى .

مصفوفة الطلب الوسيط

المنتج / المستخدم	صناعة (١)	صناعة (٢)	صناعة (٣)	السوق النهائية
صناعة ١	$س_{١١}$	$س_{٢١}$	$س_{٣١}$	$ن_{١}$
صناعة ٢	$س_{١٢}$	$س_{٢٢}$	$س_{٣٢}$	$ن_{٢}$
صناعة ٣	$س_{١٣}$	$س_{٢٣}$	$س_{٣٣}$	$ن_{٣}$
سوق عناصر الانتاج	$ل_{١}$	$ل_{٢}$	$ل_{٣}$	

الجدول الوسيط فقط هو الذى يبين مبيعات ومشتريات الصناعات فيما بينها ولذلك فاننا نضع فى كل خانة الحرف س مع رقمين صغيرين للاشارة الى أن هذه القيمة قد تم بيعها من القطاع صاحب الرقم الأول الى القطاع صاحب الرقم الثانى ، وعلى ذلك مثلا فان س ٣٢ تعنى مبيعات القطاع الثانى الى القطاع الثالث •

أما الجزء الخاص بالسوق النهائية فانه يبين مبيعات كل قطاع الى السوق النهائية • وكذلك فان الجزء الخاص بسوق عناصر الانتاج فانه يبين مشتريات كل قطاع من عناصر الانتاج •

ومن الواضح أنه كلما زاد الترابط الاقتصادى بين قطاعات الاقتصاد زادت المعاملات فى جدول الطلب الوسيط • والملاحظ أنه كلما زاد التقدم الاقتصادى زادت المعاملات فى هذا الجزء • وقد حاول بعض الاقتصاديين أن يستخدم هذا الأسلوب لدراسة اقتصاديات الدول المتخلفة ، وكانت النتيجة أن جداول المنتج ـ المستخدم لهذه الدول كانت تتضمن كثيرا من الخانات الخالية فى ذلك الجزء الأساسى من جدول المنتج ـ المستخدم وهو جدول الطلب الوسيط(١) • ومعنى ذلك أن الترابط الاقتصادى بين الصناعات المختلفة لا زال ضعيفا فى مثل هذه الدول• **وعلى ذلك فانه مع زيادة التقدم والنمو الاقتصادى فان الترابط بين القطاعات المختلفة يزداد تأكيدا •**

وتظهر أهمية هذا الترابط المتزايد بين قطاعات الاقتصاد فى الدول المتقدمة فى ضرورة التنسيق والرقابة على نشاط مختلف القطاعات فلا يمكن تركها دون رقابة ، لما يترتب على سلوكها من آثار بعيدة على مختلف أجزاء الاقتصاد الأخرى • ولعل هذا هو السبب الأساسى فى الأزمة التى وقعت فى الولايات المتحدة الامريكية سنة ١٩٦٢ بين الرئيس كنيدى وبين صناعات

---

(١) Peacock, Dosser, Input-Output in Underdeveloped Countries, Review of Economic Studies, Vol. 25, 1957, p. 21.

الصلب بصدد سياسة الأخيرة حول الأثمان . فبالنظر الى الترابط الاقتصادى الهام والى الآثار غير المباشرة ، فان رفع أسعار الصلب لن يقتصر على هذه الصناعة وحدها وانما سوف يؤثر على جميع قطاعات الاقتصاد خلال التأثير فى الطلب غير المباشر بين الصناعات المختلفة . ويظهر ذلك بوجه خاص اذا أخذنا **فى الاعتبار المظهر الثانى للترابط الاقتصادى بين الصناعات وهو عدم التماثل Assymetry وظهور صناعات مسيطرة بحسب وضعها الفنى فى سوق الانتاج .**

الواقع أنه رغم أن التطور قد أدى الى مزيد من الترابط والاندماج بين الصناعات المختلفة بحيث أصبحت كل صناعة تعتمد فى انتاجها على عدد متزايد من انتاج الصناعات الأخرى - بالرغم من ذلك فان التطور بين الصناعات لم يكن متماثلا . بل ان هناك صناعات تتخذ مركزا أساسيا فى هيكل الانتاج بحيث تكاد تعتمد عليها الصناعات الأخرى بشكل أكثر من غيرها . وهذه الصناعات تحتل فى الواقع مكانة هامة لأنها تتمتع الى حد كبير بسلطة التأثير فى الصناعات الأخرى بالنظر الى هذا التطور الفنى . ولعل مثال صناعة الصلب المتقدم يعبر عن هذا الوضع .

وعلى ذلك فان الترابط الاقتصادى الناتج من التداخل الصناعى ليس ترابطا متماثلا بين متساويين ، وانما هو ترابط يتضمن وجود علاقات سيطرة من بعض القطاعات على القطاعات الأخرى(١) (ويظهر ذلك رياضيا فى أن مصفوفة الطلب الوسيط وان كانت ليست خالية الا أنه يمكن جعلها مصفوفة منحرفة traingularized بمعنى جعلها Similar لمصفوفة توجد معظم القيم فوقه المنحرف الرئيسى Diagonal وتكون خالية تحته أى بحيث توجد أصفار تحت هذا المنحرف) .

ويترتب على هذا التطور أن الترابط الاقتصادى وان أدى الى مزيد من

---

(١) Cf. F. Perrous, l'Economie du XXème Siècle, P.U.F., Paris, 1961, p. 27.

الاندماج بين قرارات الوحدة الاقتصادية ، الا أنه أظهر فى نفس الوقت وجود وحـــدات استراتيجية تؤثر قراراتها بشكل أخطر فى الاقتصـــاد القومى فى مجموعه • ولذلك فان القرارات التى تتخذها هـــذه الوحـــدات لا تتعلق فى الواقع بها وحدها وانما تتعلق بالاقتصاد القومى • فقرارات شركة مثل شركة جنرال موتورز لا تتعلق بسياسة أســـعار منتجـاتها فقط وانما تؤثر فى حجم الانتاج القومى فى مجموعه وفى توزيع الدخول وفى مستوى الأسعار العامة• وقد أثر ذلك الوضع على هيكل الاقتصاد ، فلم تعد فى ظل الصورة التقليدية للسوق وان ظلت الملكية فردية وانما الأمر تعلق فى الواقع باتخاذ قرارات على مستوى الاقتصاد القومى •

أهمية طبقة الفنيين :

رأينا أن أهم ما يميز « المجتمع الصناعى الحديث » هو التقدم الفنى الكبير فى وسائل الانتاج • فالتقدم الاقتصادى الذى تحققه الدول الصناعية الكبرى لا يرجع الى تراكم رؤوس الأموال بقدر ما يرجع الى التقدم الفنى ووضـع وسائل جديدة للانتاج ذات كفاءة أكبر واكتشاف مصادر جديدة للطاقة •

وقد جرت العادة بين الاقتصاديين على اعتبـــار أن النمو Growth دالة لتراكم رأس المال (الاستثمار) • ونجد هذه العادة لـــدى الاقتصاديين منذ التقليديين : آدم سميث ريكاردو ، كما نجدها عنـــد ماركس • وبالمثل فان الاقتصاديين المحدثين (ما بعد كينز (Post Keynesians) قد وضعوا نماذج للنمو الاقتصادى تجعل هذا النمو دالة بشـــكل ما للاستثمار ومن أشهر هذه النماذج ما يعرف بنموذج هارود دومـار ــ Harrod-Domar (١) نسبة الى الاقتصاديين المشهورين • وفى هذا النموذج نجد أن معـدل النمو الاقتصادى

---

(١) Cf. E.D. Domar, Capital Expansion, Rate of Growth and Employment Econometrica, (April 1946) ; R. Harrod, Towards a Dynamic Economics, Macmillan, 1948.

يتوقف على نسبة الاستثمار من الدخل القومى ـ ويرتبطان بما يعرف بمعامل رأس المال أو نسبة الناتج الى رأس المال أو نسبة الناتج الى رأس المال المعروف باسم Capital/output ratio • وقد أثر هـذا النموذج فى الفكر الاقتصادى عامة ، حتى أن الدول النامية وهى بصدد وضع برامج التنمية الاقتصادية قد استعارت هذا الأسلوب لتحديد حاجتها من رأس المال اللازم لتحقيق درجة معينة من معدل التنمية •

ورغم الأهمية الضخمة التى يمثلها تراكم رأس المال فى أحداث النمو ، فان هناك عاملا ربما يكون له السبق فى الوقت الحاضر فى هذا الصدد • هذا العامل هو **التقدم الفنى** • فأثر التقدم الفنى على النمو قد أصبح من الأهمية بحيث لا يمكن اهداره • ولذلك فاننا نجد أن كثيرا من الاقتصاديين المحدثين يوجهون عناية خاصة الى أهمية التقدم الفنى فى احداث النمو • فان ما يهم ليس رأس المال المادى فقط وانما رأس المال الانسانى المتمثل فى العمل الأكثر مهارة ، وبصفة خاصة فى الاختراعات والوسائل الجديدة المستخدمة فى الانتاج(١) •

وهذه الأهمية الكبرى للتقدم الفنى وللرأسمال الانسانى فى احداث النمو كان لها أكبر الأثر على العلاقات الاجتماعية مما أدى الى ظهور أهمية الفنيين والمديرين كطبقة اجتماعية بدأت تحتل مكانة هامة فى الاقتصاد القومى، والى زيادة أهمية الجامعات ومراكز الأبحاث وما تباشره من تأثير فى هذا الاقتصاد •

---

(١) يرى بعض الاقتصاديين انه لا يمكن فصل تراكم رأس المال المادى عن التقدم الفنى ، فالاستثمارات لا تتضمن فقط الاضافة الى الآلات القائمة بآلات جديدة من نفس النوع ، وانما تتضمن الاستثمارات الجديد عادة آلات مختلفة أكثر كفاءة وتتضمن آخر ما وصل اليه التقدم التكنولوجى • ولذلك فانه لا يمكن فصل رأس المال عن التقدم الفنى ، فتراكم رأس المال ينطوى فى الواقع على تطبيق فن انتاجى أكثر تقدما • أنظر فى ذلك على وجه الخصوص
N. Kaldar, A Model of Economic Growth, Economic Journal, December, 1957.

ان التقدم الفنى كعنصر من عناصر النمو الاقتصادى يتميز فى الوقت الحاضر عن الاختراعات التى تمت فى الماضى والتى كان من شأنها زيادة الانتاج وتحسين نوعه . فالتقدم الفنى فى الوقت الحاضر لم يعد نتيجة عمل فرد عبقرى أو نتيجة للصدفة بحيث أن التقدم فى نوع معين يتم بقفزات غير منتظمة انما أصبح التقدم الفنى جزءا منظما من أجزاء العملية الانتاجية ، ومرحلة مندمجة تماما فى مراحل الانتاج . وقد أصبحت الاكتشافات نتيجة لعمل منظم ودقيق بحيث يمكن تخطيطه مقدما . فعنصر الفرد العبقرى قد اختفى أو كاد ـ ولا نكاد نسمع الآن ـ عن اسم عالم تنسب اليه نتائج التقدم الفنى المذهلة التى نراها كل يوم . فأسماء واط وماركونى وبل أسماء نعرف أنها كانت وراء الآلة البخارية واللاسلكى والتلفون . وهذه الأسماء هى جزء من الثقافة العامة . ولكن من يعرف الأسماء وراء اختراعات كان لها أكبر الأثر فى حياتنا اليومية ، من منا يعرف من وراء التلفزيون ، من وراء الترانزستور رغم أن هذا الاختراع الأخير يعد فى ذاته ثورة صناعية ، من وراء القمر الصناعى ، سبوتنيك ، ومن وراء برامج أبوللو ، وغيرها كثير .

ان البحث وما يترتب عليه من اختراعات هى من عمل عدد هائل من الباحثين المجهولين . ان الاختراع قد أصبح بطبيعته عمل « مجموعة » Team من الباحثين من تخصصات مختلفة . وهو عمل منظم بحيث أنه يمكن مقدما معرفة النتائج التى يمكن الوصول اليها فى فترةمعينة اذا خصص لها الاعتمادات اللازمة . ولعل أبرز الأمثلة على ذلك ما حدث فى الولايات المتحدة الامريكية عام ١٩٦٢ حين كانت متخلفة فى أبحاث الفضاء عن الاتحاد السوفياتى فأعلن رئيسها فى ذلك الوقت (كنيدى) عن برنامج للحاق بالاتحاد السوفياتى فى ميدان الفضاء والهبوط على القمر فى سنة ١٩٧٠ . ولم يكن غريبا على العالمين بطبيعة البحث فى العصر الحديث أن يعلموا بنبأ وصول « أبوللو » الى القمر ١٩٦٩ ، أى فى نفس الموعد المحدد (فى الواقع قبله !) .

واذا كان التقدم الفنى فى العصر الحديث قد أصبح جزءا عضويا فى الانتاج ولم يعد عملا عفويا نتيجة للصدفة والحظ ، فان وراءه جيش كبير من

الفنيين والباحثين الذين يقومون بالوصول الى حلـــول جديدة للمشـــاكل ، ويقومون باجراء التجارب .. الخ . هذا الجيش من الفنيين قد أصـــبح عنصرا أساسيا فى الانتاج لا يمكن لدولة حديثة أن تستغنى عنـــه مما أدى الى زيادة أهميتهم . وهذه الأبحاث والتجارب تتميز بأمرين ، **فهى من ناحية قد أصبحت معقدة جدا وتتطلب تخصصات دقيقة تعمل فى تعاون ، وهى من ناحية أخرى باهظة التكاليف** ، ولذلك فان الأبحاث على ماسبق أن رأينا تعتبر من النشاطات التى تظهر فيها بشكل واضح مزايا الانتاج الكبـــير ، ولذلك فانها تتركز فى مراكز البحوث فى المشروعات الضخمـــة وفى مراكز البحـــوث العلميـــة والجامعات .

كانت الاختراعات فى العصر السابق بسيطة نسبيا ، ولم تكن تستند فى كثير من الأحوال الى معرفة نظرية متعمقة ، ولذلك كانت تتم غالبا فى المصنع ومن العاملين أنفسهم نتيجة للتجربة والخبرة . وقد ســـاعد على ذلك تقسيم العمل الى حد بعيد . أما فى العصر الحـــديث فان الاختراعات والاكتشافات الجديدة تتميز بأن لها أساسات نظرية وتعتمد على الدراسة النظرية المتعمقة ، فميدانها المختبر والمعمل وحجرات الدراسة وليس الورشـــة . والاكتشافات الجديدة معقدة جدا ولا يمكن لغير المتخصص أن يدركها .

كذلك فان أهم ما يميز التقدم الفنى وما يستلـزمه من بحث أنه باهظ النفقات . فالأبحاث الواجب اجراؤها والآلات والمعـــدات اللازمة للمختبرات طويلة ومعقدة وغالية . وتمر عادة مراحل طويلـــة من التجارب قبل وضع الوسيلة الجديدة موضع التنفيذ . ولعل أهم ما يجعل الأبحاث باهظة التكاليف هو أنها كصناعة تعتبر ذات كثافة عمـــل مرتفعة Labour Intensive بمعنى أنها تعتمد على العمل بشكل كبير ، ولكنه عمل من نوع خـــاص ، هو العمل الفنى المتخصص ذو المعرفة المتعمقة ، ولذلك فان أجوره تكون عـــادة مرتفعة جدا وهذا ما يجعل نفقات البحث عالية . ولعـــل هـــذا السبب هو ما يجعل الولايات المتحدة الامريكية على قمة التقدم الفنى . فنظرا لغنى هذه الدولة فهى

قادرة على اجتذاب العلماء والفنيين من كافة دول العالم ودفع الأجور الباهظة لهم •

والتطور المتقدم جعل الصناعة فى العصر الحديث معتمدة الى أبعد الحدود على هؤلاء الفنيين بحيث أن نفوذهم ازداد بشكل واضح • ولم يقتصر الأمر على مجرد أهمية هؤلاء الفنيين والباحثين لتطوير وسائل الانتاج وتحسين نوعه ، وانما جاوزت ذلك الى طبيعة العملية الانتاجية ذاتها • فالانتاج يعتمد الآن أكثر فأكثر على رأس المال Capital Intensive . والآلة الحديثة ليست مجرد آلة تقوم بما كان يؤديه عشرات ومئات من العمال ، ولكنها آلة دقيقة ومعقدة وتحتاج دائما الى عمل فني مؤهل لتشغيلها والافادة منها وتعديلها دائما • فلم يقتصر التقدم الفنى على تعديل نسبة العمل : رأس المال ، ولكنه غير أيضا من طبيعة العمل • فالعمل لم يعد عملا يدويا أو ملاحظة رتيبة وانما هو عمل رقابة ذكية لآلات دقيقة ومعقدة • ولعل أجمل مثال على ذلك هو العقول الالكترونية الحديثة التى تقوم بعمليات ما كان يمكن اجراؤها الا بعدد ضخم جدا من الأفراد وفى وقت طويل • ولكن هذه العقول تتطلب للعمل عليها أفرادا ذوى كفاءة عالية فى الهندسة وتحليل البرامج • ولذلك فالتقدم الفنى الحديث قد زاد من نسبة الفنيين والمؤهلين بين العاملين • وبعبارة أخرى فا نالتقدم الفنى قد أدى الى زيادة نسبة ذوى الياقات البيضاء على حساب ذوى الياقات الزرقاء(١) • ولذلك فان الصورة العادية للانتاج فى العصر الحديث لا تتطلب العمل اليدوى غير المؤهل الذى يقوم بالأعمال العضلية أو الأعمال الرتيبة والروتينية بقدر ما يتطلب عمل الفنيين الذين يعتمدون على تكوين علمى متين والذين يقومون بوجه خاص بالأعمال الذهنية التى تتطلب اليقظة وسعة الخيال •

---

(١) J.K. Galbraith, Le Nouvel Etat Industriel, (trad.), Edition Gallimard, Paris 1968, pp. 253 et ss.

وقد ترتب على التطورات المتقدمة **أن ظهرت الجامعات ومراكز البحث ومعاهد الدراسة بوجه عام** ، كمراكز أساسية وخطيرة فى تطور المجتمع الصناعى الحديث • فالصناعة الحديثة بدأت تعتمد بشكل أساسى على العامل المدرب والمتعلم • ومن ثم فان هذه الصناعة الحديثة تجد مصدر عملها حيث توجد بيئةمناسبة لتوفيرهذا العمل المتعلم وليس حيث يوجد العملالرخيص • ولعل ذلك ما يعبر عن الاختلاف بين توطين الصناعات فى العصر السابق وتوطنها حاليا • فصناعات النسيج التى قامت عليها الثورة الصناعية فى انجلترا كانت تتوطن بصفة خاصة بالقرب من اليد العاملة الزراعية الرخيصة نسبيا • أما الآن فاننا نجد تلازما بين تركز الصناعات وبين مراكز العلم والبحث ، فحيث توجد مراكز علمية متقدمة فان الصناعة تجد فيها ظروفا مناسبة • كذلك فان الصناعات التى نشأت فى أماكن لم تكن معروفة بالاهتمام العلمى والثقافى لأسباب تاريخية ـ فان هذه الصناعات لم تلبث أن تقوم بتمويل انشاء الجامعات ومراكز البحوث • وقد حدث ذلك أخيرا فى انجلترا حيث أنشىء العديد من الجامعات الاقليمية التى تعتمد كثيرا على تمويل الصناعات المختلفة لها • وتعتمد الصناعة بوجه خاص على الجامعات ومراكز البحوث ، فهذه تعتبر فى الواقع عصب التقدم الفنى الحديث • وقد أشار جالبرث الى أن الجامعات ومراكز البحوث فى العصر الحديث تقوم بالنسبة للصناعة بنفس الدور الذى كانت تقوم به البنوك فى القرن الماضى • فالصناعة فى القرن الماضى كانت تحتاج الى التمويل ومن ثم فان البنوك لم تلبث أن احتلت مكانة خطيرة من الاقتصاد اعتبارها مراكز لتجميع وسائل التمويل ، مما جعل الكثيرين من الاقتصاديين يميز فى مراحل الرأسمالية بين الرأسمالية التجارية والرأسمالية الصناعية والرأسمالية المالية • وهذه المرحلة الأخيرة انما تعبر عن المرحلة التى زادت فيها أهمية التمويل بالنسبة للتوسع الصناعى ، مما جعل البنوك المتصرف الحقيقى فى النظام الرأسمالى • والواقع أننا فى العصر الحالى نكاد نلمح تطورا فى طبيعة الانتاج بحيث أصبح التقدم الفنى والرأسمال الانسانى هو العامل

الحاسم فى التوسع وليس فقط التمويل المادى([1]) وفى مثل هذه الظروف فان الجامعات ومراكز البحوث تكاد تقوم بدور التمويل لهذا النـــوع من التقدم الفنى • ولذلك فان الارتباط بين الصـــناعة وبين الجامعـة ومراكز البحث قد أصبح حيويا فى الدول المتقدمة •

وقد ترتب على الأوضاع المتقدمة تغييرات هـــامة فى ادارة المشروعات ، وفى طبيعة الطبقات الاجتماعية ذات التأثير عـلى القرارات الاقتصـــادية الهامة والدوافع التى تؤثر فى هذه القرارات • وقد أثر ذلك على الفكرة السائدة عن كيفية اصدار القرارات •

هناك تقليد متبع يربط بين شكل الملكيــة وبين مصدر القرار ، وقـــد استقر هـــذا التقليد بوجـه خـــاص مـع الماركسـية • فعندها أن تطــور وسائل الانتـــاج يؤدى الى تطور مقـــابل فى النظم الاقتصـــادية وبشكل خاص فى طبيعـــة ملكية عناصر الانتـــاج • وبذلك فان الرأسمـــالية تعتبر مرحلة من مراحل التطور تكون الملكية الخاصة لعناصر الانتاج هى السائدة ، وبذلك تصدر القرارات من الرأسمالى المـــالك • وتكون الاشتراكيــة ـ ثم الشيوعية ـ مرحلة أخرى تتحول فيها الملكية الى الدولة ، وبذلك لا تصـــدر القرارات عن الرأسماليين وانما عن الدولة التى تعبر عن صالح الجميع • ومع ذلك فاننا نعتقد أن تطور شكل الملكيـــة ليس هو الأثر الوحيد وربمـا ليس الأكثر أهمية لتطور وسائل الانتاج • فان تطور وسائل الانتاج وما أدى اليـه من ظهور « المجتمع الصناعى الحديث » قد أحدث ثورة فى العلاقات الاجتماعية، وأدى الى تغيير خطير فى طبيعة مصدرى القرارات ، وذلك بصرف النظر عن الشكل القانونى للملكية • **فقد أدى التطور المتقدم الى الأهمية المتزايدة لطبقة المديرين والفنيين** فى اتخاذ القرارات الاقتصادية الهامة ، ونكاد نلمح تشابها فى هذا الصدد بين الدول الرأسمالية التى تحتفظ بالملكية الخاصة وبين الدول

---

(١) هناك ارتباط بطبيعة الأحوال بين الأمرين ، ولكننا نريد أن نركز على أهمية عنصر الخبرة والعلم الانسانى •

الاشتراكية التى أقامت الملكية العامة . هنا وهناك يزداد دور الفنيين والمديرين فى اتخاذ القرارات وفى التأثير فى الظروف المصاحبة لاتخاذ هذه القرارات . ولا يعنى ذلك أن التفرقة بين النظم التى تأخذ بالملكية الخاصة وبين النظم التى تأخذ بالملكية العامة قد زالت فيما يتعلق بالدول الصناعية المتقدمة . فذلك ليس صحيحا . ففى الدول الرأسمالية يحتل الرأسماليون مكانة هـــامة من الحياة الاقتصــادية والسياسية وفى الدول الاشتراكيـــة يحتل رجال الحزب مكانة هامة من الحياة الاقتصادية والسياسية . ويختلف أولئك عن هؤلاء فى كثير أو قليل من ناحية البواعث والقيم الاجتماعية التى يمثلونهـا ، مما يجعل النظـام الرأسمالى مختلفا عن النظام الاشتراكى . ولكن ذلك لا يمنع من أنه فى كلا النظامين هناك اتجاه قوى تحت ضغط التطـــورات التى لحقت بالصناعة الحديثة نتيجة للتقدم الفنى الى أن **طائفة المديرين والفنيين بدأت تسيطر تدريجيا على معظم القرارات الهامة وتؤثر فى صدورها .**

وكان من أوائل من وجه النظر الى هذا التطـــور الامريكى برنهام فى كتابه عن « ثورة المديرين » The Manegerial Revolution . وقد كان برنهام ماركسيا من الجناح اليســـارى المتطرف الذى ينـادى بضرورة الثورة الدائمة فى العالم أجمع ، وينتمى بذلك الى الجناح التروتسكى من الحركـــة الشيوعية فى الفترة ما بين الحربين . وقد واجه برنهام ــ شأنه فى ذلك شأن الكثيرين من المثقفين اليساريين فى الغرب ــ أزمة ضمير شـــديدة فى الفترة السابقة على الحرب العالمية الثانية عندما عقدت ألمانيا النازية معاهدة عدم اعتداء مع الاتحاد السوفياتى . فألمانيا النازية فى ذلك الوقت كانت تمثل أسوأ صور الفاشية اليمينية التى تهدد الحركات الثورية اليسارية . كـذلك فـان الاتحاد السوفياتى رغم أن الجناح التروتسكى كان ينظر اليه بكثـــير من التحفظات خاصة فيما يتعلق بدكتاتورية الفرد والتخلى عن الثورة العالمية ــ قد ظل رغم ذلك فى نظر جميع المثقفين اليساريين كسبا ضخما للحركات الثورية مرشدا لها . ولذلك فان معاهدة ١٩٣٨ كانت بمثابة صدمة لهؤلاء ، لأنها كشفت عن عقل الدولة Raison d'Etat الذى يدير مصالح دولة الاتحـاد السوفياتى

قبل الاعتبارات المذهبية والخلقية • وفى ظل هذا الجو النفسى أخرج برنهام كتابه فى « ثورة المديرين » لتفسير ما تم وفقا للنهج الماركسى • ولذلك فانه يرى أيضا أن « الصراع بين الطبقات » هو الذى يحكم التاريخ ولكنه يرى أن نتيجة صراع العمال مع الرأسماليين لا تنتهى فى صالح الطبقة العاملة وانما فى صالح فئة جديدة تفيد من هذا الصراع وهذه هى فئة المديرين ، وبصفة عامة جميع الفنيين • وليس فى هذا ، فى نظر برنهام ، ما يزعج ، ففى النظرية الماركسية ما يؤكد ذلك • ففى ظل النظام الاقطاعى كان الصراع الطبقى متمثلا بين طبقة الاقطاعيين وطبقة مهضومة هى فلاحو الأرض • وهذا الصراع يحل لصالح طبقة جديدة هى « البورجوازية » • وبناء على ذلك فقد وجد برنهام مخرجا ، فى نظره ، للتناقض الشديد بين « تحالف » دولة « يسارية » مثل الاتحاد السوفياتى مع دولة « فاشية » مثل ألمانيا النازية ، فعنده أنه فى كل من الدولتين سيطرت طبقة المديرين والفنيين على الحكم ومن ثم فانه من السهل أن يتقاربا • وقد تعرضت أفكار برنهام لانتقادات كثيرة وخاصة أن كتابه قد ظهر فى أثناء الحرب العالمية الثانية وفى فترة كانت فيها ألمانيا النازية تحقق انتصارات عسكرية فى أغلب الميادين ، مما طبع الكتاب بالتشاؤم الشديد وبكثير من التنبؤات التى ثبت عدم صحتها فيما بعد •

وبالرغم من الانتقادات التى وجهت الى أفكار برنهام والأفكار التى ثبت عدم صحتها ، فان شيئا منها ظل محلا للاهتمام ، وهو بيان دور الفنيين فى الحياة الاقتصادية وتأثيرهم المتزايد فى المجتمعات الحديثة • ومنذ ذلك وقد تعددت الدراسات التى تشير الى خطورة تطور المجتمعات الصناعية ودور الفنيين المتزايد فيها ، ومن أهم من تحدث فى ذلك R. Aron فى فرنسا ، K. Galbraith فى الولايات المتحدة الامريكية ، وغيرهم كثير • وقد سبق أن أشرنا الى الأهمية المتزايدة التى يحتلها التقدم الفنى والعلمى فى الانتاج فى العصر الحديث ، وقد ترتب على ذلك تغيير جوهرى فى شخصية مصدر القرارات الاقتصادية • فالادارة الاقتصادية لم تعد عملا سهلا يستطيع المالك ، أى مالك رأس المال ، أن يقوم بها ، وانما أصبحت الادارة عملا معقدا

يقتضى فهما فنيا متخصصا فى مجالات متشابكة ، وتقتضى اتخاذ قرارات من بين عديد من الاختيارات التى تتضمن عديدا من المتغيرات مما لا يسهل القيام به • ولذلك فانه بصرف النظر عن الملكية القانونية لأدوات الانتاج وهل لا تزال فى أيدى رأسمالية ، أم أنها نقلت بالتأميم الى الدولة ، فان اصدار القرار الحقيقى قد انتقل الى أيدى الفنيين والمديرين المؤهلين للقيام بهذه الأعمال • وحتى فى الأحوال التى تظل فيها الادارة القانونية فى يد المالك ، فان السلطة الحقيقية قد انتقلت الى الفنيين الذين يحضرون البيانات والاختيارات الممكنة أمام مصدر القرار وبحيث لا يكون أمامه سوى التوقيع أو التصديق على قرارات معده سلفا • فالادارة الاقتصادية فى المجتمع الحديث تتعلق بوحدات انتاجية كبيرة كما سبق أن أشرنا • وهذه الوحدات مترابطة فى الاقتصاد القومى بحيث أن ما تتخذه من قرارات يؤثر فيما عداها من وحدات فضلا عن أن الاختيارات المتاحة لها فعلا محدودة بالقرارات التى تتخذها الوحدات الأخرى • وفى مثل هذه الظروف فان اتخاذ القرار ليس سوى الخطوة الأخيرة وربما الأقل أهمية فى الحياة الاقتصادية • وقبل ذلك وأهم منه نوع البيانات التى يجمعها الفنيون لدراسة الامكانيات الفنية المتاحة للمشروعات والاختيارات الممكنة من بين الأساليب الفنية المختلفة ، كذلك الدراسات الاقتصادية المتعلقة بالسوق والاحتمالات المتعلقة به ، والآثار المترتبة على اتخاذ القرار على مستقبل أى قرار اقتصادى منها • وهى بيانات يقوم على اعدادها بطبيعة الأحوال الفنيون • ولا يستطيع مصدر القرار أيا كان استقلاله أن يتجاهل هذه البيانات ويصدر قراره بناء على اعتقاده الشخصى • ولذلك فان مصدر القرار لا يكون له فى كثير من الأحوال سوى اتخاذ القرار المناسب وفقا لما أعده الفنيون من بيانات •

وهكذا نرى أن الفنيين والمديرين قد زادوا من قبضتهم على الحياة الاقتصادية • وسواء أقاموا باتخاذ القرارات الاقتصادية بأنفسهم أم كان يقوم بها ظاهريا غيرهم ، ما داموا فى جميع الأحوال مسيطرين على جميع العناصر اللازمة لاتخاذ القرارات • كذلك تقوم بين الفنيين والمديرين العاملين بالصناعة وبين الفنيين والباحثين والعلماء فى الجامعات ومراكز البحوث رابطة

انتماء قوية . فهؤلاء الفنيون يدينون بمراكزهم الى المعرفة وليس الى الثروة ، وعلاقات الأخذ والرد مستمرة بين مراكز الأبحاث والصناعة والانتقال بين العاملين من الميادين مستمر . فالأستاذ في الجامعة يقوم بالأبحاث لصالح الصناعة وقد يعمل مستشارا لصناعة معينة . والفنيون في الصناعة يحتاجون دائما الى متابعة آخر التطورات العلمية كما أنه ليس من النادر أن ينتقل أحدهم من ناحية الى أخرى . وهكذا نجد أن طبقة الفنيين بدأت تكون انتماء مستقلا وبحيث تكاد تمثل طبقة اجتماعية متميزة في سلوكها وفي دوافعها . وهذه الطبقة تستند في قوتها ونفوذها على المعرفة أولا وليس على الثروة كما هو الحال بالنسبة لطبقة الرأسماليين في الفترات السابقة ، وليس على السلطة والقهر كما هو الحال في بعض المجتمعات الشمولية المتخلفة من ناحية التطور الفني والتكنولوجي . وما نشاهده من سيطرة هذه الطبقة لا يقتصر على الدول الرأسمالية المتقدمة بل اننا نجد نفس الظاهرة في الدول الاشتراكية المتقدمة فنيا أيضا . وهذه الطبقة تجد عداء شديدا من جانب رجال الحزب الذين يريدون ادارة المشروعات الاقتصادية وفقا للآراء الايديولوجية المستقرة ، وبصرف النظر عن التطورات الفنية ، ولذلك فان نزعات التطور في الدول الاشتراكية قد جاءت من جانب الفنيين في المشروعات وفي الجامعات ، في حين أن المعارضة قد خرجت بصفة خاصة من بين رجال الحزب . وهؤلاء الأخيرون يمثلون في الواقع دور الرأسمالي في المجتمع الاشتراكي . فرجال الحزب يعتقدون أنهم بوصفهم طليعة الحزب الثوري ممثلون للقوى العاملة ، وبناء على ذلك يكون لهم سلطة اصدار القرارات . ومن الواضح أن هذه السلطة لا تستند الى المعرفة الفنية بقدر ما تستند الى السلطة السياسية ولذلك ما لبث أن ظهر التناقض بين طبيعة المجتمع الحديث وما يقتضيه من معرفة فنية متزايدة في القرارات وبين النظام السياسي الذي يجعل السلطة في يد رجال الحزب . وهنا أيضا دور الفنيين يتزايد رغم معارضة دوائر الحزب . وقد ظهر ذلك في أزمة تشيكوسلوفاكيا في صيف ١٩٦٨ حيث كانت المطالب الاقتصادية وتحرير المشروعات من أهم دوافع هذه الحركة . كذلك نستطيع أن نمثل ذلك بالجدل

الذى ثار حول مشكلة الأثمان فى الاتحـــاد السوفيتى(١) • فوفقا للتحليـل الماركسى تتوقف قيمة السلعـــة على كمية العمل الاجتمـــاعى الـلازم لانتاج السلعة ، واذا كانت الدول الرأسمالية تضيف الى قيمة السلعة مقابل « فائض القيمة » فقد كان من الواجب الغاء هذا الجزء بعد الغاء الملكيـة الخاصة لأموال الانتاج ، وهو ما لم يحدث حيث أن اعتبارات حسن استخـدام رأس المال ـ وهو عنصر نادر ـ تقتضى تحمل جزءا من النفقة بناء على استخدامه • وهـذا هو ما سار عليه المخططون بالرغم من أن التعاليم النظرية تقضى بأن رأس المال ليس عنصرا منتجا من عناصر الانتاج • كذلك فان ما ساعد على عدم العنـــاية بما كتبه كانتوروفيتش فى الفترة الســـابقة على الحرب ، (والذى يعتبر فى الواقع أول من وضع مشكلة البرامج الخطية Linear Programming) ـ ساعد على ذلك أن عرضه لمشكلة الأثمان تفيد أنه يدخل فى تكوين الأثمان كافة عناصر الانتاج بما فيها رأس المال ، فضلا عن أنه يشـــير الى أن الثمن يتحدد وفقا للنفقة الحدية وهى اشارة الى نفس الأفكـــار الســـائدة فى الفكر البورجوازى ، ولذلك فان أفكار كانتو روفيتش قد ظلت مجهولة حتى ظهرت أهمية البرامج الخطية وبحوث العلميـات بعـــد الحرب فأعيـــد النظر فيها • والسبب فى اهمالها انما يرجع الى أنها تخالف النظرة الايديولوجية الرسمية للقيمة • وأيا ما كان الأمر فان طبقة الفنيين قد بدأ يتزايد دورهـــا فى هذه الدول الاشتراكية وبدأت أساليب ادارة المشروعات تتقارب مع الأساليب المتبعة فى الدول الرأسمالية • وليس مرد ذلك الى « برجزة » الـــدول الاشتراكية كما يحلو للبعض قوله • وانما مرده الى التقارب فى الأوضـــاع الفنيـــة وما يقتضيه ذلك من ضرورة الأخذ بأساليب فنية متشابهة •

واذا كان الفنيون فى كل مجتمع يتأثرون بالقيم السائدة فيه ، الا أن ذلك لا يمنع من أنهم يتميزون بدوافع وسلوك مختلفين عن الـدوافع التى تحرك الرأسماليين مثلا • فالفنيون فى اتخـــاذهم للقرارات الاقتصـــادية فى ادارة

---

(١) Cf. H. Denis et M. Lavigne, Le Problème des Prix en Union Soviétique, édition Cujas, Paris, 1965.

المشروعات لا يسعون الى تحقيق أقصى الأرباح بأية وسيلة وانما غايتهم ، غالبا ، تقتصر على العمل على استمرار المشروع ونجاحه • والنجاح لا يقدر بالضرورة بالارباح بقدر ما يقدر بالانجازات الفنية والقدرة على الزيادة المستمرة للانتاج • فاذا كانت زيادة الأرباح تقتضى فى أحوال معينة (بعض صور الاحتكارات) تضييق الانتاج فان الرأسمالى لا يتردد فى اتخاذ هذه السياسة ، أما حيث تكون السيطرة للفنيين فان ما يعنيهم فى الدرجة الأولى هو توسع الانتاج ولو على حساب الأرباح قليلا • وفى نهاية الأمر فانهم لايملكون عناصر الانتاج حتى يصيبهم هذا الجشع المتعلق بزيادة الأرباح ، ومن ثم فانهم يكونون فى وضع يسمح لهم باتخاذ قرارات قد لا يترتب عليها أفضل وضع من حيث الأرباح • وليس معنى ذلك أنهم لا يهتمون بالأرباح ، فذلك ليس بصحيح ، اذ أن نجاح المشروع وقدرته على التوسع انما ترتبط بما يحققه من أرباح • ولكن نظرتهم الى الأرباح ليست قاصرة على الأرباح فى ذاتها وبصرف النظر عما يترتب عليها ، وانما اهتمامهم بالدرجة الأولى الى استمرار المشروع وتقدمه الفنى واتساعه باستمرار • ولذلك ليس غريبا أن نجد أن نمو المشروع(١) بل والنمو بصفة عامة هو الهدف الذى يشغل بال المشروعات الاقتصادية ، وبصرف النظر عن النظام السياسى والاجتماعى • ففى الدول الاشتراكية كما ى الدول الرأسمالية يعتبر النمو غاية ينبغى العمل على توفيرها • وهذا ما يجعلنا نتعرض لظاهرة تزايد الانتاج المستمر وبكل الطرق • وهو ما أشار اليه جالبرت بأنه مجتمع الوفرة فى كتابه The Affluent Society والذى أطلق عليه أيضا « مجتمع الاستهلاك »(٢) ، وخاصة بعد ثورات الطلبة فى فرنسا وفى ألمانيا وفى الولايات المتحدة الامريكية •

مجتمع الاستهلاك :

الغاية النهائية من النشاط الانتاجى فى كل مجتمع هى الاستهلاك ، ولا

---

(١) Cf. E.T. Penrose, The Theory of the Growth of the Firm, Oxford, Blackwell, New York ; Wiley 1960.

(٢) أنظر لنا ، مجتمع الاستهلاك ، سابق الاشارة اليه •

يختلف المجتمع الحديث فى ذلك عن أى مجتمع سابق الا فى **الأهمية الزائدة التى بدأت تحتلها ضرورة العمل على زيادة الاستهلاك ، والقدرة الهائلة التى توفرت لهـــذا المجتمع للعمل على تحقيق هـــذه الزيادة باستمرار وبمعدلات متزايدة دائما** . وقد سبق أن أشرنا الى أن التقدم الفنى الهائل المتـــاح الآن لاستخدامه فى أساليب الانتاج قد وفر القدرة المستمرة على زيادة الانتـــاج والانتاجية مما زاد من فرص الاستهلاك . كذلك سبق أن أشرنا الى أن سيطرة الفنيين على قرارات الانتاج قد ساعدت على النظر الى النمو أى زيادة الانتاج فى ذاتها وما يرتبط بها من ضرورة زيادة التصريف باعتبـــارها من الأهداف الرئيسية التى يتوخاها مصـــدرو هـــذه القرارات . وقد نجم عن ذلك أن الاستهلاك فى المجتمع الحديث قد زاد بشكل لم يكن معروفا فيما سبق ، كما نجمت عن مجموعة من القيم والقواعد التى تنظم حياة المجتمع فى ضوء زيادة الاســتهلاك ، **اذ اعتبرت زيادة الاستهلاك ذاتها قيمة اجتماعية كبرى ومحورا لكثير من أجزاء النشاط الاقتصادى** . فزيادة الاستهلاك فى ذاتهـــا وبصرف النظر عن الحاجات التى يشبعها هذا الاستهلاك المتزايد قد أصبحت من قواعد الانتاج فى العصر الحديث . فالاستهلاك لا يتزايد لاشـــباع حاجات قائمة ، بقدر ما تخلق حاجات جديدة للتمكين من زيادة الاستهـــلاك وقد كان لهذه الظاهرة آثار بعيدة على الاقتصاد كما أنها نتائج خطيرة على السلوك الاجتماعى بدأت تظهر فى الفترة الأخيرة .

الواقع أن مظاهر مجتمع الاستهلاك لا زالت حديثة . كما أنها لا زالت بعيدة عن أن تكون عـــامة ســـواء من حيث الـــدول أو حتى بالنسبة للدولة الواحدة . فبالنسبة للدول الصـــناعية لا يمكن الحديث باطمئنان عن وجود مجتمع الاستهلاك بالصورة التى تتحدث عنها الا فى شكل اتجاه عام ، ولا تكاد توجد دولة تتركز فيهـــا خصائص هـــذا المجتمع الا فى الولايات المتحـدة الامريكية . وحتى بالنسبة للولايات المتحدة الامريكية فهـــذا المجتمع لا زال بعيدا عن أ نيكون شاملا . ذلك أن التقدم المتحقق فى العـــالم حتى الآن قد أخذ صورة النمو غير المتوازن Unbalanced Growth بمعنى أن هناك دائما قطاعات أسبق من غيرها فى استيعاب التقدم وفى تحقيق النمو ، كما أن هناك

مناطق جغرافية أقدر على تحقيق التقدم من غيرها • وهـذا النمو غير المتوازن نجده على مستوى العالم فى مجموعه ـ مما أدى الى وجود الـدول النامية والمتخلفة ـ كما نجده على مستوى الدولة الواحـدة ـ مما أدى الى وجود الأماكن والقطاعات المتخلفة • وعلى ذلك فعند حديثنا عن خصـائص مجتمع الاستهلاك لا ينبغى أن يفهم من ذلك أن هذا المجتمع قد تحقق بالفعل وانما هو مجرد اتجاه عام بدأت تظهر خطوطه الرئيسية ، ولكن جزر الفقر موجودة دائما وهى تثير الكثير من المشاكل على ما سنرى •

واذا كانت خصائص مجتمع الاستهلاك لا زالت حديثة فان بوادرها قد ظهرت على النظرية الاقتصادية منذ فترة ، وهذا هو فى الواقع مغزى التطور الذى لحقها منذ التقليديون وكينز • وبدون التعرض الى جوانب كيفية توزيع الدخل التى تثير فى الواقع خلافات مذهبية ، فان جوهر النظرية التقليدية فى الاقتصاد والتى ورثناها منذ آدم سميث وريكادو ، هو أن الطلب الكـلى فى الواقع يستوعب دائما العرض الكلى • فكل ما ينتج من السلع نجد له طلبا فى السوق ، واذا كان من الممكن حدوث بعض الاختلالات الجزئية فى الاقتصاد كأن يكون عرض سلعة معينة أكبر أو أقل من الطلب عليها فان ذلك لا يمكن الا أن يكون حالة استثنائية جزئية لابد أن تعادلها اختلالات جزئية أخرى • والمهم فى كل ذلك هو أن مجموع الطلب الكلى فى الاقتصاد لا يمكن أن يقل عن مجموع العرض أو الانتاج الكلى • ولذلك فان الاقتصاد بطبيعته يتوازن عند مستوى التشغيل الشامل • وتفسير ذلك أن الاقتصاد بعيد عن اشباع جميع الحاجات ، ولذلك فان الحاجة موجودة باستمرار لزيادة الانتاج•وفرص الربح من الاستثمارات الجديدة مكفولة بالنظر الى أن هناك دائما قـدرة على زيادة الانتاج وزيادة الاستهلاك • فرص الاستثمارات تكون عـادة كبيرة ، ولكن نظرا لأن الاقتصاد فقير فانه لا يمكن القيام بكل هذه الاستثمارات • ويتم القيام فقط بالاستثمارات فى الحدود التى يمكن فيها ضغط الاستهلاك • وعلى ذلك فكل جزء يمكن ادخاره من النـاتج القومى سيطلب بالضرورة للاستثمار لأن فرص الاستثمار كبيرة لوجود فرص الربح من الانتاج فى المستقبل واشبـاع

الحاجات الناقصة • وعلى ذلك فان التقليديين وجهوا أنظارهم الى الادخار ، فهذا هو القرار الهام ، وهو الذى سيحدد مقدار الاستثمار • فكل ما يدخر سيستثمر حتما لأن الطلب على الاستثمار كبير جدا • ولذلك لم تقم صعوبة عند التقليديين لتقرير ضرورة تحقيق التوازن فى الاقتصاد ، العرض الكلى يتساوى دائما مع الطلب الكلى • فالعرض الكلى يتكون من عرض سلع الاستهلاك وعرض الادخار ، والطلب الكلى يتكون من الطلب على الاستهلاك والطلب على الاستثمار • ونظرا لأن الطلب على الاستثمار يكون كبيرا جدا بالنسبة لعرض الادخار فانه لا يمكن أن تقوم حالة يزيد فيها العرض الكلى عن الطلب الكلى •

واذا انتقلنا الى تحليل كينز Keyns (١) نجد أن التجديد الذى أتى به هو أنه أوضح أن الطلب على الاستثمار قد لا يكون من الكبر بحيث يستوعب كل المدخرات • ولذلك فليس من المقبول الاهتمام فقط بالادخار باعتبار أن الاستثمار سيتحقق دائما ، بل لعل العكس هو الصحيح ، فنظرا لنقص فرص الربح فان الطلب على الاستثمار قد يكون محدودا ، ومن ثم وجب أن يتعدل الادخار وفقا لهذا الطلب المحدود • ورأى كينز أن تعديلات الادخار وفقا للطلب على الاستثمار تتم بتغيرات مستوى الدخل القومى والعمالة ، مما قد يجعل وجود بطالة أمرا متفقا مع التوازن الاقتصادى • وهذا هو فى الواقع جوهر الثورة التى أحدثها كينز فى النظرية الاقتصادية فى كتابه الشهير « النظرية العامة » • ومن الواضح أن امكان نقص الاستثمار عن المدخرات انما يرجع الى نقص فرص الربح من الاستثمارات الجديدة • وهذا يشير فى الواقع الى أن زيادة الاستهلاك فى المستقبل لم تعد متوافرة كما كان الأمر قبل ذلك بقرن من الزمان • وهذا تغيير هام وهو مقدمة لبيان أن الاستهلاك قد بدأ يفرض نوعا من المشاكل ، فنحن لسنا فى مرحلة الفقر

(١) Cf. N. Kaldar, A Model of Economic Growth, Economic Journal December 1957, Reprinted in Essays on Economic Stability and Growth, London, 1960, p. 295.

الشديد وحيث كل زيادة فى الانتاج ستصرف حتما ، ولكننا بدنا ندخل مرحلة امكان نقص الطلب الفعلى عن توفير العمالة الشاملة ، ولذلك فان السياسة التى نصح بها كثيرة هى ضرورة العمـــل على زيادة الطلب • على أنه لا ينبغى أن تعطى نظرية كينز أكثر من دلالتها الحقيقية • فليس معنى ذلك أن العالم قد عرف مجتمع الاستهلاك فى الثلاثينات • ولكن ما نود أن نشـــير اليه هو أنه بدأت تظهر مشاكل الطلب الكلى ولم تعد أمرا تلقائيا كما كانت عنـــد بداية الثورة الصناعية وفى ظل مستويات الاستهلاك المخفضة • ومما ساعد على ظهور أزمة الطلب الكلى فى الثلاثينيات سوء توزيع الدخول • فأصـــحاب الدخول المنخفضة لم يكن من الممكن زيادة استهـــلاكهم نظرا لانخفـــاض دخولهم ، وأصحاب الدخول المرتفعة لم يكن من السهل زيادةاستهلاكهم نظرا لانخفاض مرونة الاستهلاك لديهم • وفى هذا الجانب يتفـــق تحليل كينز مع تحليـــل ماركس للأزمات الاقتصادية فى ظل النظام الرأسمالى •

واذا كانت نظرية كينز قد مهدت السبيل نحو ضرورة الأخذ بسياسات التدخل لزيادة الطلب الفعلى فان آثارها لم تظهر بشكل واضح الا فىالسنوات الأخيرات فى المجتمعات المتقدمة جدا ، وفى هذه المجتمعات يبدو فى كثير من الأحوال أن النظام الاقتصـــادى منها يســـير على عكس مقتضيات الرشـادة الاقتصادية • وحقيقة الأمر أن اختلاف الظروف يستدعى اختلافا فى النظرية السائدة وفى قواعد السلوك • وهذا ما دعا جالبرث الى القـــول بأن « مجتمع الوفرة »[1] يختلف بالضرورة عن « مجتمع الندرة » الذى ظهرت فيه تعاليم النظرية الاقتصادية على أيدى آدم سميث وخصوصا ريكاردو • والأمثلـة على هذا الاختلاف كثيرة • ان المتأمل فى الاقتصاديات المتقـدمة وبوجه خاص فى الاقتصـــاد الامريكى يجد غرابة فى الدور الذى يحتله الاعـــلام من هـــذا الاقتصاد • النفقات التى تنفق على الدعاية بصورها المتعددة والتطور الذى نجم عن ذلك فى وسائل الاعلام المختلفة يقتطع جزءا هـــاما ومتزايدا من النـــاتج

---

(١) انظر مؤلفه The Affluent Society سابق الاشارة اليه •

القومى • وليس من السهل الاقتناع بأن هذه النفقات يقصـــد بها فقط اعلام لجمهور المستهلكين بوجود السلعة ومزاياها ومن ثم تحقق خدمة اقتصادية ، اذ الواقع أن كثرة هذه الدعايات وتكرارها والاصرار عليها لا يمكن أن يكون الغرض الوحيد منه هو الاعلام ، ولذلك فقد ذهب عدد من الاقتصاديين الى القول بأن نفقات الدعاية والاعلام فى جزء كبـير منها تعتبر ضـياعا Waste على الاقتصاد لا تتحقق من ورائه أية منفعة اقتصادية ، وأن هذه الموارد كان من الأجدر توجيهها نحو استخدامات أكثر فائدة • وهذا النظر أمره معقول ومقبول فى « اقتصاد الندرة » الذى تعودنا عليه • ففى ظل هذا الاقتصاد حيث يحكمنا أساسا قانون الندرة ، يترتب على مجاوزة الاعلام للحدود المعقولة فى توفير العلم للمستهلكين اقتطاع جزء من الموارد واستخدامها فيما لا يعود بفائدة مباشرة على المستهلكين • ولـكن الامر يكون مختلفا عن ذلك فيمـا نسميه « باقتصاديات الوفرة » • فقد سبق أن أشرنا الى أن الانتاج فى هذه الدول قد زاد زيادة كبيرة مما أدى الى اشباع الحاجات الأساسية للأفراد ، أو كاد • ومع ذلك فان استمرار زيادة الانتاج تتطلب فى الواقع زيادة الاستهلاك وهو أمر لم يعد من السهل تحقيقه نظرا لان الحاجات الأساسية قد تم اشباعها • ولذلك فان جزءا هاما من الموارد الاقتصـادية انما يتجه نحو تنمية عادات الاستهلاك وخلق عادات جديدة للاستهلاك حتى يستمر الانتـــاج فى التوسع المستمر • فالحاجات التى تشبع الآن لم تعد قاصرة على الحاجات البيولوجية الأولية ،وانما هى حاجات نفسية واجتماعية وثقافية تخلقها البيئة التى يعيش فيها الفرد • ومن ثم فان نفقات الدعاية والاعلام لم تعد مجرد وسيلة لتوفير العلم لدى المستهلكين بوجود السلعة وبخصائصها ، وانما اعتبرت بشكل خاص وسيلة للتأثير على ارادة المستهلكين وأذواقهم بخلق حاجات جديدة لديهم لم يكـونوا ليشعروا بها فيما لو لم تنفق هذه المصاريف • ولذلك فانه فى ظـل مجتمع الاستهلاك يصبح الاعلام جزءا عضويا من جهاز الانتـــاج وبدونه لا يستطيع هذا الجهاز الاستمرار فى النمو •

وقد ترتب على ما تقدم تغيير فى القيم الاجتماعية السائدة • فالاستهلاك

أصبح في ذاته قيمة اجتماعية كبرى ، ويقاس مركز الفرد الاجتماعى بقدر ما يستهلكه من السلع والخدمات ومدى قدرته على التغيير المستمر • ومن هنا نجد أن من خصائص الأذواق فى العصر الحديث التغيير المستمر ، « المودة » دائما فى تغيير حتى يشعر الفرد بحاجته المستمرة الى التغيير فى استهلاكه مما يؤدى الى الاستهلاك المستمر • ونستطيع أن نعطى مثالا لذلك • فالمجتمع الامريكى كان ولا يزال متقدما على المجتمعات الاوروبية فى كثير من خصائص مجتمع الاستهلاك • وقد كانت السيارات من سلع الاستهلاك الجارى فى الولايات المتحدة الامريكية التى تعتمد عليها عدة صناعات أساسية • ولذلك فقد كان من الواجب ادخال عادة تغيير السيارة كل فترة • ولذلك نجد أن أشكال السيارات الامريكية تتغير دائما كل فترة حتى يضطر الفرد الى اقتناء سيارة جديدة • ولم يكن الأمر كذلك فى أوروبا حيث أن صناعة السيارات لم تكن بهذه القدرة ولذلك فان السيارة فى أوروبا كانت سلعة معمرة تقتنى لكى تعيش سنوات عديدة قبل استبدالها لتلف فيها • والآن نلاحظ أن صناعة السيارات فى أوروبا قد تقدمت وأصبحت السيارة من سلع الاستهلاك الجارى وكان لابد من زيادة الاستهلاك • واذا بنا نرى السيارات الاوروبية التى أنتجت لعشرات السنوات بنفس الشكل قد بدأت تميل الى ادخال تعديلات فى شكلها الخارجى بحيث أنها تسير الآن فى نفس الاتجاه الامريكى •

ونلاحظ أن استقرار عادة الاستهلاك كقيمة اجتماعية تفسر سلوك الأفراد فى المجتمع الحديث هى ظاهرة جديدة • فاذا كان الاستهلاك ونوعه وتنوعه يحدد فى العصر الحديث ـ الى حد ما ـ مكانة العائلة الاجتماعية ، فان ذلك لم يكن كذلك دائما • ففى القديم كان المركز الاجتماعى للفرد وبصرف النظر عن مقدار استهلاكه وبذخه بل انه من مدعاة السخرية أمر يحاول الفرد أن يجارى النبلاء فى حياتهم وأن يحاول أن يستمد مركزه الاجتماعى من زيادة انفاقه الاستهلاكه ، ومن هنا نستطيع أن نفهم الكوميديا الساخرة لموليير « Le Bourgeois Centilhomme » عن ذلك التاجر الذى حاول يتشبه بالنبلاء لمجرد زيادة انفاقه الاستهلاكى •

كذلك نجد أنه مما ساعد على قيـــام الرأسمالية الناشئة سـيادة الأفكار البيوريتانيـــة Puritan التى صاحبت الاصـــلاح الدينى فى أوروبا ، والتى كانت تدعو الى الحرص والاعتدال فى الحياة مع ما يترتب على ذلك من تضييق الاستهلاك وتقدير عادة الادخار • وقد كان عـــدد كبير من المهاجرين الى أمريكا من هـــذه الطوائف الدينية • ونحن نعرف أنه فى المراحـل الأولى تكون الحاجة الى الادخار كبيرة لمواجهـــة حاجات الاستثمار المتزايدة • ولم يدخل الاستهلاك فى مجال القيم الاجتماعية الا متأخرا • ولعله من الطريف أن أول من أشـــار الى أهمية هـــذا « الاســتهلاك التفـاخرى » : Conspicuous consumption هو الاقتصادى الامريكى فبلن Veblen فى كتابه The Leisure Class وهو بذلك يشير الى أن بذور هذا المجتمع الجديد قد ظهرت أيضا فى الولايات المتحدة الامريكية منذ نهـاية القرن المـاضى • ولم ينظر الى أثر الاستهلاك كقيمة اجتماعية فى النظرية الاقتصـــادية الا مؤخرا عندما كتب دوزنبرى(١)عن « أثر التقليد » Demonstration effect ، وبين استهلاك الفرد لا يتوقف على ذوقه وما يريده هو بقدر ما يتأثر بمـا يستهلكه الآخرون • وبذلك أدخل فكرة التداخل بين أذواق المستهلكين فى تحـديد ذوق المستهلك Interaction of utilities • ومعنى ذلك أن الاستهلاك أصبح قيمة اجتماعية • فالفرد لا يستهلك ما يريده فحسب ، وانما يستهلك ما يجد جيرانه وزملاءه يستهلكونه • ومن هنا نفهم الدور الذى يقوم به الاعلان فى العصر الحديث •

واذا كان الاستهلاك يزيد باستمرار ويتنوع ، فان مقتضيات الانتـــاج بأقل نفقة تستدعى فى نفس الوقت ايجـــاد نوع من **النمطية فى الاستهلاك** Standardization فقد سبق أن أشرنا الى المزايا العديدة التى يحققها الانتاج الكبير ، ولذلك فان المشروعات فى سعيها نحو زيادة الانتـاج وما يستتبعه من زيادة فى الاستهلاك انما تحاول أن يتم ذلك بشكل نمطى بقدر الامكان حتى

(١) Cf. J. Duesnberry, Income, Saving and the Theory of Consumer Behaviour, Cambridge, Mass. 1949.

تنخفض نفقة الانتـــاج ٠ ولذلك فان أهم ما نلاحظه فى الوقت الحـاضر هو اتجاه الاستهلاك الى الطبقات الوسطى وليس الى الطبقات العليا ٠ ففى المـاضى كان الحديث عن الأذواق والمودة قاصرا على طبقة محددة من ذوى الدخـل المرتفع ، أما الآن فان المنتجات الحديثة تتجه عادة الى المستهلك العادى والذى يكون الغالبية الكبرى من المستلهكين ، وهـــؤلاء يشترون عادة ما يقدم لهم دون نظرة نقدية ٠ فهم بطبيعتهم من مقدرى الاستهلاك النمطى ٠ ولذلك فان الاستهلاك الترفى فى العصر الحديث ليس قاصرا على الطبقات العليا وانما هو من أهم خصائص الطبقة الوسطى وما دونها ٠ بل لعل الطبقات العليا قد بدأت تميل نحو التعفف عن هذا الاستهلاك النمطى ٠

واذا كان مجتمع الاستهلاك قد أدى الى الزيادة المستمرة فى اســتهلاك الطبقات المحرومة نوعا ، الا انه لم يخل من انتقادات عنيفة مردها الى نظرته المادية الى الاستهلاك وعدم وجود مثل خلقية وثقافية الغرض منها تنمية الفرد وقدراته ٠ فهذا المجتمع يخلق من الفرد أداة للاستهلاك دون أن يجعل منه انسانا حقيقيا ٠ وهذه الانتقادات وغيرها سوف نتعرض لهـا فيما بعد ولـكننا نشير الآن الى أمر هام ، وهو هل يترك هذا النظام الاقتصادى لقوى السوق وحدها أم لابد من اخضاعه لخطة ٠ وبعبارة أخرى هل التنظيم الرأسمالى أو الاشتراكى هو الأقدر على مواجهة حاجات هذا المجتمع ؟ أم أن الحقيقـــة أن السوق والخطة ليسا متعارضين كما يبدو للوهلة الأولى ، وأن الحاجــة هى اليهما معا ؟ وهذا ما سيساعد على فهم مدى الاختلاف بين النظم الحديثة ٠

السوق والخطة :

أشرنا فيما تقدم الى أهم خصائص « المجتمع الصناعى الجديد » وما أدى اليه من تقارب بين النظم الاقتصادية المتقدمة والتى ظهرت فيها هذه الخصائص بشكل واضح ٠ كما تعرضنا الى التطور الذى لحق الأشخاص الذين يتخذون القرارات الاقتصادية ، ووجدنا أن هناك اتجاها متزايدا نحـــو تركيز سلطة اتخاذ القرارات الاقتصادية فى أيدى المديرين والفنيين ، وأشرنا الى ما ترتب

على ذلك من انفصال بين الملكية القانونية وبين الادارة الاقتصـــادية • ومن شأن ما تقدم تأكيد الانطباع بأن تقاربا يتم الآن بين الدول الصـناعية المتقدمة الرأسمالية ، والدول الصناعية المتقدمة الاشتراكية • على أن هــذا الانطباع لا ينبغي أن يخرج عن كونه اتجاها عاما وليس حقيقة قائمة في جميع الدول الصـــناعية بنفس الدرجــة • **فلا زالت الملكية الخاصة تلعب دورا هاما في القرارات الاقتصادية في الدول الرأسمالية ، كمـا أن سلطة الحزب السياسي (الشيوعي) باعتباره طليعة القـوى العاملة لا زالت كبيرة جـدا في الدول الاشتراكية** • وبالرغم من هذه الفروق فان الاتجاه العام السابق الاشارة اليه حقيقة لا يمكن انكارها •

ونود الآن أن نتساءل ، ألا تختلف الادارة الاقتصادية باختلاف النظام الاقتصادي ؟ ألا تتغير طبيعة هذه الادارة بحسب ما اذا كان نظام السـوق أو نظام التخطيط هو السائد ؟ الواقع أن هذا هو التساؤل الأساسي الآن ، الى أي حد يتعارض نظام السوق مع نظام التخطيط والى أي حد يتكاملان ؟

الفكرة السائدة هي أن النظام الرأسمالي يقوم على أساس السوق ، في حين أن النظام الاشتراكي يقوم على أساس التخطيط • هذا ما نود أن نتعرض له الآن لنرى كيف أدى التطور الحالي للمجتمع الصناعي الحديث الى التكامل بين النظامين •

قد يبدو من وجهة نظرية بحتة أن النظامين متعارضـــان تماما ، فنظام السوق هو الأخذ بنظام اللامركزية الاقتصادية Economic decentralisation في حين أن نظام التخطيط هو تطبيق لفكرة المركزية الاقتصادية Economic Centralisation

يقوم نظام السوق من الناحية النظرية ، على ما يعرف بسيادة المستهلك: Consumer sovereignity فالمستهلكون يقومون بتوزيع دخولهم من العمـل والملكية أو من أيهمـــا على السلع والخدمات المختلفـة بحسب أذواقهم وبما يحقق لكل منهم أكبر اشباع ممكن وفقا لسلم ترتيب أفضلياته • ويعتبر كل مستهلك مستقلا في قراره بتوزيع دخله على السلع والخـدمات دون أن يقوم

أى تنسيق مسبق[1] بين قراره وقرار غيره من المستهلكين . ولا نقصد بذلك أن المستهلك الفرد لا يتأثر باستهلاك الآخرين فقد سبق أن تعرضنا الى أهمية « أثر التقليد » ولكن ما نقصده هو أن المستهلك فى قراره لا يعنى بقرارات غيره من حيث أثرها على التوازن العام . فكل ما يريده هو أن يحقق أقصى اشباع ممكن له حسب ذوقه من دخله المحدود . ولا يستطيع أى مستهلك بفعله المنفرد أن يؤثر فى الأثمان المعروضة ، فهو ذرة فى محيط من المستهلكين وسواء زاد الكمية التى يشتريها أم أنقص منها فان أثره على الطلب الكلى لا قيمة له . ولكن التأثير فى ثمن السلعة يحدث نتيجة لمجموع أفعال المستهلكين كما تظهر فى الطلب الكلى .

وكذلك فان الانتاج يتم فى ظل نظام السوق من جانب المنتجين الذين يواجهون بأثمان معينة لعناصر الانتاج وأثمان السلع ، ولا يستطيع أيهم أن يغير بفعله المنفرد من هذه الأثمان وانما عليه فقط أن يقوم بالتأليف بين عناصر الانتاج بما يسمح له بتخفيض النفقات الى أقل قدر وينتج الكمية التى تحقق له أقصى ربح . والأصل هنا فى نظام السوق (وهو ما يطلق عليه سوق المنافسة الكاملة) أن كل منتج ذرة فى هذه السوق ، ولا يقوم أى تنسيق مسبق بينه وبين غيره من المنتجين . ويحدث التأثير فى الكمية المعروضة نتيجة لمجموع أفعال المنتجين كما تظهر فى العرض الكلى . ويتم التوازن عندما يتساوى الطلب مع العرض الكلى لكل سلعة ، مع ما يترتب على ذلك من تغيرات فى الأثمان . وعلى ذلك نجد أن التوازن يتحقق فى الاقتصاد بالفعل Ex Post ([2]) نتيجة لتغيرات الأثمان التى تحقق المساواة

---

(١) أنظر فى تفصيل ذلك مؤلفنا ، دروس فى النظرية النقدية ، المكتب المصرى الحديث ، الاسكندرية ١٩٦٦ ص ٢٢ — ٤٥ ، وانظر أيضا ، أحمد جامع ، الاقتصاد الاشتراكى ، سابق الاشارة اليه ص ٥١٧ — ٥٤٥ .

(٢) تستخدم الاصطلاحات ex post, ex ante فى الاقتصاد للتعبير عن « السابق » « واللاحق » جريا وراء استخدام السويديين وبصفة خاصة ميردال لهدم الاصطلاحات اللاتينية للتعبير عن الحساب السابق والحساب اللاحق . أنظر له :
G. Myrdal, L'Equilibre Monétaire, (trad.), édition Genin, Paris, 1950.

بين العرض والطلب • والذى يهمنا من الصـــورة النظرية المتقدمة هـو أن القرارات الاقتصادية تصـــدر من عدد كبير من الوحـــدات الاقتصادية التى تسعى لتحقيق مصلحة لها ، ودون أن يقوم تنسيق مسبق بينها ، كما أنه ليس لقرار أى من هـــذه الوحدات منفردا أى تأثير على الأثمان Price taker ومن ثم على الكميات المطلوبة أو المعروضـــة وانما يتم التأثير نتيجة لمجموع قرارات المستهلكين والمنتجين • ولذلك فهذا النظام يتميز بعـدم وجود سلطة عليا تفرض تحقيق التوازن بين الطلب والعرض ، وانما يتحقق هذا التوازن نتيجة لهذه القرارات التى تصدر من الوحدات الأولية التى لا تملك الا التأثير فى طلبهـــا وعرضها ، **ولذلك نقول بأن نظام السوق يعتبر مظهرا من مظاهر اللامركزية فى الادارة الاقتصـــادية حيث تباشر الوحـــدات نشاطها مدفوعة بمصلحتها الخاصة** ، وهذا ما كان وراء فكرة آدم سميث عن اليد الخفية التى تحقق الانسجام بين المصالح الخاصة والمصلحة العـامة ، ذلك أنه يترتب على التوازن استخدام الموارد المتاحة فى الاقتصادية وانتـــاج السلع التى يريدها المستهلك وهو المقصود بأن هذا النظام يخضع لسيادة المستهلك •

وقد يمكن أن ننقد هذه النظرة الى ســـيادة المستهلك بأن ما يظهر فى السوق ليس رغبات المستهلك فى ذاته ، ولكن المستهلك المزود بقوة شرائية ، بمعنى أن الأصوات Votes التى يعبر بهـا عن رغبـات المستهلكين انما هى أصوات موزونة أو مرجحة Weigted بحسب دخل كل منهم • فصـاحب الدخل الكبير سيكون له أثر أكبر على الأثمان من صاحب الدخل الصغير • وهذا هو النقد الأساسى الموجـــه الى النظام الرأسمالى ، وواضح أن النقـد لا يتعلق بالاعتماد على نظام السوق وانما على كيفية توزيع الدخول • فهـــذه الدخول موزعة بحسب العمـــــل والملكية ، ومن الممكن أن تناقش فى مدى مشروعية دخل الملكية • ولكن هذه مسألة أخرى ، وهى على أى الأحوال الأساس الذى تستند اليه معظم النظم المعارضة للنظام الرأسمالى •

ويكاد يعتبر نظـــام التخطيط عكس نظام السوق مفهوما على النحـــو المتقدم • فالتخطيط يعتمد على مركزية القرارات الاقتصادية ســواء من حيث

تحديد السلع والخدمات الواجب اشباعها أو من حيث اتخاذ الوسائل الكفيلة بتحقيق هذا الاشباع ، وبذلك تحل قرارات سلطة مركزية محل قرارات وحدات المستهلكين والمنتجين اللامركزية • فالمشكلة الاقتصادية واحدة فى جميع المجتمعات ولكن الاختلاف يقتصر على وسائل حل هذه المشكلة • هناك دائما موارد محدودة ، صالحة لاستخدامات متنوعة وفقا للفن الانتاجى المتاح ، وحاجات عديدة ، وتكمن المشكلة فى اختيار الحاجات الأولى بالاشباع وفى اختيار أنسب الطرق لانتاج السلع والخدمات التى تشبع هذه الحاجات • ويعتمد نظام السوق على قرارات وحدات لامركزية لتحقيق هذا الاختيار ، المستهلك بالنسبة للحاجات والمنتج بالنسبة لطرق الانتاج • أما فى ظل نظام التخطيط فان هذا الاختيار يتم على مستوى مركزى حيث تتولى سلطة عليا (أيا كان اسمها لجنة التخطيط المركزية أو أية سلطة سياسية شعبية) تحديد الحاجات واجبة الاشباع والسلع والخدمات اللازمة لذلك ، وتفرض هذه الحاجات والسلع على المستهلكين وعلى المنتجين ، فأولئك لا يجدون سوى هذه السلع والخدمات ، وهؤلاء عليهم انتاج هذه السلع والخدمات • ولذلك يقال بأن نظام التخطيط هو نظام كمى بالمقابلة الى نظام السوق الذى هو نظام « قيمى » • والسبب فى ذلك هو أن التخطيط ينحصر فى نهاية الأمر فى تحديد الكميات التى تنتج كل سلعة وخدمة وتفرض هذه الكميات على المستهلكين والمنتجين على السواء • ولذلك فان مدى توفيق هيئات التخطيط المركزية ينحصر فى القيام باختيار الأهداف المناسبة التى ينبغى تحقيقها ، ومن ثم السلع والخدمات الواجب انتاجها ، وكذلك فى تحقيق الانسجام والتناسق بين هذه الأهداف المختلفة وبينها وبين الوسائل المتاحة للانتاج من موارد وفن انتاجى • وتقوم الفكرة الأساسية فى ذلك على أنه فى كثير من الأحوال لا يمكن الارتكان الى رغبات الأفراد التى ينقصها العلم ويغلب عليها قصر النظر ، ومن ثم فانه يمكن أن تكون أهداف الخطة أكثر اتفاقا مع مصلحة الأفراد والمصلحة العامة مما لو تركت الأمور للأفراد وحدهم وتركهم تحت تأثير الجهل والدعايات • وليس معنى قيام سلطة مركزية بتحديد أهداف

الانتاج أنها لا تراعى رغبات هؤلاء وتفرض عليهم سلعا وخدمات لا يريدونها أصلا •

فرغبات الأفراد تدخل ولا شك فى اعتبار سلطات التخطيط المركزية ولكنها لا تعتبر المبرر الوحيد للانتاج كما فى ظل نظام السوق ، بل تدخل هناك اعتبارات أخرى من تقرير المصلحة العامة ، مما قد يغفل عنه الأفراد • كذلك فان سلطات التخطيط المركزية لا تقتصر على وضع قائمة بالأهداف الواجب تحقيقها وانما ينبغى أن تراعى أن يتحقق التناسق بين هذه الأهداف وبعضها وبينها وبين الوسائل المتاحة لها • وبعبارة أخرى ينبغى أن تضمن الخطة التوازن فى الاقتصاد ، فلا يكفى تقدير ضرورة انتاج كمية كذا من هذه السلعة دون التأكد من توافر القدرة على ذلك • وبذلك فان الخطة تضمن تحقيق التوازن مسبقا بين الطلب والعرض وفى هذا تختلف الخطة عن السوق فالتوازن فى الخطة هو توازن سابق ex ante ويتحقق التوازن اللاحق Ex post وفق تقديرات الخطة اذا كانت الخطة سليمة ، ولا يتحقق التوازن اللاحق وتظهر اختلالات اذا لم يكن التخطيط سليما أو طرأت عوامل لم يكن من السهل توقعها •

ولا يعنى القول بأن التخطيط يتضمن توزيعا كميا للموارد أن الأثمان لا تستخدم ، الواقع أنه نظرا للتنوع الشديد بين عناصر الانتاج المستخدمة وبين السلع والخدمات المنتجة لابد من استخدام وسيلة واحدة للقياس ، وهى بالضرورة النقود ، مما يؤدى الى أن تظهر الكميات الاقتصادية فى شكل قيم • بالاضافة الى أنه فى جميع الدول الاشتراكية وفى الظروف العادية لا توزع الدخول بشكل عينى وانما فى شكل نقدى ، والمستهلك يوزع هذا الدخل النقدى على السلع الموجودة بالسوق • ولكن هذه الأثمان والقيم التى تظهر فى السوق ليس لها أكثر من دور محاسبى بحت بالنسبة لسلطات التخطيط ودور توزيعى بالنسبة للمستهلكين ، ولكن ليس لهذه الأثمان أى تأثير على القرارات الاقتصادية المتعلقة بالانتاج ، على الأقل ليس بشكل

مباشر • فارتفاع أثمان سلعة نتيجة لزيادة الطلب عليها وظهور سوق سوداء أو اختفاؤها كلية من السوق لا يؤدى الى زيادة عرض هـــذه السلعة لأن الانتاج مرتبط بالخطة وليس برغبات الأفراد كما تظهر فى السوق • على أن ذلك لا يمنع سلطات التخطيط من أن تأخذ هذه المؤثرات فى الاعتبار عنــد وضع الخطة الجديدة أو عند تعديل الخطة القائمة •

وخلاصة القول ان التخطيط ، فى الأصـــل ، نظام يقوم عـلى قرارات تصدر من سلطة مركزية وبحيث تراعى تحقيق التـــوازن مسبقا بين الطلب والعرض فى الاقتصاد(١) •

مما تقدم قد يبـــدو أن نظامى السوق والتخطيط على طرفى نقيض ، ولـــكن الواقع أن تطور المجتمع الصـــناعى الحديث قد جعل منهمـا أمرين متكاملين بحيث نلحظ من ناحيـــة مزيدا من التدخـل والتخطيط فى الدول الرأسمالية ، ونلحظ من ناحية أخرى مزيدا من الحرية وترك المجال للسوق فى الدول الاشتراكية • وهكذا يكاد يبدو التنظيم الحالى للمجتمع الصـــناعى الحديث كمزيج من القرارات المركزية والقرارات اللامركزية وان كان ذلك بدرجات متفاوتة بين الدول المختلفة •

سبق أن أشرنا الى أن النظام الرأسمالى قد تطور تحت ضغط حاجات المجتمع الجديد وأن المنافسة الكاملة لم تعد ســـوى حالة استثنائية من حالات السوق • فالأصل هو المشروعات الصناعية الكبرى والتى تؤثر بقرارها المنفرد فى الأثمان ، ومن ثم فى الكميات المعروضـــة والمطلوبة • ومن الواضح أن قرارات هـــذه المشروعات الكبرى لا يمكن اعتبـــارها مظهرا من مظاهر

---

(١) ثار خلاف نظرى فيما مضى حول امكان الوصول الى تحقيق الكفاءة الاقتصادية فى ظل النظام الاشتراكى حيث شكك فى ذلك بعض الاقتصاديين ، ولكن هذه القدرة على تحقيق الكفاءة اصبحت أمرا مستقرا من الناحية النظرية وخاصة بعد كتابات أوسكار لانجه ، راجع فى ذلك مقالنا ، النظرية الاقتصادية وكفاءة الانتاج فى ظل النظام الاشتراكى ، الأهرام الاقتصـــادى ، ١٥ فبراير ١٩٦٦ •

اللامركزية وانما عـــلى العكس هى صورة للمركزية التى تباشرها هـــذه المؤسسات الصناعية الكبرى • ومن هنا نفهم المقصود عادة من القول بوجـود مراكز قوى خفية فى الدول الرأســمالية • كذلك سـبق أن أشرنا الى أن التطور الذى لحق النظام الرأسمالى نتيجة لزيادة الاستهلاك قد جعل التدخل لحفظ مستوى الطلب الفعلى أمرا ضروريا ، وهذا هو ما قامت به نظرية كينز على ما سبق أن أشرنا اليه • وبالمثل فان تدخل الحكومات الغربية لم يقتصر على توفير معدل معقول من الطلب الفعلى اذا كانت ظروف الكساد سائدة كما كان الحال فى الثلاثينيات وانما امتد تدخل الحكومات بالسياسة الاقتصـــادية الى غرض تحقيق النمو الاقتصادى بالاضـــافة الى بعض الأهداف الاجتمــاعية الأخرى مثل التعليم والصحة وغـــيرها • ولذلك فاننا نجد أن هنـاك اتجاها متزايدا فى الدول الرأسمالية الى الأخـــذ بأسلوب أو بآخر من التخطيط • ونجد ذلك واضحا فى فرنسا وفى الدول الاسكندنافية وفى هولنده ، كمـــا نجده فى انجلترا وبدرجة أقل فى الولايات المتحدة الامريكية •

كذلك فان نظام التخطيط وان كان معادلا تماما لنظـام الأثمان من حيث امكانية الوصول الى تحقيق الكفاءة الاقتصـــادية[1] الا أن تطـــور المجتمع الصناعى يجعله غير كاف لمواجهة حاجات هذا المجتمع التقدم • ذلك أن نقطة البداية التى يعتمد عليهـا نظام التخطيط هى امكان توافر **العلم الكامل** لدى سلطات التخطيط المركزية بما يجعلها فى وضع أفضل من الوحدات اللامركزية عند اتخاذ القرارات ، وبذلك تستطيع تلك السلطـــات أن تتجنب الكثير من الضياع والفقد ، نتيجة عدم وجود تنسيق مسبق بين القرارات • وهذا العلم ينبغى أن ينصرف الى عناصر القرار الاقتصادى وهى :

---

(١) انظر فى التقابل التام بين نظام التخطيط الشامل ونظام الأثمان فى المنافسة الكاملة وباستخدام الأساليب الرياضية فى البرامج الخطية Linear Programming وحيث يكون أحد النظامين البرنامج الأولى Primary Program والثانى البرنامج المقابل dual program
T. C. Koopmans, Three Essays on the State of Economic Science, New York, Mc Grow Hill, 1957, pp. 40 et seq.

١ ـ ترتيب أفضليات الحاجات فى الجماعة •

٢ ـ الموارد المتاحة للمجتمع •

٣ ـ الفن الانتاجى المتاح •

وهذه الأمور يسهل توافر العلم الكامل بها ، وعلى الأقل قدر كاف من العلم بها اذا كان المجتمع فى أول مراحل التنمية (أو قامت ظروف استثنائية مثل الحروب) حيث لا تقوم خلافات كبيرة من حيث الأهداف : التنمية السريعة عن طريق التصنيع • كذلك بالنظر الى قلة الموارد وضعف الفن الانتاجى المتاح فى أول مراحل التنمية فان الاختيارات التى تعرض بالفعل تكون محدودة مما يمكن معه لسلطات التخطيط المركزية الاحاطة بها واتخاذ قراراتها على أساس معقول •

ولكن الأمر يكون غير ذلك اذا تقدمت الدولة وعرفت خصائص المجتمع الصناعى الحديث • فهنا يكاد يكون العلم التام أمرا مستحيلا ، ومن ثم فان قرارات التخطيط المركزى لا بد أن تكون قاصرة • كذلك فان محاولة توفير المعلومات لن تؤدى الا الى زيادة أجهزة جمع المعلومات وتحليلها والرقابة عليها مما يؤدى الى ازدياد النفقات وعرقلة سرعة القرارات • وقد لاحظ أحد الاقتصاديين الروس أن استمرار معدل الزيادة الحالى فى العاملين فى جمع المعلومات وتحليلها والرقابة عليها بما يرتبط بأجهزة التخطيط والمتابعة والاحصاءات والحسابات •• سيؤدى بالاتحاد السوفياتى الى استخدام أكثر من ثلثى قوته العاملة فى هذه الأجهزة قبل نهاية القرن •

ولذلك فانه من الضرورى ، **ولاعتبار عملى بحت** ، الالتجاء الى نوع من أسلوب الادارة اللامركزية فى الدول الاشتراكية المتقدمة •ولذلك فقد ظهرت فى الدول الاشتراكية المتقدمة صناعيا دعوات للاصلاح الاقتصادى وللأخذ بصور من أساليب السوق فى تحديد أذواق المستهلكين ونوع السلع والخدمات التى تنتج ، وترك المشروعات تنتج وفقا للأسلوب الذى يناسبها لتخفيض نفقة الانتاج ، ومن ثم ترك بعض الحرية لها فى تحديد الفن الانتاجى

المناسب • وهذا فى الواقع هو المدلول الحقيقى للدعوة الى الأخذ بفكرة الربح فى المشروعات فى الدول الاشتراكية • فليس المقصود هو العودة الى نظام الملكية الخاصة للدول الرأسمالية ، وانما الغرض أن يكون توجيه الانتاج ، على الأقل فى جزء منه ، وفقا للقرارات اللامركزية كما تظهر فى السوق من جانب المستهلكين والمنتجين • وبذلك يعتبر معيار الربح مظهرا لفكرة السوق اللامركزية •

وهكذا نستطيع أن نلمح تقاربا بين النظامين ، **وأن السوق والخطة ليسا متعارضين كما قد يبدو للوهلة الأولى وانما هما أسلوبان متكاملان • الخطة تبين الاختيارات الأساسية للمجتمع للمستقبل والسوق تقوم بالتنفيذ اليومى وتحقيق الاجراءات اليومية والتفصيلية اللازمة لتنفيذ هذه الخطة(١)** • وهذه الخطة ضرورية فى كل مجتمع حديث ، فقد سبق أن أشرنا الى أن الحساب الاقتصادى هو من أهم خصائص هذا المجتمع • والخطة لا تعدو أن تكون تطبيقا لهذا المبدأ على الاقتصاد فى مجموعه • ولكن هذه الخطة ينبغى أن تكون اجمالية وقيمية وليست تفصيلية وكمية ، وأن تقتصر على السياسة العامة • وفى نفس الوقت يقوم السوق بالتنفيذ اليومى لهذه الخطة الاجمالية •

وفى جميع الأحوال وسواء عند اتخاذ القرارا الاقتصادية المركزية المتعلقة بالخطة الاجمالية أو القرارات الاقتصادية اللامركزية المتعلقة بمتابعة السوق فان المشاكل المطروحة تجعل دور الفنيين فيهما كبيرا على النحو الذى تعرضنا له فيما سبق •

عناصر القلق ــ الطلبة والمثقفون :

قد يبدو مما تقدم أن المجتمع الصناعى الحديث ، وقد تخلص الانسان من

---

(١) أنظر فى هذا الموضوع مشروع الخطة الخامسة الفرنسية

Projet du Rapport sur les Principales Options du V Plan. Commissariat général du Plan d'Equipement et de Productivité, Paris, Septembre 1964.

عبء حاجاته الضرورية وفتح آفاقا بعيدة للانتاج ومن ثم للاستهلاك قد حقق أخيرا حلم الانسان فى الحياة : حياة هادئة هادفة • ولكن الحقيقة غير ذلك تماما فان هذا المجتمع وقد تمكن من القضاء على نوع خطير من المشاكل التى صادفت الانسان ـ ربما الأصح القول وقد بدأ فى القضاء عليها ـ وهى مشاكل الندرة فى توفير الاشباع للحاجات الضرورية ، فانه نفسه قد بدأ يواجه نوعا جديدا من المشاكل ، **وهذا النوع الجديد من المشاكل لم يعد تغلب عليه الصفة الاقتصادية بقدر ما يغلب عليه الطابع النفسى والثقافى** • فلم يعد التساؤل الرئيسى كيف يمكن توفير الاشباع الأساسى للحاجات الضرورية لوجود الانسان وانما أصبح التساؤل عن نوعية هذا الوجود والهدف منه ، ولم يقتصر التساؤل عن مستوى المعيشة وانما جاوز ذلك الى نوع المعيشة([1])• لا وتقتصر مشاكل هذا المجتمع الجديد على تغيير فى نوعها وفى التساؤلات المطروحة وانما ترتب على ذلك بالضرورة تغيير فى أشخاص المتسائلين والثائرين • فحيث كانت المشاكل المطروحة بالدرجة الأولى مشاكل اقتصادية وتوفير الحاجات الضرورية للأفراد ، كان من الطبيعى أن تصدر صيحات التغيير والتمرد من الفئات المهضومة اقتصاديا أو المتحدثين باسمهم مثل العمال ، أما الآن وحيث تغيرت المشاكل وأصبحت ذات طبيعة ثقافية ونفسية بالدرجة الأولى فان مصدر القلق والتمرد قد انتقل من نقابات العمال الى الشباب بصفة عامة والطلبة والمثقفين بصفة خاصة • وهذا ما أدى الى ظهور شعارات جديدة مثل « ثورة الشباب » و « الثورة الثقافية » وغير ذلك([2]) • ونود الآن أن نتعرض لهذه المظاهر بشىء من التفصيل •

---

(١) لعل من أوائل من أشاروا الى أهمية التفرقة بين مستوى المعيشة Niveau de vie ونوع المعيشة genre de vie هو الكاتب الفرنسى J. Fourastie أنظر كتابه : Le Grand Espoir du XXème Siècle, P.U.F. Paris, 1958.

(٢) أنظر فى تحليل ثورة الطلبة فى فرنسا ، كتابنا عن مجتمع الاستهلاك ، سابق الاشارة اليه •

سبق أن أشرنا الى أن « المجتمع الصناعى الحديث » بقدرته الفنية الهائلة يعمل على زيادة الانتاج باستمرار ومن ثم خلق عـــادات جـديدة للاستهلاك للأفراد • وهذا المجتمع فى سعيـــه المستمر لزيادة الانتـــاج والاستهـــلاك لا يستهدف سوى مزيد من الانتاج ومزيد من الاستهلاك • فهو جرى محموم دون ما أى هدف ظاهر • ولعل من الأمثلة التى تعبر رمزيا عـن طبيعـة هذا المجتمع هو ما نراه فى هذا العصر الحديث من « حب السرعة » ولذلك يسمى عصر السرعة ، فالشباب يقبل على ركوب السيارات السريعة ويقودها بسرعة جنونية ، وتتنافس الشركات فى اخراج نماذج من سيارات أكثر سرعة ،الكل يريد أن يجرى بسرعة ، ويريد أن يسبق•ولكن لماذا ؟؟ أن يسبق ماذا ؟؟هذه أسئلة لا اجابة عنها ، فالمهم هو مزيد من السرعة ، وهذا هو شـــأن مجتمع الاستهلاك • وقد بدأ يعانى منه •

وقد سبق أن أشرنا الى أن المجتمع الصناعى الحديث فى سعيه لمزيد من الانتاج والاستهلاك يستخدم الموارد الضخمة وبامكانيات كبيرة للتأثير فى أذواق المستهلكين وتوجيههم نحو الاستهلاك أكثر واكثر • وبذلك فان هذا المجتمع بامكانياته الضخمة يصل على قصر دور الفرد على مجرد وحدة لاستهلاك مـا يقدم له فى السوق ، دون أن تكون لارادة هذا الفرد أى دور يذكر • وفى اختيار السلع والخدمات التى تطرح فى السوق فان ما يراعى هو مدى قـدرة الفن الانتاجى على المزيد من الانتاج دون أية اشـــارة الى أثر هذه السلـع والخدمات على تنمية قدرات الفرد وامكانياته الثقافية والانسانية بما يعود عليـه بنفـــع حقيقى • **ولذلك فان مشكلة حرية الفرد هى جوهر المشاكل الجديدة لمجتمع الاستهلاك** • فحرية الفرد هى فى تنمية امكانياته وقدراته الذاتية والتى تمكنه من الابداع والابتكار والمساهمة فى حياة المجموع مساهمة ذاتية يشعر فيها بدوره العطائى وهو متحرر من كافة القيود ، وسواء أكانت قيودا قانونية أم قيودا اقتصادية • ولم يكن من حق الفرد دائما المساهمة فى أمور الجمـاعة التى ينتمى اليهـا ، بل كان هـــذا الحـــق قاصرا على فئة معينة من الأشراف والنبلاء • وقد حققت الثورة الديمقراطية حق الفرد ، كل فرد ، فى المساهمة

فى أمور الجماعة التى ينتمي اليها دون أى عائق قانونى ، كـذلك فان الحاجة الاقتصادية تعوق الفرد دون الاسهام الحقيقي فى أمور جماعته رغم تقرير هذا الحق قانونا له • ولذلك فان حرية الفرد تظل نظـــرية ما لم يتوافر له القدر الضرورى اللازم لحفظ مستوى معيشة معقول وقدر معقول من العلم والمعرفة• ولعل الثورة الاشتراكية قد قامت لتوفير هذه الحرية الاقتصادية لطبقة العمال • ولكن ذلك لا يكفى اذ لابد من توفير الظروف النفسية والثقـافية الضرورية لابداع الفرد • ولذلك فقد كان من الشعارات الطريفة التى رفعت أثناء ثورة الطلبة فى فرنسا فى مايو ١٩٦٨ والتى كتبت على جدران السوربون : «الثورة البرجوازية ثورة قانونية ، والثورة البروليتارية ثورة اقتصادية أما ثورتنا فهى ثورة ثقافية نفسية »(١) • وقد سبق أن أشرنا الى ان المجتمع الصناعى الحديث يؤكد على ضرورة نمطية الاستهلاك ومن ثم تأكيد الذوق الجماعى للاستهلاك دون أية مراعاة لتنميـــة الأذواق الفردية ومن ثم الابداع • وقد عبر أحـد الفلاسفة المعاصرين « ماركوز » ومن أكثرهم تفهما لمشاكل العصر ــ عبر عن الانسان المعاصر بأنه « الانسان ذو البعد الواحد » وذلك فى كتابه بهذا الاسم : One dimensional Man (١) ويرى ماركوز أن الانسان فى علاقته بالمجتمع الذى يعيش فيه : يمكن دائما أن يميز بين بعدين لهذه العلاقة : البعد الأول هو الاندماج والتلاؤم ، والبعد الثانى هو المنازعة والرفض•وفى كل المجتمعات نجد أن الفرد يحتفظ فى علاقته بالمجتمع الذى يعيش فيه بهذين البعـدين : الاندماج من ناحية ، والمنازعة من ناحية أخرى • فكل حضارة تطبع أفرادها بنوع من التشابه ، ولكنهم أيضا مختلفون • وهذا التشابه والاختـــلاف هو

---

(١) استخدم الطلبة فى فرنسا فى أثناء ثورة مايو ١٩٦٨ طريقة جديدة فى الاعلام وهى كتابة الشعارات على جدران الكليات والمعاهد وذلك نشبها بصحف الحائط التى ظهرت فى الصين مع ظهور أول صحيفة ثم أعيدت فى أثناء الثورة الثقافية أخيرا • وقد جمعت هـذه الشعارات فى كتيبات صغيرة تحتوى على ما كتب فى ذلك الوقت . أنظر
Les Murs ont La Parole, mai 68, éditeur Tchon, France, Paris, 1968.

(١) الفيلسوف ماركوز ونحن نشير الى الترجمة الفرنسية
H. Marcuse, L'Homme Uni Dimensionnel, édition de Minuit, Paris, 1968.

الذى يحفظ للفرد توازنه داخل المجتمع الذى يعيش فيه • ويرى ماركوز أن مجتمع الاستهلاك خلافا لغيره من المجتمعات السابقه يتجه نحو الغاء جانب المنازعه أكثر فأكثر ، ومن هنا نجد أنفسنا فى ظل حضارة تميل الى غلبة بعد الاندماج على حساب بعد المنازعة ، ان الانسان ذا البعد الواحد هو صورة الانسان الحديث • فمجتمع الاستهلاك عن طريق قدرته الفائقة على زيادةانتاج سلع الاستهلاك ومن ثم رفع المستوى المادى لافراده ، يتجه فى الواقع الى الغاء جانب المنازعة لتصبح شكليه فقط • ومع ذلك فالقدرة الهائله التى يتمتع بها المجتمع الصناعى الحديث لم تخلق مجتمعا ذا وجه أكثر انسانية بل لعل العكس هو الصحيح • ولننظر حولنا •

بالرغم من مظاهر الثراء التى تتمتع بها الدول الصناعية المقدمة وفى مقدمتها الولايات المتحدة الامريكيــة لا زالت هناك جزر للفقر تعيش فى وسطها • ويكفى النظر الى مشكلة الزنوج والاقليـات فى الولايات المتحدة الامريكية لمعرفه الى اى حد يتعايش مجتمع الوفرة مع مجتمع الندرة• والامر ليس متعلقا فقط بسوء توزيع الثروة والدخول وانما هو اخطر من ذلك بكثير• فنحن نعرف أن النمو بطبيعته ليس متوازنا سواء من ناحية القطاعات المختلفة او من ناحية التوزيع الجغرافى • فهناك دائما قطاعات اقدر على تحقيـق معدلات من النمو اكثر من غيرها ، ونفس الشىء بالنسبة للمناطق الجغرافيـة المختلفة • وتقوم السياسات الاقتصادية المختلفه بالعمل على تخفيف هذا التفاوت •

ولكن مشكلة الزنوج والأقليات فى الولايات المتحدة الأمريكيـة ليست مجرد مشكلة نمو غير متوازن ، فهى مشكلة حضارية ، حيث لا يتوافر لهؤلاء القدر اللازم من الرعاية الثقافية والاجتماعية التى تسمح لهم بالانتماء حقيقـة الى المجتمع الذى يعيشـون فيه ، ومن ثم يسايرون التقـدم القائم فيـه • فوجودهم فى هذا المجتمع انما هو وجود مادى دون أى انتماء حقيقى • ومن ثم فان هذا التقدم المادى الرهيب لم يستطع أن يوفر لهؤلاء الفرصـة المناسبة لتنمية قدراتهم الذهنية وغيرها للمشاركة الحقيقيـة فى المجتمع الذى يعيشون فيه •

وليس الأمر متعلقا فقط بهذه الأقليـــات العنصرية بل ان الفرد العادى لا يستطيع الادعاء بانه إكثر حرية فى هذا المجتمع الحـــديث • فالصورة التى يتخذها التقدم المادى فى الولايات المتحدة الامريكية مثلا تقتصر على المزيد من الحصول على السلع الاستهلاكية المشـــكوك فى منفعتها الحقيقيه ، فى حين ان حاجات أساسية للفرد لا زالت بعيدة عن متناوله • فالخدمات الاساسيه لا زالت فى الولايات المتحدة الامريكية خدمات غاليـــة نسبيا بالمقـــارنة الى أهميتها : فالخدمات الصحية والتعليم الجامعى والعالى تستنفد جزءا باهظا من ميزانيه الفرد بالرغم من حيوية هده الخدمات لتنمية قـــدرات الفرد ذاته • ورغم الاهمية الهائله التى يحتلها العلم والبحث العلمى على ما سبق ان أشرنا اليه ،فان النظرة اليه تنحصر فى اعتباره وسيلة لتمكين المجتمع من استخـدام فنيين أكثر لمزيد من الانتاج • اما المعرفة باعتبارها حاجـة انســـانية ، وضرورة فردية لإثراء شخصية الفرد وتنميه ملكاته وذوقه فى التمتع بالحياة وفى الاسهام فيها ــ فهو امر غير وارد فى منطق المجتمع الصناعى الحديث بالشكل الذى تحدثنا عنه • ومن هنا نستطيع أن نفهم أن التسهيـــلات التى تعطى فى الجامعـــات ومراكز البحوث من منح دراسية واعانات وتمويل ، تقتصر غالبا على ما تظهر نتائجـه من السوق فى شكل انتاج أو ترغيب اكثر للأفراد على مزيد من الاستهلاك • وهذا ما يظهر الاختلال وعدم التناسب فى ميزانيـــات الفروع العلميـــة ذات الارتباط المباشر بالسوق والفروع العلمية البعيدة نسبيا عن اقتصاد الانتـــاج والاستهلاك • وقد انعكس هذا الاختلال على الفرد الحديث ، فهو ماديا عنصر متقدم جدا ويستطيع أن يدير وأن يحرك قوى رهيبة وبكفاءة كبيرة ، ولكنه انسانيا وأخلاقيا لا زال عنصرا متخلفا ، وتحركه نفس النوازع والرغبات التى نجدها عند القبائل البدائية ، فالتقدم الذى حققه الانسان فى الميدان المادى أكبر بكثير مما حققه فى الميدان الأخلاقى • فلم يحدث أى تغير يذكر فى وعى الفرد وفى دوافعه • وليس من الغريب أن تظهر فى هذا المجتمع مشاكل خطيرة مثل الجريمة • وهى ليست جريمة لأسباب اقتصادية ، وانما هى أشبه بالجريمة فى ذاتها : الجريمة المطلقة • وان ما يهز المجتمع الامريكى حاليا هو انتشار هـذا

النوع من الجرائم التى تعبر عن الاختلال الحقيقى فى ما بين التقدم المادى وبين تقدم الوعى الانسانى وهو ما لم تضف اليه حضارة الاستهلاك شيئا يذكر •

كذلك فانه من المخجل فى هذا العصر الذى بلغ فيه التقدم العلمى والفنى الى هذا المدى البعيد من السيطرة على القوى الطبيعية ، ومن القدرة على زيادة الانتاج وترشيده ـ أن نرى أكثر من ثلثى العالم يعيشون فى بؤس وعلى حافة الهلاك جوعا • ومن الأسباب التى ساعدت على ذلك ما تقتطعه ميزانيات التسليح • وفى الواقع فان النمو الهائل لصناعات التسليح يعبر بشكل كبير عن منطق « المجتمع الصناعى » ، فليس حقيقيا ولا مقنعا الآن أن التسليح فى هذه الدول يتم لابعاد خطر الحرب وضمان السلام • وليس حقيقيا ولا مقنعا أيضا أن هذه الميزانيات الضخمة للتسليح انما تحمى مصالح الدول. **ولكن صناعات التسليح من الصناعات الرائدة في التقدم التكنولوجي** • والتوسع فى هذه الصناعات انما هو انصياع طبيعى لمنطق المجتمع الصناعى : مزيد من الانتاج ومزيد من الاستهلاك • فأكثر الصناعات التى عرفت نموا هائلا سواء من ناحية حجم الانتاج أو من ناحية الاكتشافات والأخذ بأساليب جديدة فى الانتاج كانت هى الصناعات المرتبطة بالتسليح • ويصدق ذلك على الولايات المتحدة الامريكية كما يصدق على الاتحاد السوفياتى • ولذلك فان سباق التسلح ليس أمرا متعلقا فقط بالسياسة الدولية والتوازن الدولى بين القوى بل انه أمر داخلى فى طبيعة المجتمع الصناعى ذاته ولذلك فان الكاتب الامريكى Mills يخشى من طبقة الفنيين لسيطرة ما يسميه بالميتافيزيقا العسكرية Military metaphysics (١) على تفكيرهم بما لهذه الصناعات من تقدم تكنولوجى هائل ومن ثم جاذبية خاصة على هؤلاء الفنيين المرضى بزيادة الانتاج، أى انتاج ! ومن الطبيعى أن يترتب على هذا السلوك مشاكل ضخمة تهز الضمير الانسانى • فتظهر حرب فيتنام ويحارب الشباب الأمريكى حربا لا يعرف هدفا لها ، وتدخل قوات حلف وارسو تشيكوسلوفاكيا لحماية الحلف ، ضد من ؟

---

(١) C. Wright Mills, The Causes of World War Three, Simon & Schuster 1958, pp. 37-50.

وهكذا نجد أن المجتمع الصناعى الحديث قد طرح تســاؤلات عديدة وظهر وكأنه غير كاف وغير قادر على تحقيق حرية الفرد • ومن هنا ظهرت عناصر جـــديدة للقلق والاضطراب فى هــذه المجتمعات • **وقد كان الشباب والجامعات بوجه خاص مصدر هذه الحركات الجديدة** • ولذلك علينا أن نتساءل لماذا الشباب ولماذا الجامعات والمثقفون ؟

توافرت للشباب فى العصر الحديث عدة ظروف جعلته أكثر قدرة على التأثير على امور المجتمع الذى يعيش فيه ، وسيظهر اثر ذلك بشكل أوضح فى السنوات القادمة • فالتقدم فى العلوم وفى المواصلات مكنت الشـاب فى سن مبكرة من تحصيل قدر كبير جدا من المعلومات المنوعة والتى ما كان يستطيـع اكتسابها فى الماضى الا فى فترات اطول من ذلك بكثـير • وبالمثل فان مجتمع الرخاء قد رفع عن كاهل الشباب الاحساس بالمسئولية من ناحية الحصول على دخل فى المستقبل ، فالانتاج فى توســع مستمر وظروف الكسب موجــودة دائما ، وبذلك اتيح للشباب فرصة اكبر للتامل والتفكير فى المشاكل العـامة وعدم الاقتصار على مشاكله الخاصة • ولعل اهم ما ساعد الشـباب على بلورة دورهم فى تغيير المجتمعات التى يعيشون فيها هو فشل تجربة الكبار والناضجين فى توفير مجتمعات مقبولة • فالشباب دائما أكثر خيالا واكثر أقداما ، ولـكن تنقصـــــه الخبرة ، والخبرة لا تكتسب الا بالسن • ولـــكن ماذا فعلت الخبرة والتجربة ؟؟ كما يقول توفيق الحكيم فى حوار مع ابنه عن تلاقى الأجيال عن كيفية نقد الشباب لتوقير الآباء « جاءت الحروب والكوارث والمجاعات وفتحت أبواب جهنم الأرضية على صورة رهيبة ، وكان الشــــباب هو الحطب والوقود وأدرك أن كل ذلك وقع بتوجيه الجيل السابق • هنا بدأ يتساءل : وأين قيمة الخبرة اذن ؟ ان الشيوخ لا يستفيدون من أخطائهم عبر التاريخ »(١) •

واذا كنا قد رأينا أن سمة المجتمع الجـــديد هو « الانســـان ذو البعد

---

(١) مقال لتوفيق الحكيم عن تلاقى الأجيال نشر فى جريدة الأهرام فى ١٩٦٩/١٢/١٩ ، القاهرة •

الواحد » فان الشباب وبوجه خاص الطلبة يحتلون مركزا خاصـا في هذا المجتمع • فاذا كان الاتجاه الغالب في هذا المجتمع هو نحو مزيد من الاندماج والغاء جانب المنازعة والرفض الا ان الطلبة بحكم تكوينهم الثقـافي وبحكم المثالية التي تحكم سلكهم ، يكونون بعيـدين بعض الشيء عن هـذا الاتجاه الغالب •

ولذلك نجد الطلبة في جميع دول العالم يمثلون فئة مستقلة تكاد تقوم للمجتمع بوظيفة الضمير والحساب ، وهو أمر اصبح مستحيلا عنـد الطوائف الاخرى بالنظر الى المسئوليات التي يتحملونها ، وبالنظر الى الكسب المـادي المستمر الذي يحققونه في ظل هـذا المجتمع • وبعبـارة اخرى فان مجتمع الطلبة لا زال يمثل عنصر الطهارة ، وربما يمكن ان نقول العذرية في وسط مجتمع فقد عذريته واستراح الى جانب الكسب المادي والاندماج على حساب المنازعة والرفض • فالواقع ان الطلبة يوجدون خارج حلقة الانتـاج بالمعنى الضيق • ومن الواضح ان هذا النوع من الحيـاة يحفظ لهم استقـلالهم في مواجهة المجتمع ويمكنهم اكثر من غيرهم من مناقشـة المبـادىء التي يقوم عليها • ولذلك نجد الطلبة اكثر من غيرهم قدرة على الاحتفاظ بمسافة معينة من مجتمع الاستهلاك مما يمكنهم من مناقشة هذا المجتمع ، فهم غرباء عنه ، ولذلك فهم أكثر الطبقات ثورية • واذا كان ماركس قد حدثنـا عن ثورية طبقة البروليتاريا ، فينبغي أن نتذكر الأصل الذي جاء منه هذا الاصطلاح ،فهو يعني عنـد الرومان الاجانب عن المدينـة والذين لا يتمتعون تبعا لذلك بحق الملكية • وقد رأى ماركس أن العمال يعتبرون في الواقع خارجين عن المجتمع الرأسمالي لأنهم لا يتمتعون بحق الملكية • ولنا أن نتساءل اليوم عما اذا كانت هناك حاجة الى العودة الى المعنى الأصلي للبروليتاريا فهم الأجانب عن المدينـة ولو تمتعوا بحق الملكية • فالطلبة في الجامعات وهم أبناء الطبقات المستريحـة هم أكثر العناصر ثورية في المجتمعات المتقدمة ، فهم الغرباء عن هذا المجتمع •

والواقع أنه مما ساعد على الدور الذي يلعبه الطلبـة هو نشوء الوعي

الجماعي بينهم . فقد نشأ وعي طلابي يجمع بينهم ، ومما ساعد على دخولهم المسرح السياسي كما فعلت طبقة العمال عندما دخلت المسرح السياسي في القرن الماضي . وقد كانت الفكرة السائدة هي أن وجود الطلبة مع بعضهم البعض وجود عرضي ، كما يوجد عدد من الركاب في سيارة أتوبيس مثلا ، فلا يمكن ان نتحدث عن وعي جماعي بينهم ومن ثم عن عمل جماعي . ولكن الأحداث بينت وجود رابطة قوية بين الطلاب واكدت نشوء الوعي الطلابي . وهذا ما أظهرته أحداث الطلبة في مختلف دول العالم . ولم ينجح الطلبة في تكوين وعي جماعي وتحقيق التضامن فيما بينهم فحسب ، وانما وصلوا أو كادوا الى ما لم تصل اليه حركة العمال بعد ، وهو « الدولية » أو « الاممية » . فالتضامن بين الطلبة يمثل حركة مثالية تستهدف خير الانسان وتجاوز الحدود الاقليمية وساعد على ذلك ما سوف نشير اليه من دور الثقافة الحالية باعتبارها ثقافة عالمية تؤكد وحدة الفكر والمشاعر . ومن ثم فان الطلبة قد جاوزوا في كثير من الدول المشاكل الاقليمية الضيقة وظهرت حركات تضامن مع شعوب وقارات أخرى . وليست حركات التضامن مع شعب فلسطين أو فيتنام الا مظهرا من هذه الحركات . وغني عن البيان أن مصدرها الأساسي هو جمهور الطلبة . فالتضامن بين الطلبة حقيقي ، وهو يجاوز في كثير من الأحوال الحدود السياسية : « **يا طلبة العالم اتحدوا** » .

ومنازعة المجتمع الجديد لا تأتي فقط من جانب الطلبة والشباب ، ولكن يساهم فيها **جهور المثقفين والجامعة بوجه خاص**. واذا كنا قد رأينا أن المجتمع الجديد يقوم في الواقع على أعناق الفنيين وتغلب عليه قيم هؤلاء ، الا أنهم من ناحية أخرى وبخاصة ذلك النوع ذو الثقافة المتنوعة والخيال الواسع هم أنفسهم الذين سيقومون بمناقشة قيم هذا المجتمع . وقد سبق أن أشرنا الى الأهمية المتزايدة التي تمثلها الجامعة ومراكز البحوث في المجتمع الجديد . ولكن الجامعة ليست فقط مجرد مكان لتطوير وسائل جديدة للانتاج ، الجامعة لا زالت تقوم على المعرفة والعلم في سبيل اسعاد الانسان والرقي به . ولعل الميزة الأساسية التي مكنت الجامعة من القيام بالبحث والتقدم العلمي هو تلك

القـــدرة على النقد والمحـــاولة المستمرة لمجاوزة الحـاضر • فليس فى العلم مسلمات : كل شيء قابل للنقاش ، وحقيقة اليوم لم تكن معروفة بالأمس بل وربما كان الاعتقاد سائد بعكسها ، بل وحقيقة اليوم قد تصبح غدا نظريةقاصرة أو غير صحيحة • ولذلك فان أهم كسب حققه العلم والبحث العلمي هو تلك القدرة المستمرة على الرفض والنقد ، فليس هنـاك ما يرتفع على المناقشـــة • وبهذه العقلية الجدلية فان الجامعة التى ساهمت أكبر المساهمة فى تدعيمالمجتمع الصناعى الجديد ستكون أحد المراكز الأساسية لمناقشة الكثير من المبادىء والقيم التى نشأت عنها والتى أثرت على حرية الفرد •

كذلك فان الاختلال الواضح بين التقدم فى الميـــدان التكنولوجى وبين الركود أو التقدم البطىء فى ميدان القيم والـــوعى كان له أثره على الجامعة ومراكز البحوث • فقد أدى تزايد الاهتمـــام بالدراســـات والبحـوث ذات التطبيقات الصناعية أن ظهر مدى النقص فى الدراسات والأبحاث الانسـانية والكلاسيكية مثل الآداب والفنون والكثير من العلوم الانسانية • هـذا النقص والقصور بدأ يثير مخاوف المثقفين والعلماء أنفسهم • ومن هنا بدأت تظهر فى الجامعات اتجاهات لمقاومة هذا التركيز على الميادين « العلمية » ومحاولة ايجاد نوع من التوازن بينها وبين الميادين الفنية والكلاسيكية من أجل خلق انسان أكثر تكافؤا وتوازنا من حيث المستوى المادى والمعنـــوى فى نفس الـوقت • وساعد على ذلك أن الكثيرين من العلماء فى الميادين ذات التطبيقات الصناعيـة المتقدمة بدأوا يشعرون أنفسهم بعدم جدوى هذا النوع من التقدم المادى اذا لم يكن مصحوبا بتقدم مماثل فى ميدان الوعى والفكر الانسانى • ولـــذلك فان ظاهرة تحول العلميين الى الدراسات الانسانية ليست بالقليلة فى الوقت الحالى• فكثير من علماء الطبيعة والرياضة وغيرهم نجـــدهم يتحـــولون الى الاهتمام بالدراسات الانسانية والفلسفية مثل علم الاجتماع والفلسفة وغير ذلك •

والتنظيم السياسى ؟

قد يبدو غريبا فى مقال عن « التنظيم السياسى فى المجتمـع التكنولوجى

الحديث » أن يتأخر الحديث عن هذا التنظيم السياسى حتى قارب البحث نهايته• ولكن هذه الغرابة تزول اذا أدركنا أنه ليس من الممكن الحـــديث عن شكل التنظيم السياسى على نحو مفصل ، فذلك أمر سيظل بالضرورة مختلفا من دولة الى أخرى • فالاتحاد الســـوفياتى يقترب من المجتمع التكنولوجى الحـديث ونظامه السياسى يعتمد على نظام الحزب الواحد ، فى حين أن الولايات المتحدة الامريكية دخلت هذا المجتمع ونظامها السياسى يعتمـــد على حرية الأحزاب وشكل من أشكال الديمقراطية النيابية • وهذا النوع من الخلافات والفروق سيظل قائما لأنه يتوقف على عدد هائل من الاعتبارات التاريخية والنفسية لكل شعب من الشعوب •

ولذلك فاننا اذا تحدثنا عن التنظيم الســـياسى فى المجتمع التكنـولوجى الحديث انما سنشير الى نوع من التماثل فى المشـــاكل التى ستعـرض والتى يتعين على السلطة السياسية أن تواجهها فى جميع الأحيان • وكذلك سنشير الى التماثل فى الحلول التى تقدم لهذه المشاكل • أما ما عـدا ذلك فان النظم السياسية للـــدول ستظل متفاوتة ما ظـــل الانقســـام بينها الى دول سياسية مستقلة •

اذا كان علم السياسة هو العلم الذى يدرس « السلطـــة » فان المجتمع التكنولوجى الحديث من شأنه أن يحدث بعض التغييرات فى أشخاص القائمين على السلطة وفى مدى هذه السلطة ، وفى نوع المشاكل التى تتعين مواجهتها • وفى هذا فقط يتم التلاقى بين الحقائق الاقتصادية فى ظهـور المجتمع الصناعى الحديث وبين الحقائق الاقتصادية فى ظهور المجتمع الصناعى الحـــديث وبـين الحقائق السياسية فى كيفية مباشرة السلطة(١) •

ولعل أول ملاحظة على التنظيم السياسى فى المجتمع التكنولوجى الحديث

---

(١) أنظر فى العلاقة بين الاقتصاد والسياسة
B. Chenot, Organisation Economique de l'Etat, Daloz, France, pp. 1-21.

هو زيادة أهمية عنصر الفنيين فى أشخاص القائمين على مباشرة السلطة • وقد سبق أن أوضحنا دور هؤلاء بتفصيل • وأيا ما كان الشكل الخارجى للقائمين على السلطة ، حزب واحد حاكم كما فى الدول الاشتراكية أو أحزاب متعددة وحكومة نيابية ـ فان سيطرة الفنيين الحقيقيــة على قرارات السلطــة لا بد أن تتزايد • ولذلك نجــد أن أهميــة المجالس الاستشــارية : مثل المجالس الاقتصادية والمجالس الفنية المتخصصة ستتضح بالضرورة • وســواء وجدت هذه المجالس الى جانب المجالس النيابية فى الدول الديمقراطية أو الى جانب الحزب الواحد فى الحكومات الشيوعية • وبالمثل فان الأجهزة الفنية الموجـودة الى جانب مراكز السلطة ستزيد أهميتها ودورها •

وفى كتاب حديث لروجيه جارودى

Le Grand Tournant du Socialisme (١)

يرى هذا الكاتب الماركسى الفرنسى أن الاتحــاد السوفيـاتى تديره مجموعة بيروقراطية عسكرية لا تختلف فى جوهرها عن المجموعة الصناعية العسكرية التى تدير الولايات المتحدة الامريكية • وأهمية هــذه الملاحظـة القائمة على التشابه فى أشخاص القائمين على السلطة فى الدولة الحديثة ســواء فى دولة اشتراكية أو فى دولة رأسمالية ـ لا تكمن فى جدية الملاحظة ذاتها ، ولكن فى صدورها من روجيه جارودى ، وهو يعد أكبر المفكرين الشيوعيين الفرنسيين وعضو اللجنة المركزية والمكتب السياسى للحزب الشــيوعى الفرنسى • وهو أمر لا دلالته ، حيث أن أغلب الماركسيين يرفضون فكرة التمــاثل بين تطور المجتمعات الحديثة الاشتراكية والمجتمعات الحديثة الرأسمالية ويرون أن كـل محاولة للتقريب انما تقصد صرف الجهود عن مقاومة النظام الرأسمالى •

كذلك فان من أهم المشاكل الأساســية التى ينبغى على المجتمع الجديد مواجهتها **مشكلة الحرية** • ولا نقصد بذلك مجرد الحرية السياسية القائمة على

---

(٢) Roger Garaudy. Le Grand Tournant du Socialisme, Collection Idée, Gallimard, Paris 1970.

مشاركة جميع المواطنين فى اختيار حكامهم عن طريق الانتخابات والأحزاب كما فى الدول الغربية ، أو عن طريق العمل داخل الحـــزب الواحد كما فى الدول الاشتراكية • وان كانت الظروف قد تدعو الى قيام هذه المشاكل وخاصة فيما يتعلق بالـــدول الاشتراكيـــة • وربما يكون التطور الذى حـدث فى تشيكوسلوفاكيا والمعروف بحركة يناير ١٩٦٨ وربيع هـــذه السنة الذى لم يستطع الاستمرار طويلا نظرا الى تدخل قوات حلف واســـو ـ ربما تكون مقدمة لتطورات مماثلـــة فى الاتحاد الســـوفياتى وفى الدول الاشتراكيـة الأخرى • (ولعـــل ما أدى الى فشل هـــذه الحركـــة هو انها ظهرت فى تشيكوسلوفاكيا باعتبارها أكثر تقدما من الناحية الصناعية ، ولكنها تمثل مرحلة متقدمة بالنسبة للمعسكر الاشتراكى فى مجموعه ولذلك فقد وقفت أمامها قوى ذلك المعسكر) • ولكن ذلك لا يمنع من ظهور اتجـــاهات مماثلة متى بلـغ المعسكر الاشتراكى فى مجموعه وبخاصة الاتحاد السوفياتى تلك الدرجة من التطور •

كذلك لا نقصد بمشكلة الحريةفى المجتمع الصناعىالجديد مجرد الحرية الاقتصادية القائمة على ضرورة توفير ضروريات الحياة الأساسية لجميع الأفراد حتى لا تظل حرياتهم السياسية مجرد حقوق نظرية مجردة من كل مضمون حقيقى فالمجتمع الصناعى الحديث يتمكن فى الواقع بصفة عامة واستثناء بعض جيوب الفقر ـ من توفير هذه الحريات الاقتصادية •

ولكن مشكلة الحرية التى ستعرض أمام المجتمـــع الصناعى الجـــديد ستتضمن حرية الفرد من تسلط المؤسسات ووسائل التكنولوجيا الحديثة على العناصر المكونة لارادته • ومن المحتمـــل أن يكون حـــق الفرد فى الاعـــلام ـ بما يتضمنه من ضرورة توفير اعـــلام موضوعى وأمين على قـدر الامكان والضمانات التى تكفل تحقيق ارادة الفرد خالصة من كل تأثير اعلامى موجه ـ من أهم المشاكل التى تثيرها مناقشات الحرية •

ويرتبط بتطور مشكلة الحرية على النحو المتقدم تغيير فى طبيعة المنازعين

والمعارضين للسلطة • فهؤلاء ليسوا من عناصر البرجوازية التى تطالب بالحرية السياسية والاطاحة بامتيازات الاقطاع السياسية كما حدث عندما قامت الثورة الفرنسية • كما أنهم ليسوا من عناصر الطبقة العاملة التى تطالب بالحرية الاقتصادية والغاء امتيازات البرجوازية الاقتصادية كما حاولت الثورات الاشتراكية • **ولكنهم سيكونون غالبا من عناصر الشباب والمثقفين الراغبين فى توفير حرية الفرد النفسية والثقافية •**

وأخيرا فان التنظيم السياسى سيتأثر بالضرورة بما يؤدى اليه تطور المجتمعات الصناعية من تغيير فى مفهوم الدولة السياسى ذاته • فالاستقلال السياسى وسيادة الدولة كانا تعبيرا عن أوضاع العلاقات الاقتصادية الدولية• وقد أدى تطور المجتمع الصناعى الحديث الى تغيير فى شكل العلاقات الدولية مماثل للتغيير الذى تم داخل الدولة ، والى مزيد من الترابط مع وجود مراكز أكثر فاعلية فى التأثير على الأوضاع الاقتصادية العالمية ، وقد أدى ذلك الى وجود اقتصاد عالمى وليس مجرد علاقات اقتصادية بين الدول • ومن ثم فان التنسيق والتعاون الدولى يعتبر السمة الأساسية للعلاقات بين الدول ، وما زالت فكرة السيادة تتقلص باستمرار • ومع استقرار الاقتصاد العالمى الدولى ، فان التنظيمات السياسية فى الدول المختلفة ستزداد تقاربا من ناحية ، وتحررا فى مواجهة الأفراد من ناحية أخرى •

وكما ذكرنا فى مقدمة هذا المقال ـ أن موضوع التنظيم السياسى فى المجتمع التكنولوجى الحديث ، موضوع واسع جدا ومتشعب بدرجة يصعب معها الاحاطة به من جانب متخصص واحد • **وقد لا تكون وجهة نظر اقتصادى فى هذا الموضوع عبثا كاملا !**

مجتمع الاستهلاك

ثورة الطلبة فى فرنسا (مايو ١٩٦٨)

تمهيـــــد :

ليس فى نيتى ولا فى مقدورى أن أكتب « بحثا » عن أحداث مايو ٦٨، فى فرنسا ، فهذا عمل سيقوم به ولا شك عـــدد من المتخصصـــين فى هذه الموضوعات • ولا أستطيع أن أدعى لنفسى الماما خاصا بهذه المسائل ، شانما أنا اقتصادى « فحسب » وذلك بالقدر الذى يستطيع أن يكون الانسان أى شيء•• « فحسب » • ورغم أنى أقوم بتدريس « الاقتصاد » فى الجامعة ، فان ما أود أن أكتبه هنا بعيد كل البعد عن مهمة الأستاذ• أريد أن أسجل **انطباعات شخصية** أثناء وجودى بمحض الصدفة فى باريس للتدريس فى نفس الفترة التى قامت فيها أحداث مايو • وبالطبع فانه من المستحيل على الانسان ألا يتفاعل مع هذه الأحداث ، وألا يكون انطباعا خاصا عنها وانلم يكن بالضرورة من المتخصصين فى هذه المسائل •

وقد لا يكون فى هذه النظرة « الشخصية » شر بحت ، بل قد ينتج عنها بعض الخير • فالمتخصصون فى فرع من الفروع لا يلبثون أن يكونوا مجموعة من المفاهيم وأدوات التحليل التى لا شك أنها تضمن ســـلامة الفكر وضبطه وتتفق مع طبيعة الظاهرة محل البحث • ولكن ذلك لا يحول من ناحية أخرى دون أن تصبح هذه المفاهيم وأدوات التحليل قيدا على الفكـــر • ومن الأمثلة الحديثة فى علم الاقتصاد ما نجده عند كينز الاقتصـادى الانجليزى • فانه لم يكن ولا شك أكثر المرتبطين بأدوات التحليل التى فرضتها مدرسة كامبردج ، وعلى العكس فان بيجو فى ذلك الوقت كان الحجة فى هذه المسائل • ولعل هذا

---

* نشرت هذه الدراسة كملحق « للأهرام الاقتصادى » ، فى ١٥ أكتوبر ١٩٦٨ •

التحرر النسبى هو الذى جعل كينز وليس بيجو هو الأقـدر على تحليـل الظواهر الاقتصادية الحديثة • ومن هنا كانت الثورة الكينزية فى الاقتصاد •

كذلك لا نستطيع أن ننسى أن العلوم الاجتماعية لم تستطع حتى الآن أن تتخلص من شوائب المذهبية • فوراء كل مفهـوم علمى ووراء كـل أدوات التحليل يمكن أن نجد بعض القيم الأخلاقية المذهبية • فاذا كان الاقتصـاد السياسى يقوم على اتخاذ نموذج « المنافسة الكاملة » كاطار للتحليل ، و «باعث الربح » كدافع للنشاط الاقتصادى ، فان ذلك يرتبط بصورة أو بأخرى بنوع من التفضيل المذهبى • ولذلك فلا عجب أن نجد أنجلز يقول بأن « الثورات تختفى وراء الأساتذة ووراء عباراتهم العلمية » • وبطبيعة الحـال لن نعدم من ناحية أخرى أحد المفكرين الذين يأخذون على دراسة التاريخ فى « الدول الثورية » أنها تبالغ فى « حدة الصراع الطبقى » على مدى التاريخ • وبعبارة أخرى فان النظام السياسى الذى يستقر يغلب فى الواقع أحـد المذاهب حتى نكاد نكون بصدد مذهب رسمى وسواء أكان صريحا أو ضمنيا ، وفى ضـوء هذا المذهب الرسمى تتحدد النظرة لأغلب أحداث التاريخ • فما حـدث فى فرنسا فى مايو ١٩٦٨ سيكون تاريخا مختلفا اذا نجحت هـذه الأحداث فى قلب نظام الحكم •

وبالمثل فان من العبارات الشائعة ـ والتى لا تخلو من الصدق ـ أنه ينبغى مرور بعض الوقت قبل كتابة التاريخ • ولكن هذا لا يصدق الا على من يكتب التاريخ • أما نحن فليس لنا أدنى ادعاء على كتابة التاريخ فهذه مهمة شاقة لها رجالها • وكل ما نريده هو أن نسجل انطباعنا الشخصى عن أحداث نعتقـد أنها على قدر كبير من الأهمية فى العصر الذى نعيشه •

انه من الأمور الأوليـة التى يرددها الباحثـون دائما : ان الظـواهر الاجتماعية ظواهر معقدة لا يمكن تفسيرها بسبب أو أسباب محددة ، وانماهى تفاعل بين عدد هائل من العوامل التاريخية والنفسية والاقتصـادية • وهـذه البداهة هى التى تحكم فى الـواقع أحداث مايو ١٩٦٨ فى فرنسـا • ومن الشعارات الطريفة التى رفعت أثناء الأحداث على جدران السربون ، الشـعار

الآتى : « الثورة البرجوازية ثورة قانونيــة ، والثورة البروليتارية ثورة اقتصادية ، أما ثورتنا فهى ثورة ثقافية نفسية » • والصحيح أن ثورة الطلبة هي كل ذلك مجتمعا ولكن الجديد هو أن الاعتبارات الثقافية والنفسية بدأت تحتل مكانا هاما بين هذه العوامل •

١ ـ بداية الأحداث :

ولكن ينبغى ألا نستبق الحوادث • ماذا حدث ؟ •• فى ٢٦ يناير سنة ١٩٦٨ قامت مجموعة من طلبة كلية الآداب في جامعة نانتير بمظاهرة صغيرة•• حوالى أربعين طالبا من الفوضويين يحملون بعض اللافتات العدائية ضد البوليس • وأدى ذلك الى بعض الاحتكاك مع فراشى الكلية مما أدى الى استدعاء البوليس لفض هذه الاحتكاكات • فماذا حدث ؟ تجمع الطلبة لمقاومة البوليس ، آلاف الطلبة هذه المرة وليسوا أربعين فقط : ومن يومها وقد بدأت حركة نانتير ولم تنته والتى عرفت فيما بعد بحركة ٢٢ مارس ، نظرا الى أنها في ذلك اليوم اتخذت شكلا تنظيميا وحيث تكونت لجنة « ٢٢ مارس » من الطلبة لمقاومة القهر •

وفى ٣ مايو اجتمعت مجموعة أخرى من الطلبــة فى فنــاء السربون مجموعة صغيرة من مائتى طالب فى كلية بها عدة عشرات من الآلاف • وهـذه المجموعة جمعت عددا من مؤيدى أقصى اليسار للاحتجاج على نشاط مجموعة أخرى معروفة باسم « الغرب » من أقصى اليمين بدأت تفرض نوعا من الضغط على بعض الصحف • استدعى مدير الجامعة « روش » البوليس لتفريق المجتمعين فى فناء السربون خشية وقوع ما لا تحمد عقباه بين مجموعة أقصى اليسار ومجموعة أقصى اليمين • ولكن البوليس لم يجد أمامه مئات بل عشرات الآلاف من الطلبة ، جميع طلبة السربون •

هذه هى الأحداث التى أطلقت حركة الطلبة ليخرجوا فى أخطر حركة هزت فرنسا بعد ثورة ١٨٤٨ • ومن الواضح أن ما حدث لا يكفى لتفسير هذه الحركة الهائلة • فالجامعات الفرنسية ـ رغم كل ما يقال عنها ـ تضمنت دائما

اتجاهات يسارية وفوضوية • وفى كل وقت كانت هناك مجموعات يســارية ترفض النظام القائم • ولكن هذا لم يؤد اطلاقا الى قيام حركات طلابية مماثلة! كذلك ـ رغم كل ما يقال عن الحرية فى فرنسا ـ فان بهـا قدرا يسمح دائما بحمل اللافتات العدائية ضد البوليس وضد السلطة !

ان حوادث يناير ومارس فى نانتير واستدعاء البوليس فى السربون فى ٣ مايو لم يكن أكثر من المناسبة التى قامت من أجلها الحركة ، أو الشرارة التى أشعلت النار كما يحلو للكتاب أن يقولوا دائما فى مثل هذه المناسبات •ولذلك ينبغى أن نبحث عن أسباب أكثر عمقا لما حدث حتى نستطيع أن نكون صورة صادقة ـ اذا كان ذلك ممكنا •

٢ ـ دور طلبة الفلسفة والاجتماع :

ونلاحظ أولا : أن حركة الطلبة بدأت على وجه الخصوص فى أقسام الاجتماع والفلسفة وعلم النفس فى كليات الآداب ومنها انتقلت الى بقية الطلبة فى الفروع الأخرى ثم فى الكليات الأخرى • وهذه الملاحظة الأولية على قدر من الأهمية لأنها تنبىء عن بعض الأسباب الدفينة لحركة الطلبة • فهذه الاقسام أقرب الى الاحساس بالمشاكل الجديدة ووعيها • وتدور هـذه المشاكل حول المجتمع الجديد ، أو ما اصطلح على تسميته « بمجتمع الاستهلاك » • وسوف نرى أن أغلب الانتقادات كانت فى الـواقع موجهـة الى هـذا المجتمع وان استخدمت فى هذا الصدد اصطلاحات أخرى معروفة مثـل « الرأسمـالية » و « المجتمع الرأسمالى » •

والانتقادات الموجهة الى « المجتمع الاستهلاكى » متناقضـة فى الواقع ، ولكن ذلك لم يمنع من استخدامها دائما • ويمكن أن نقول بصفة عامة أنهذه الانتقادات تدور حول محورين أساسيين : المحور الأول هو أن التعليم والجامعة بصفة خاصة لا تعطى التكوين اللازم لحاجات هذا المجتمع • فالجامعة لا زالت متخلفة عن حاجات المجتمع الجديد • ومن الواضح أن هذه نظرة «اصلاحية» تريد تطوير الجامعة بما يلائم حاجات المجتمع •أما المحور الثانى فهو على خلاف

ذلك تماما ، ويرى أن المشكلة ليست في تطوير الجامعة بما يلائم حاجات المجتمع الاستهلاكي ، وانما على العكس أننا نريد أن نغير من هذا المجتمع ولا نريد أن تصبح أدوات في يد هذا النظام ، وهنا بالطبع يطلق على هذا المجتمع اسم « المجتمع الرأسمالي » • فالطلبة لا يريدون أن يكونوا مجرد فنيين يعملون في خدمة المجتمع القائم • ومن الواضح أن هذه نظرة « ثورية » تجاوز اصلاح الجامعة الى ضرورة تغيير المجتمع وتناقش المبادىء التي يقوم عليها هذا المجتمع • وغني عن البيان أن المحورين المتقدمين متناقضان تماما ، فوفقا للمحور الأول المشكلة تكمن في أن الجامعة لا زالت دون حاجات المجتمع ، في حين أنه وفقا للمحور الثاني ، تكمن المشكلة فيما وراء هذه الجامعة ورفض الخضوع لهذا المجتمع وتحويل الجامعة الى مجرد أداة في يد مجتمع ظالم •• الجامعة « أقل ما ينبغي » ، « وأكثر مما ينبغي » وأيضا • وهذا التناقض لم يمنع من أن يرفع الطلبة هذه المطالب في الوقت نفسه مما ترتب عليه بعض الصعوبة في متابعة الحركة وفهم أسبابها •

وقبل أن نستطرد في هذا الموضوع قد يكون من المستحسن أن نقف لحظة عند مشاكل طلبة : أقسام الاجتماع والفلسفة وعلم النفس • نظرا الى أن المشاكل الخاصة لهؤلاء الطلبة ساعدت على بلورة الأفكار ، وكانت على أي الأحوال الشرارة التي أطلقت الثورة • أن الدراسة في هذه الأقسام ــ رغم أن بعضها حديث كما هو الحال بالنسبة الى الاجتماع ــ لم تلاحظ حاجات المجتمع مما أدى الى خلق مشاكل حقيقية للخريجين وعلى وجه الخصوص فيما يتعلق بفرص العمل بعد الجامعة • فالدراسة في هذه الأقسام لم تأخذ بالتخصص الضيق ومحاولة البحث عن قواعد السلوك لمجموعات صغيرة ، كما هو الحال في مثل هذه الدراسات في الولايات المتحدة الامريكية ، وانما تميل هذه الدراسة الى البحث عن القوانين العامة التي تحكم تطور المجتمعات « الاجمالية » والبحث عن القوانين التاريخية بالمعنى الواسع • فهذه الدراسات لا زالت في فرنسا متأثرة بالنظريات الفلسفية الشاملة وذلك بعكس النظرات الوضعية ونظريات السلوك التي تهتم بجوانب محددة من النشاط •

وقد ترتب على ذلك أن الخريجين أصبحوا يواجهون صعوبة من حيث العمل الذى يتطلب دائما التخصص الضيق فى فرع معين من النشاط • ومن هنا نستطيع أن نفهم الوجه الأول من الانتقادات الموجهة لنظام التعليم فى الجامعة ، فهى لا تعطى التكوين اللازم لمواجهة الاحتياجات العملية من تخصص دقيق فى ناحية معينة مع ما يتطلبه ذلك من استخدام أساليب وأدوات تحليل مناسبة لنشاط معين بالذات •

ولكن من ناحية أخرى نستطيع أن ندرك بسهولة أن الدراسة الشاملة للمجتمعات بصفة عامة والبحث عن « القوانين العامة » التى تحكم تطورها تعطى صاحبها قدرة أكبر على مناقشة هذا المجتمع الذى يعيش فيه وتمكنه من أن يرفض الكثير من المبادىء التى يقوم عليها • وبعبارة أخرى فان الدراسة التى يحصل عليها الطالب فى هذه الفروع وان لم تعطيه التكوين الفنى اللازم للقيام بعمل محدد فى نشاط معين بالذات الا أنها تعطيه القدرة على ادراك العلاقات المختلفة فى المجتمع وعلاقة هذا النشاط المحدد ببقية قطاعات المجتمع والأهداف التى يتوخاها المجتمع فى مجموعه • ولذلك فانه يكون أقدر على ادراك هذه العلاقات العامة ومناقشتها ومن ثم رفض العمل فى خدمتها متى تبين أنها تقوم على أسس لا تتفق مع مبادئه السياسية أو قيمه الأخلاقية •

ان طالب الاجتماع الذى يدرس النظريات الاجتماعية الاجمالية لأوجست كونت ومنتسيكو وماركس وديركايم يجد صعوبة فى العمل فى ادارة للتسويق فى شركة كبرى لأنه غير مزود تماما بالدراسات الفنية للقيام بأبحاث عن أذواق المستهلك وتطورها ، ومن هنا يمكن أن يشعر بالقصور فى تكوينه المهنى وربما يشعر بنوع من النقص فى مواجهة زميله الامريكى • ولكنه من ناحية أخرى يجد نفسه أقدر على ادراك ما تباشره الدعاية والاعلام من تأثير على حرية الفرد واخضاعه لسلطة عدد قليل من المشروعات التى لا تهدف الا الى تحقيق أهدافها الخاصة دون اهتمام بتنمية أذواق المستهلك والارتفاع بمستواه الثقافى • ومن هنا يمكن أن يشعر بالثورة والتمزق للعمل

من أجل هذا المجتمع الذى يرفضه • وهكذا نستطيع أن نفهم رد الفعل المزدوج والمتناقض لدى الطلبة من حيث أن الجامعة غير متلائمة مع حاجات المجتمع ومن ثم الرغبة فى « الاصلاح » ، ومن حيث أن هذا المجتمع ظالم ومن ثم رفض اخضاع الجامعة للمجتمع وضرورة « الثورة » لتغيير هذا المجتمع •

كذلك نستطيع فى ضوء ما تقدم أن نفهم اختلاف ردود الفعل بين الطلبة فى بعض الكليات • فطلبة القانون والاقتصاد كانوا بصفة عامة أقل « ثورية » من طلبة الآداب ، وكذلك فان طلبة الطب لم يكونوا « بالثورية » التى عرفها طلبة العلوم • وبطبيعة الأحوال فان هناك أسبابا عديدة ، منها مثلا ما هو معروف من أن التراث الفكرى فى فرنسا لكليات الآداب كان دائما معقل اليسار ، وذلك بعكس كليات الحقوق (ويدرس بها الاقتصاد) حيث أنها كانت دائما من الكليات المحافظة ومعقل اليمين ، ويظهر ذلك دائما فى انتخابات اتحادات الطلبة • ويفسر ذلك عادة بأن طلبة القانون والاقتصاد يمثلون دائما السلطة فهم أبناء رجال الحكم • ولكن هذا بعض التفسير وليس كله • وفى نظرنا أن أحد أسباب اختلاف سلوك طلبة كليات الحقوق يرجع الى أن هذه الكليات منذ سنة ١٩٥٤ فى حالة تعديل مستمر من حيث البرامج مما جعلها فى الوقت الحاضر أكثر ملاءمة لظروف المجتمع من كليات الآداب • فخريج كليات الحقوق فى فرنسا لا يواجه نفس المشاكل الخاصة بالعمل التى يواجهها خريج الآداب ، ونجد ذلك بصفة خاصة فى أقسام الاقتصاد وحيث يزود الطالب بتخصص ضيق واهتمام أكبر بأدوات التحليل مثل الاحصاء والرياضة والاقتصاد القياسى الى جانب النظريات العامة الاجمالية •

٣ ـ مجتمع الاستهلاك :

وقبل أن نتناول بالتفصيل المآخذ التى يأخذها الطلبة على النظام القائم ، فانه قد يكون من المفيد أن نقف لحظة عندما يسمى « بمجتمع الاستهلاك » ، لأننا سنضطر الى الاشارة اليه كثيرا بصدد تفسير حركة الطلبة • ونعتذر

مقدما عن الاطالة نسبيا فى هذا الموضوع ، ولكننا نعتقد أن ذلك ضرورى لفهم حركات الطلبة فى الدول المتقدمة .

الواقع أن هناك تقليدا متبعا يقوم على دراسة المجتمعات وتطويرها من حيث وسائل الانتاج بحسب شكل الملكية . وقد استقر هذا التقليد منذ ماركس بحيث تكون الرأسمالية مرحلة من مراحل التطور ، والاشتراكية مرحلة أخرى ، وأهم ما يميز بينهما هو تحول ملكية وسائل الانتاج من الملكية الفردية الى الملكية العامة ، ولا شك أن هذا التحليل ينطوى على قدر كبير من الصحة ، وأهم من ذلك أنه يباشر تأثيرا سياسيا ومذهبيا هاما فى العصر الذى نعيش فيه . ومع ذلك فقد بدأت عدة محاولات أخرى تحاول أن توجه العناية الى خصائص المجتمعات الحديثة لا من حيث شكل الملكية ، ولكن من حيث أسلوب ادارتها والمبادىء التى يخضع لها سير الاقتصاد الحديث . فقد لاحظ عدد من المفكرين أن هناك تشابها كبيرا بين أساليب ادارة المشروعات الاقتصادية فى الدول المختلفة ، وأن هناك منطقا متماثلا يحكم سيرها وبصرف النظر عن شكل الملكية . وقد كان من أوائل من وجهوا النظر الى هذه الظاهرة الامريكى برنهام فى كتابه « ثورة المديرين » . وقد كان برنهام ماركسيا من الجناح اليسارى (تروتسكى) ـ وشأنه شأن عدد كبير من المثقفين اليساريين الذين راعهم تحالف الاتحاد السوفييتى مع ألمانيا النازية قبل الحرب العالمية الثانية مباشرة ـ ولذلك فقد استخدم التحليل الماركسى فى الوصول الى نتيجة مختلفة يمكن عن طريقها تفسير ما حدث سنة ١٩٣٨ . وهو يرى ، وفقا للمنهج الماركسى « أن الصراع بين الطبقات » هو الذى يحكم التاريخ ، ولكنه يرى أن نتيجة صراع العمال مع الرأسماليين لا تنتهى فى صالح الطبقة العاملة وانما فى صالح فئة جديدة تفيد من هذا الصراع هى فئة المديرين وبصفة عامة جميع الفنيين . وليس فى هذا ، فى نظر برنهام ، ما يزعج ، ففى النظرية الماركسية ما يؤكد ذلك ، فالاقطاع وفيه صراع بين طبقة الاقطاعيين وطبقة مهضومة هى فلاحو الأرض ، نجد أن هذا الصراع يحل لصالح طبقة جديدة هى « البورجوازية » . وبناء على هذا التحليل فان

برنهام وجد مخرجا ، في نظره ، للتناقض الشـديد فيما يتعلق « بتحالف » دولة « يسارية » مثل الاتحـاد السوفييتى مع دولة « فاشية » مثل ألمـانيا النازية • فعنده أن الدولتين سيطرت فيهما طبقة المديرين والفنيين على الحكم ومن ثم فان من السهل أن يتقاربا • وقد تعرضت أفكار برنهام لانتقادات كثيرة وخاصة وأن كتابه قد ظهر أثناء الحرب وفى فترة كانت فيها ألمـانيا النـازية تحقق انتصارات عسكرية فى أغلب الميـادين ، مما طبع الـكتاب بالتشاؤم الشديد وبكثير من التنبؤات التى ثبت عـدم صحتها فيما بعد • وبالرغم من الانتقادات التى وجهت الى أفكار برنهام ، الا أن شيئا منها مع ذلك ظل محلا للاهتمام ، وهو بيان دور الفنيين فى الحياة الاقتصـادية وتأثيرهم المتزايد فى المجتمعات الحديثة • وهذا ما دعا عـددا من المفكرين مثل ريمون آرون فى فرنسا ، ثم جالبرت فى أمريكا ، الى الحـديث عن « المجتمع الصناعى » أو « الدولة الصناعية » • فعنـد هؤلاء أن التطور الفنى أصبح من الضـخامة والأهمية بحيث أصبحت الدولة الحديثة مكونة من عدد محدود من المشروعات الصناعية الضخمة التى تسيطر على الاقتصاد فى مجموعه • وقد أدى هـذا التطور أيضا الى تعقيد ادارة هذه المشروعات بحيث أصبحت تتطلب دراية فنية متخصصة جدا ولم يعد « المنظم » العادى قادرا على ادارة هـذه المشروعات • وبذلك حدث نوع من الانفصـال بين الملكية وبين الادارة وبحيث أصبحت الادارة الفنية المتخصصة هى المسيطرة الحقيقيـة على أهم المشروعات • واذا نظرنا الى هذه الادارة فاننـا نجد أنها تتبع سلوكا يكاد يكون متشـابها فى المشروعات المملوكة ملكية خاصـة وفى المشروعات المملوكة ملكيـة عامة • وسوف نشير فيما بعد الى أن العمال فى مصـانع رينو وهى مؤممة ، لم يكن سلوكهم أقل صلابة من العمال فى المشروعات الخاصة الأخرى ، بل لعـل العكس هو الصحيح كما سنرى •

نقول ان « الادارة » تكاد تتبع السلوك نفسه بصرف النظر عن شـكل الملكية • فأهم ما يميز المشروعات الحـديثة هو « الحساب الاقتصـادى » أو « الرشادة الاقتصادية » • فهذه المشروعات تضع سياستها بحيث تحقق هـدفا

اقتصاديا محددا • وبعبارة أخرى أكثر علما ، كما جرت العادة الآن فى الاقتصاد الحديث وادارة الأعمال ، تضع هذه الادارة برنامجا يحاول تحقيق هدف معين (أقصى أو أدنى قيمة لهدف أو لأهداف محددة) فى ظل عدد من القيود • ويرتبط بهذه المسألة ضرورة ادخال الزمن فى الحساب ، أى تحقيق الرشادة الاقتصادية ليس بين الاختيارات المختلفة فى الحاضر ولكن أيضا بين الحاضر والمستقبل • ولذلك فان الاستثمار أو تراكم رأس المال يعتبر من أحد خصائص المجتمعات الحديثة ومن أهم اهتمامات الادارة وسواء فى ذلك المشروعات الرأسمالية ، أو المشروعات الاشتراكية • ومعنى ذلك أن المشروعات الاقتصادية الحديثة تتميز بالالتجاء الى نظام للتخطيط يقوم فيه المديرون والفنيون بدور متزايد • وبطبيعة الأحوال ليس من المقبول الآن القول بأن شركة مثل جنرال موتورز تخضع للسوق كما كان يحدث للمشروعات المتناثرة فى القرن التاسع عشر • فهذه الشركة من الضخامة والأهمية وما تسيطر عليه من انتاج مباشر وغير مباشر لا يمكن القول معه بأنها تخضع للسوق ، بل الصحيح القول بأنها تضع خططها للمستقبل ، ونتيجة لهذه الخطط يأخذ السوق شكلا خاصا •

كذلك فان المفهوم القديم لفكرة « الربح » باعتباره باعثا للنشاط الاقتصادى لم يعد فى كثير من الأحوال مقنعا • حقا ان النظرية الاقتصادية تعرف الى جانب « المنافسة الكاملة » حالة « الاحتكار الكامل » وصور « المنافسة الاحتكارية » • وهذه النظرية الاقتصادية تبين أن هذه المشروعات أيضا تحاول أن تحقق أقصى ربح ممكن بالرغم من اعترافها بأن هذه المشروعات تستطيع التأثير فى ثمن السلعة بارادتها المنفردة بعكس حالة المنافسة الكاملة • ولكن هذه النظرية الاقتصادية لم تتصور أن تصل قدرة المشروعات الى أبعد من التأثير فى انتاجها • وغنى عن البيان أن شركة مثل جنرال موتورز لا تؤثر فقط فى أثمان منتجاتها ـ وعددها ضخم ـ **وانما تؤثر أيضا فى الدخل القومى والدخول الفردية** • ومتى اعترفنا لشركة أو لعدد محدود من الشركات بالقدرة على التأثير فى الأثمان وفى دخول

المستهلكين فان فكرة الربح تفقد كل مدلول لهـــا باعتبارها أمرا خارجا عن ارادة الشركة تحاول قدر المستطاع أن تحصل منه على أكبر كمية • ولذلك فانه فى ظل المجتمعات الحـــديثة تفقد فكرة الربح الكثير من مدلولها لأنهـا تصبح احدى وسائل المشروعات الضخمة • **فالربح يصلح دافعا لمشروع معين حيث يكون دخل المستهلك مســتقلا عن ارادة المشروع ، فيحاول المشروع أن يحصل منه على ما يستطيع ، أما حيث يكون هـــذا الدخل متوقفا على سياسة المشروع فان الربح يفقـــد وظيفته كعامل خارجى يحـاول المشروع الاكثار منه** • وبطبيعة الأحـــوال هذا لا يصدق الا عـــلى المشروعات الضخمة ، أما المشروعات الأخرى فانها لا زالت تخضع لمقتضيات السوق بالمعنى التقليدى •

وما تقدم انما كان الغرض منه بيان أن السهولة التى كان يمكن التمييز بها بين المشروعات الرأســـمالية والمشروعات الاشتراكية قد بدأت تختفى فى عالم تسيطر فيـــه المشروعات الضخمة • وفى هذا العالم تزيد الحاجـــة الى استخدام المعرفة الفنية المتخصصة فى جميـــع المستويات بما فى ذلك الادارة العليا • ويترتب على ذلك أن ينشـــأ نمط من المجتمعات التى تسيطر فيهـــا الادارة الفنية على أهم فروع النشاط ، وهذه الادارة تلجأ بصورة أو بأخرى الى ضرورة اتباع أساليب التخطيط ، وبعبارة أخرى أساليب الادارة العلميـــة من حيث تحديد نوع الانتـــاج وحجمه وتوزيعه بين مختلف السلع وبـين الحاضر والمستقبل •

وحتى الآن لم نذكر فى هذا المجتمع الجديد سوى أهمية الجانب الفنى وما يقتضـــيه من زيادة دور الفنيين ، ولم نتعرض بأية اشـــارة الى فكرة « الاستهلاك » رغم اننا بدأنا بتسمية هـــذا المجتمع « بمجتمع الاستهلاك » • وهذا ما ينبغى أن نفعله الآن •

الواقع أن هـــذا النوع من النظم لا يوجـــد الا فى الدول المتقدمة ، والتشابه الذى رأيناه بصدد كيفية ادارة المشروعات الاقتصادية انما يتحقق فى الدول الغنية فقط بصرف النظر عن شكل الملكية فيها • أما الدول الفقيرة أو

ما اصطلح على تسميتها « بالدول المتخلفة » فهي لا زالت بعيدة ـ نسبيا ـ عن مشاكل التقدم الفني ، وان بدأت تخطو في هـذا الطريق · **وهذا ما يبين أن التناقض الأساسي في العصر الحديث هو بين دول غنية ودول فقيرة أكثر مما هو بين دول رأسمالية ودول اشتراكية** · ولعله في ضوء هـذا الفرض يمكن في نفهم موقف الصـين بالنسبة الى الدول الامبريالية ـ وهي دول غنية ، وبالنسبة الى الاتحـاد السوفييتي ودول أوروبا الشرقية ـ وهي دول غنية نسبيا ـ كما نستطيع أن نفهم أيضا أهمية « التعايش السلمي » • ولا ندعي أن التقارب الاقتصادي بين الولايات المتحدة الامريكية والاتحـاد السوفييتي هو المسئول وحده عن التعايش السلمي فهناك اعتبارات أخرى لعـل من أهمها التقدم النووي وما أدى اليه من تغيير في جميع الخطط الاستراتيجية •

والتقدم الفني الهائل الذي نجم عن الشكل المتقدم للادارة الاقتصادية يرتبط بالضرورة بالقدرة الهائلة على الانتاج ومن ثم على زيادة الاستهلاك • حقا اننا نعرف أن الغرض من الانتاج في جميع النظم وفي جميع الأوقات هو اشباع الحاجات أي الاسـتهلاك ، ولكن شكل الاسـتهلاك في هذه الدول المتقدمة يصبح ذا طبيعة خاصة مما يسمح بتسمية هـذا المجتمع « بمجتمع الاستهلاك » • فالمجتمعات الفقيرة لا تكاد بمواردها المحدودة والفن الانتاجي المتاح لها أن تشـبع الحاجات الضرورية لأفرادها ، ولذلك نجد الاسـتهلاك الفردي في هذه المجتمعات محدودا • بل لا يمكن في أغلب هذه المجتمعات اشـباع الحاجات الضرورية من مأكل وملبس وتوفير قدر مناسب من التعليم ومن الرعاية الصـحية ، ولذلك فانه من الأمور العـادية أن تعرف الدول المتخلفة بأنهـا تلك التي لا تستطيع أن توفر قدرا معقولا من الاسـتهلاك لأفرادها • واذا أخذنا في الاعتبار أيضا ما تضطر هذه المجتمعات الى اقتطاعه من انتاجها لتوفير القدر اللازم من الاستثمارات التي تسمح باستمرار الانتاج في المستقبل وزيادته ، فان المتبقي للاستهلاك الفردي والجماعي يكون محدودا حقا •

أما الدول المتقدمة والتى حققت قدرا ضخما من تراكم رأس المال فى الماضى ، والتى تتمتع بصفة خاصة بمزايا التقدم الفنى ، فان الحاجات الضرورية بل والترفيهية للأفراد تكون متحققة فى الواقع • وفى مثل هذه المجتمعات فانه يمكن باستمرار زيادة الانتاج ولذلك تقوم مشكلة تصريف هذا الناتج المتزايد • وبدون العمل على زيادة الاستهلاك فان هذه المجتمعات لابد وأن تصاب بأزمات خطيرة • وزيادة الاستهلاك تعتبر أمرا سهلا نسبيا فى الدول ذات الدخل المنخفض اذ يتعلق الآمر فى الواقع بحاجات ضرورية تكاد تكون حاجات بيولوجية ، أما فى الدول المتقدمة والغنية فان معظم الحاجات الأولية يكون قد تحقق اشباعها ـ بالرغم من وجود حالات فقر بالمعنى الضيق فى بعض هذه المجتمعات ـ ولذلك فان الزيادة فى الاستهلاك تأتى غالبا من حاجات نفسية واجتماعية ينبغى خلقها لدى الفرد • فمن السهل طبعا أن نفهم أن الأفراد ، أيا ما كان التنظيم الاجتماعى السائد ، يحتاجون الى المأكل والملبس بل الرغبة أيضا فى التعليم والرعاية الصحية ، ولكن لا شك أن الرغبة فى التغيير المستمر فى شكل الملابس « المودة » وفى شكل السيارات المستخدمة •• كل هذا من خلق المدنية الحديثة ، فهى حاجات « اجتماعية » قبل أن تكون حاجات « طبيعية » لدى الفرد •

وقد سبق أن رأينا أنه ليس من السهل فى المجتمعات الحديثة حيث تسود المشروعات الكبرى ، قبول « فكرة الربح » كدافع للنشاط الاقتصادى ، وحيث تخضع كافة المتغيرات الاقتصادية لسيطرة عدد صغير من المشروعات • وفى مثل هذه الأحوال رأينا ان هذه المشروعات الضخمة تقوم فى الواقع بنوع من التخطيط ، أى تحاول تحقيق أهداف معينة ، والأثمان والأرباح انما هى نتيجة فى الواقع لهذه السياسة الاقتصادية للشركات الكبرى • ولكن ما هى هذه الأهداف التى تسعى هذه المشروعات الكبرى الى تحقيقها اذا لم يكن ذلك هو الربح دائما ؟ **فى الواقع أننا نعيش فى عصر تسود فيه عقلية « النمو »** فالنجاح انما يقدر بمعدل النمو الذى يمكن تحقيقه ، والنمو هو زيادة الانتاج وما يرتبط به من زيادة الاستهلاك • ولا نكاد نجد مثالا واحدا

لدولة فى الغرب أو الشرق لا تضع زيادة الانتاج كدليل على تقدمها وكهدف تحاول تحقيق أكبر قدر ممكن منه • وزيادة الانتاج ، كما سبق أن رأينا ــ لا يمكن أن تستمر ــ طالما أن الدولة قد جاوزت حدا معينا من النمو ــ دون زيادة الاستهلاك • وبذلك تعتبر زيادة الاستهلاك أو زيادة الطلب هو العامل الفعال فى استمرار النمو • والواقع أن هذا هو مغزى « ثورة كينز » فى الاقتصاد السياسى • فالاقتصاديون التقليديون لم يوجهوا عناية كافية لجانب الطلب ــ باستثناء مالتس ــ وسبب ذلك هو أن حاجات المجتمع الذى عرفوه كانت دائما أزيد من قدرة الانتاج • وهذه هى الأوضاع السائدة الآن بالنسبة الى الدول المتخلفة حيث لا يكفى انتاجها لمواجهة الطلب الحالى (الاستهلاك) والطلب المستقبل (الاستثمار) •

نقول اذن أن المجتمعات الحديثة أصبحت نتيجة للتقدم الفنى المذهل غير قادرة على الاستمرار فى التقدم بغير زيادة الاستهلاك • ولكن هذه الزيادة فى الاستهلاك تفرض من ناحية أخرى مشاكل جديدة بالنظر الى اننا دخلنا فى مرحلة الاستهلاك الاجتماعى وهو يفرض ضرورة تنظيم المجتمع على شكل جديد بحيث تعتبر زيادة الاستهلاك المستمرة هى أهم خصائصه • وهذا هو السبب الذى من أجله أطلقنا على هذه المجتمعات اسم « المجتمع الاستهلاكى » •

وبطبيعة الأحوال فان مجتمعا يكون غايته « الاستهلاك » بأى ثمن وبأى شكل هو الغاية منه ، لابد وأن يفرض قيودا خاصة على العلاقات السائدة • من ذلك مثلا أهمية الاعلام والدعاية • فالراديو ثم التليفزيون قدما خدمات هائلة لمجتمع « الاستهلاك » • فمن ذى قبل كان الاعلام يجرى عن طريق الصحافة • ولكن الصحافة تفترض على الأقل قدرا معينا من المستوى الفكرى للقراءة ، أما الراديو وخاصة التليفزيون فقد تجاوزا حتى عن هذا المستوى البسيط • ولذلك فان هذه الوسائل الاعلامية قل أن تستخدم فى الأغراض الثقافية فى هذه الدول بقدر ما تستخدم فى أغراض الدعاية لأنواع الصابون

المختلفة والأنواع الحديثة لمساحيق تنظيف الأظافر • وهكذا •• كذلك فى ضوء خصائص هذا المجتمع نستطيع أن نفهم السبب فى النفقات الباهظة التى تنفق على الاعلام فى بعض الدول كالولايات المتحدة الامريكية ، فحوالى ٤٠٪ من ثمن السلعة فى السوق يقابل فى الواقع نفقات التوزيع • وبالمثل نفهم تطور فروع المعرفة فى بعض الميادين المتعلقة بهذه المسائل ، مثل العلاقات العامة وبحوث العمليات ودراسة البرامج السيبرناطيقا والانفورماتيك ••الخ•

كذلك من الطبيعى فى مثل هذا المجتمع أن يصبح « الاستهلاك » فى ذاته قيمة اجتماعية • فالأفراد يقدرون اجتماعيا ويتحدد مركزهم الاجتماعى بقدر استهلاكهم • وبذور هذا التطور قديمة ، فنحن نعرف أن فبلن قد أشار فى تحليله للمجتمع الامريكى لظاهرة « الاستهلاك التفاخرى » ، ولكن هذه الفكرة لم تدخل فى علم الاقتصاد الرسمى الا حديثا وعلى وجه الخصوص منذ دوزنبرى عند كلامه عن « أثر التقليد » • ويرتبط باعتبار الاستهلاك قيمة فى ذاته الاتجاه نحو ما يسمى « بنمطية الاستهلاك » • فالمشروعات الصناعية الضخمة تساعد على زيادة الوعى الاستهلاكى ، وتؤكد على تعميق المفهوم الاجتماعى للاستهلاك • ولكنها من ناحية أخرى تود أن يجرى الانتاج على أفضل الطرق من الناحية الاقتصادية • ومقتضى ذلك الانتاج الواسع لسلع « نمطية » متشابهة • وهكذا نجد الأفراد يتشابهون أكثر فأكثر فى كيفية الملبس وفى كل مظاهر المعيشة حتى فى فروع الاهتمامات • كل شىء فى الحياة تحكمه « المودة » •

ونكتفى بهذا القدر من الحديث عن « المجتمع الاستهلاكى » ، فان أغلب المظاهر الأخرى لابد وأن نتعرض لها بصدد الحديث عن الانتقادات التى وجهها الطلبة الى هذا المجتمع • ومع ذلك فان الاشارة المتقدمة كانت ضرورية حتى نستطيع أن نفهم موقف الطلبة من هذا المجتمع • ولكن ينبغى أن نفهم أن هذا « المجتمع الاستهلاكى » لم تعرفه بعد فرنسا ، فهى فى أول الطريق نحو الاتجاه اليه • ولعل ذلك هو السبب الذى أثار رد الفعل

الشديد فى فرنسا ، فهى لا زالت فى مرحلة انتقالية مما ساعد على تعدد ردود الفعل وتنوعها ومن ثم ايضاح الكثير من خصائص هـذا المجتمع • وقد سبق أن قلنا أن موقف الطلبة من « مجتمع الاستهلاك » يتضمن فى الواقع وجهتين متناقضتين الى حد ما : الأولى تعيب على فرنسا وعلى الجامعة بصفة خاصـة تخلفها عن حاجات هذا المجتمع • والثانية تناقش هذا المجتمع ذاته وترفضه • وسوف نبدأ بالنوع الأول من الانتقادات ثم نعرج على النوع الثانى •

٤ ـ فرنسا ومجتمع الاستهلاك :

بالرغم من التقدم الاقتصادى الذى حققته فرنسا خلال السنوات العشر الأخيرة والذى لا يمل الديجوليون من الاشارة اليه ، من الخطأ الاعتقاد أن فرنسا قد أصبحت دولة متقدمة على النحو الذى تعرفه الولايات المتحدة الامريكيـة أو حتى بعض الدول الأوروبية مثل السويد أو ألمانيا الغربية • فالحقيقـة أن وراء التقدم الملموس الذى حققته فرنسـا لا زالت توجد بقايا هامة لأوضـاع وعقليات متخلفة عن حاجات « مجتمع الاستهلاك » • فالعقلية الحرفية وبصفة عامة عقلية البورجوازية الصغيرة لا زالت سائدة فى فرنسا وقد أثر ذلك فى كثير من الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية القائمة فيها •

ولا زلنا نذكر السـعادة والاطمئنان الوفيرين اللذين يتحدث بهمـا الفرنسيون عن التوازن الاقتصـادى فى بلدهم لأن ثلث السكان يعملون فى الزراعة ومثلهم فى الصـناعة ومثلهم فى الخدمات • وكأن هـذا التوزيـع المتساوى ـ حسابيا ـ للسكان بين القطاعات المختلفة دليل على توازن الاقتصاد وانسجامه • وذلك فى الوقت الذى يقوم عشر السكان فى الولايات المتحـدة الامريكية بالانتاج الزراعى للتسعة أعشار الباقية فضلا عن الفائض الزراعى ، وفى الوقت الذى لا يعمـل فى الزراعة الانجليزية سـوى ٥٪ من السكان فقط • كذلك لا ننسى أن الصناعة الفرنسية رغم التقدم الفنى الكبير والمذهل أحيانا فى بعضها لا تزال تتضمن عـددا هاما من المشروعات الصغيرة الحرفيـة التى تقوم بدور كبير • وأنا أكتب هذه السطور فى مدينة منطقة « التارن »

اسمها « جرويه » وهذه المدينة حسبما علمت تعتبر عاصمة العالم فى انتاج الجلود ! وبالطبع قمت بزيارة أهم المصانع (هنا) ، وذهلت اذ عرفت أن أكبر المصانع يستوعب مائة وخمسين عاملا ، وأنها جميعا من الحجم الصغير والمتوسط . وعند رؤيتى لواحد من أكبر المصانع وجدت العمل يكاد يكون يدويا ويذكرنى بأنوال النسيج الصغيرة فى بلدنا .

كذلك نعرف أن التقدم الاقتصادى فى جميع الدول بعيد عن أن يكون متساويا ، فهناك دائما مناطق أكثر تقدما من المناطق الأخرى . وفرنسا تعرف بالطبيعة هذه الظاهرة ، ولكن المناطق المتخلفة فى فرنسا هى « متخلفة » حقا . وأن مشكلة « برتانى » لا تختلف كثيرا عن مشاكل الدول المتخلفة ، بل انه لا زال فى هذه المقاطعة من لا يتكلمون الفرنسية وانما يتحدثون بلغة البلد القديمة (البريتون) مما يبين الى أى حد يقوم الانفصال بين بعض مناطق فرنسا .

وفى مثل هذه الظروف من الطبيعى أن يكون سلوك الفرنسى العادى بعيدا عن سلوك زميله فى الولايات المتحدة الأمريكية أو فى انجلترا . ومن المعروف أن عقلية البورجوازى الصغير تسيطر حتى الآن على سلوك الفرنسى العادى . فصاحب البار الصغير المستقل الذى يعرف عملاءه شخصيا يمثل الى حد بعيد الفرنسى المتوسط . وعادة الادخار لا زالت حتى الآن احدى خصائص الفرنسى المتوسط ، وربما فى نظر الكثيرين ، احدى مزاياه . كذلك الرغبة فى الاستقلال والفردية كثيرا ما تقدم على أنها من طبيعة الشعب الفرنسى . ومن الواضح أن هذه الصفات والخصائص لا تتفق مع طبيعة « المجتمع الاستهلاكى » الذى يحترم « الاستهلاك » أكثر مما يحترم « الادخار » الذى تزول فيه عناصر التفرد والاستقلال على ما سنرى .

ومن الطريف أن نلاحظ أنه من بين العوامل التى ساعدت فرنسا على تحقيق معدلات مرتفعة من النمو الاقتصادى ، وجودها بالفعل فى حالة تخلف بالنسبة الى غيرها من الدول الأوروبية والامريكية . فوجود قطاع زراعى

متضخم ساعد على حل مشكلة اليد العاملة فالصناعة الفرنسية لم تعرف مشاكل نقص اليد العاملة نظرا الى وجود احتياطى مستمر من العمل فى الزراعة ، وذلك بعكس ألمانيا الغربية التى بدأت تواجه بنقص فى الأيدى العاملة مما يهدد نموها • كذلك من السهل على الدولة أن تحقق معدلا مرتفعا من النمو اذا كانت متخلفة نسبيا اذ يتعلق الأمر باللحاق بالتقدم المتحقق بالفعل فى الدول الاخرى • وهذا هو بالفعل ما حدث فى فرنسا • فجزء كبير من التقدم الاقتصادى الحديث فى فرنسا مرجعه تخلفها النسبى •ولعل هذا ما يفسر جزئيا بعض الغرابة فى أحداث مايو ٦٨ فى فرنسا • فالرأى السائد هو أن فرنسا قد حققت فى السنوات العشر السابقة تقدما اقتصاديا حقيقيا • ولكن الحقيقة أيضا هى أن هذا التقدم الاقتصادى قد تحقق فى دولة محتاجة الى تغيير الكثير من نظمها السابقة • وهذه الحقيقة هى التى تفسر بعض الأزمة التى وقعت • فقد كان عدد كبير من المراقبين يعتقدون أن فرنسا توجد فى حالة أفضل من غيرها من الدول الأوروبية • ولكن الحقيقة أن ذلك كان ظاهريا أكثر منه حقيقيا • واذا أخذنا فى الاعتبار ما يقتضيه استمرار التقدم الاقتصادى من ضرورة تغيير فى النظم والعقليات السائدة ، لفهمنا بعض أسباب الأزمة •فهناك صراع بين القديم وبين حاجات المجتمع الجديد •

وبعد هذه الاشارة السريعة الى بعض مظاهر تخلف فرنسا عن حاجات « مجتمع الاستهلاك » نحاول أن نرى بعض هذه المشاكل فى نطاق التعليم ، اذ أشرنا الى أن أحد أسباب ثورة الطلبة هو بالفعل عدم ملاءمة التعليم والجامعة بصفة خاصة لحاجات « المجتمع الاستهلاكى » •

٥ ـ مشكلات التعليم :

ونبدأ بأن نقول بأن من أهم المشاكل التى حركت الطلبة ، أو على الأقل جزءا منهم ، ترجع فى الواقع الى عدم وجود فرص عمل مناسبة لهم بعد التخرج • فقد سبق أن أشرنا الى أن طلبة الآداب وبصفة خاصة فى أقسام الاجتماع وعلم النفس والفلسفة كانوا فى مقدمة الثائرين • والواقع أن أهم

مشاكل العمل تواجه هؤلاء بالذات ، فعدد الطلبة فى كليات الآداب أكبر جدا من عدد الطلبة في الكليات العملية ـ كما هوالحال عندنا ـ ولذلك فمن الطبيعي أن يواجه أولئك مشاكل أكبر من حيث العمل بعد التخرج • وقد سبق أن قلنا أن المشكلة ليست فقط مشكلة أعداد أكثر من الحاجة ، بل أيضا مشكلة نوع التعليم الذى يحصلون عليه • ففى كثير من الأحوال يتضمن هذا التعليم جزءا ضخما من النظريات الاجتماعية والفلسفية على حساب التدريب الفنى فى نطاق محدود والسيطرة على عدد من أساليب وأدوات التحليل اللازمة للحياة العملية • ولكن ليس من السهل فصل أحد الأمرين عن الآخر • ذلك أنه من الطبيعى مع الأعداد الضخمة وعدم توافر الأماكن اللازمة وأعضاء هيئة التدريس أن يكون أسلوب التعليم الأنسب هو **المحاضرة العامة** فى مدرجات ضخمة • وهذا هو ما يحدث بالفعل • ولذلك فان أحد مطالب الطلبة هو الغاء ما يسمى « بمدرجات الألف » حيث يتسع المدرج لأكثر من ألف طالب ويلقى فيه الاستاذ درسه • ومن الواضح أنه فى مثل هذه الظروف يكون الاستاذ مرغما الى حد ما ، على الاهتمام بالجانب النظرى أو الفلسفى • ويستحيل ، على أى الأحوال ، مع هذه الأعداد الضخمة اعطاء تدريب عملى وتوفير تكوين مهنى فى مجال محدد بالذات • فالاحصاء مثلا يحتاج تدريسه الى مجموعات صغيرة يشرف عليها أحد الاساتذة أو المعيدين ، وبالمثل جميع أنواع الدراسات المهنية •

ومع ذلك ينبغى أن نبحث عن أسباب أبعد لهذه المشاكل ، فلا يكفى أن يقال بأن عدد الطلبة كبير فى كلية الآداب ، وانما ينبغى البحث عن الأسباب التى تؤدى الى ذلك فى نظام التعليم القائم • وهنا لابد أن نرجع الى نظم التعليم العام فهى تعبر فى الواقع عن حاجات المجتمع القديم ولم تلاحظ بعد التطورات الجديدة فى « مجتمع الاستهلاك » •

هناك تقليد متبع فى التعليم الفرنسى وهو يستند الى تراث قديم مستتب ، وهذا التقليد يقوم فى الواقع على الاهتمام الزائد بدراسة الانسانيات

الكلاسيكية وفى مقدمتها اللغة اللاتينية • وفى نظرنا أن هدا التقليد مسئول الى حد بعيد عن كثير من المشاكل الحالية • فالطلبة الأكثر ذكاء يتجهون فى الواقع الى دراسة اللاتيني والطلبة الأقل ذكاء يتجهون الى دراسة اللغات الحية • وهذه مسألة كرامة وتقدير ، فأفضل المدرسين يوجدون فى فصول اللاتينى وأفضل الطلبة كذلك • ومعنى ذلك أن جزءا ضخما من الذكاء يوجه فى الواقع لدراسة اللاتينى على حساب اللغات الحديثة وعلى حساب العلوم الحديثة مثل الرياضيات والعلوم بل التاريخ أيضا •

و « اللاتينى » هو لغة العلم فى العصور السابقة قد خلق نوعا من الأرستقراطية العلمية فى العائلات • ومن ثم تجد أن أبناء الطبقات المتوسطة والفقيرة يكونون فى وضع سيىء بالنسبة الى أبناء العائلات الغنية اذ يتمتع هؤلاء بمقدرة أكبر على التفوق فى اللاتينى بالنظر الى الجو الثقافى السائد فى المنزل • ومن ثم قلما يوجد من أبناء الفقراء من يستطيع أن يتفوق فى أقسام اللاتينى ، وانما الغالب أن يتجهوا الى دراسة اللغات الحية لسهولتها نسبيا • ونظرا الى أن أفضل الأساتذة ، بما فى ذلك أساتذة الرياضة ، يدرسون فى فصول اللاتينى فان النتيجة أن معظم فصول اللغات الحية وفيها غالبية الطلبة لا يحصلون على التكوين الرياضى اللازم لهم للتوجه الى الكليات العملية • وبعبارة أخرى فان نظام التعليم العام ، للأهمية الكبرى التى يعلقها على فصول اللاتينى ، يخلق فى الواقع تعليما طبقيا لمصلحة الأغنياء ، وبذلك تكون الغالبية العظمى من الطلبة محرومة من الافادة من أفضل الأساتذة •

وغنى عن البيان أن نظام التعليم المتقدم انما يتفق مع المجتمع البورجوازى الذى لا تؤدى فيه العلوم الحديثة الدور الذى تؤديه فى المجتمعات الحديثة • ويكون من الطبيعى أن تنشأ تقاليد تنظر الى الثقافة باعتبارها مجرد سرد لبعض طرائف الأدب ، ويستحسن بطبيعة الأحوال أن تستخدم من آن الى آخر بعض العبارات اللاتينية ، فهى تمثل دائما لغة العلم والثقافة ، أما الآن حيث يقوم المجتمع على التقدم الفنى ، فانه ينبغى تغيير كل ذلك والاهتمام بالرياضيات

والفروع الحديثة وتقليل الجهد الضائع فى الدراسات الترفية مثل اللاتينى •

كذلك هناك ظاهرة أخرى على قدر كبـــير من الخطورة ، وهى **المركزية** الشديدة التى تسود جميع مظاهر الحياة فى فرنسا • كـــل شىء موجود فى باريس ، أما الأقاليم فهى محرومة أو تكاد من المزايا التى تتمتع بها العاصمة • ورغم أن المركزية ترجع الى اعتبارات عديدة فى التاريخ الفرنسى ، فهى أيضا تعبر عن نوع من التخلف الاقتصادى • فكلنا نعرف أن التقدم الاقتصادى بعيد عن أن يكون تقدما متوازنا ، وخاصة فى الدول الرأسمالية ، فهناك دائمامناطق أقدر على التقدم من مناطق أخرى • ولكن من ناحية أخرى فينبغى أن نلاحظ أن الدولة كلما زادت تقدما زادت المحـــاولات لتقليل الفروق بـين مختلف المناطق • ولعل هذا هو السبب الذى من أجلـــه نجـد أن فرع « التخطيط الاقليمى » يجد قبولا واسعا فى الـدول المتقـــدمة • وأيا ما كان الأمر فان المركزية الشـديدة فى فرنسا كان من نتائجها دائما وجود فروق ضخمة فى مستوى التعليم العام بين العاصمة والأقاليم • وذلك لا يرجع فقط الى وجـود معظم مصادر المعلومات والثقافة فى العاصـــمة مثل المتاحف والمعـارض ودور السينما والمسارح ••• الخ ، ولكن يرجع أيضا الى أن هناك اتجاها فى فرنسا الى اعتبار التدريس فى باريس نوعا من الترقية والتقدير • ويترتب على ذلك أن أفضل الأساتذة يتجهون الى باريس دائما على حساب التعليم فى الأقاليم • ومن أجل ذلك تعتبر جامعة باريس أفضل من جامعات الأقـاليم ، والأسـتاذ ينظر الى وجوده فى جامعات الأقاليم على أنها مرحلة فى سبيل « الترقى » الى جامعة باريس • ويترتب على ذلك بطبيعة الأحوال أن معظم مناطق فرنسـا لا تتمتع بمستوى واحد من التعليم •

ان نظام التعليم فى فرنسا يتجـــه فى كثير من خصائصه الى أن يكـون تعليما للأقلية ، سواء أكانت أقلية طبقية أم اقليمية • وهـذا التعليم لا يناسب « مجتمع الاستهلاك » •

وفى ضوء ما تقدم نستطيع أن نفهم الشـعارات التى رفعت ضد « مدرج

الألف » وضرورة الغاء المحاضرات العامة وتعميم نظام قاعات البحث والدروس العملية • وهي دعوة يشترك فيها مع الطلبة عـــدد كبير من أعضـــاء هيئات التدريس ، وبصفة خاصة المعيدون والمدرسون • وسوف نرى أن هذه الدعوة لها أسباب أخرى غير مجرد توفير أداة أكثر مناسبـة للتدريس والتكـــوين الفني ، فهي تنطوى أيضا على مطلب اجتماعي ونفسي • ان نظـــام المحاضرات العامة قد قطع الروابط الخاصة بين الأستاذ وطلبته ، ولم تعد هـــذه الروابط شخصية كما أنها باعدت المسافة بين الأساتذة والمعيدين • وهـــذا النوع من العلاقات غير الشخصية الذى يميز « المجتمع الاستهلاكى » كان أيضا موضـع نقد من الطلبة على ما سنرى • فضلا عن أن أسلوب التدريس بالمحاضرة العامة يقوى نوع التدريس « الأبوى » ، الذى يلقن فيه العلم دون مشاركة حقيقية من الطالب فيه • وهذه كلها جوانب سنعرض لها بالضرورة عندما نتكلم عـن الجانب الثاني من انتقادات الطلبة المتعلقة بمناقشة المبـــادىء التى يقوم عليهـا « مجتمع الاستهلاك » ذاته • ولكننا نكتفى هنا بالاشارة الى الجانب الفنى المتعلق بعدم ملاءمة هذا الأسلوب من التعليم لتكوين فنيين قادرين على مواجهة حاجات « المجتمع الاستهلاكى » •

ويرتبط بما تقدم ، المطالبة بمضاعفة عدد المدرسـين والمعيـــدين • فان مشكلة أسلوب التعليم ترجع فى النهاية الى أن تكون مشكلـــة توفير الأماكن وتوفير العدد الكافى من الأساتذة •

كذلك نستطيع أن نفهم المطالبة بتحقيق استقـــلال الجامعات بعضها عن بعض على أنها تنطوى على نوع من الرغبة فى محاربة سيطرة باريس على كل الجامعات • فالاستقلال ، رغم أنه يتضمن فى الواقع تحقيق أهـــداف أخرى سنتحدث عنها فيما بعد ، الا أنه يشير فى الوقت نفسه الى رغبة الجامعـات فى الأقاليم من تحقيق نوع من اللامركزية وتوفير قدر من الاستقلال فى مواجهة باريس •

كذلك يمكن أن ننظر الى الدعوة الى التسيير الذاتى ومشاركة العمال فى

الادارة ، على أنها تمثل محاولة من جانب الفنيين ترمى الى التخلص من سيطرة أصحاب رأس المال • وهذه المسألة ليست بهذه البساطة ، فسوف نرى أن المطالبة بالتسيير الذاتي ومشاركة العمال في الادارة ، انما تعبر عن الرغبة في تحقيق الاشتراكية والديمقراطية الاقتصادية • ولكن يمكن أيضا أن ننظر اليها ، أو الى جانب منها على الأقل ، على أنها محاولة من جانب الفنيين والمديرين للتخلص من التدخل المستمر لأصحاب رأس المال في شئون الادارة • فقد سبق أن أشرنا أن « المجتمع الاستهلاكي » يتميز بالدور الأساسي الذي يؤديه الادارة والفنيون ولذلك يمكن أن ننظر الى هذه المطالب في ضوء هذا الاتجاه العام ـ خاصة وأن أغلب تجارب التسيير الذاتي ومشاركة العمال أدت في الواقع الى تقوية نفوذ الادارة على حساب ملكية رأس المال • وسوف نرى موقف نقابات العمال من هذه المسألة كان متسما بالتردد وأقرب الى التشكك منه الى الحماس • فالعمال كانوا يميلون الى بعض المطالب الاقتصادية المحددة ، مثل زيادة الأجور وتقليل ساعات العمل، وعلى الخصوص الاعتراف « بالحق النقابي » داخل المشروع • ومن الواضح أن هناك اختلافا ضخما في المفهوم بين الاشتراك في الادارة وتقوية النقابات • وسوف نعرض لهذه المسائل فيما بعد •

وأخيرا ينبغي ألا ننسى أمرا مهما ، وهو أن فرنسا في خلال جيل واحد عرفت تقدما ماديا هائلا دون أن يحدث تغيير يذكر في القيم والعادات ولا في النظم القائمة • فالفرنسي العادي خرج من الحرب وحتى في الفترة السابقة لها بقدر محدود نسبيا من الرفاهية الاقتصادية • حقا ان الفرنسي خلافا للكثير من الأوروبيين ، كان دائما محبا للحياة المبهجة ، ويحب الطعام الجيد ، ويحب المتعة • ولكنه في كل ذلك لم يكن مزودا بأية أدوات حديثة • ان الفرنسي العادي لم يعرف السفر الى الخارج الا حديثا ، ولم يكن يحب الانتقال حتى داخل بلده • وفجأة في خلال جيل واحد أصبح الجميع مزودا بوسيلة نقل ميكانيكية ، وأصبح السفر في متناوله • وبذلك وجد نفسه في اطار مادي مختلف تماما فلم يكن متهيئا له • فالرخاء المادي في فرنسا في خلال السنوات

العشر الماضية كان أسرع كثيرا من التغيير فى العادات والقيم • فكان لابد وأن يحدث انفجار • وقد حدث •

٦ ـ موقف « المنازعة » ازاء مجتمع الاستهلاك :

ان أحداث مايو ١٩٦٨ فى فرنسا لم تكن مجرد مطالبة بالاصلاح وتحقيق التلاؤم بين « مجتمع الاستهلاك » ومختلف الأنظمة القائمة ، وانما ذهبت الى أبعد من ذلك • انها حركــة تناقش المبادىء التى يقوم عليها هــذا المجتمع وتنازعه • وهذا هو الجانب الحيوى فى حركة الطلبة • فهى حركة ثورية تود تحرير الانسان ، وعلى وجه الخصوص تحريره من قيود «مجتمع الاستهلاك»• واذا كان يبدو أن هناك تناقضا منطقيا بين ما ذكرناه فيما سبق عن الحاجة الى الخضوع لمقتضيات مجتمع الاستهلاك ، وبين ما سنشــير اليه من منازعة هذا المجتمع ، فان هذا التناقض يوجد فقط على مستوى البحث• **فجميع التقسيمات المنطقية انما هى من عمل الفكر لمحاولة فهم الأوضاع المعقدة فى الحياة • أما الحياة ذاتها فهى لا تبالى بهذه السهولة المنطقية ، وهى هـذا التناقض ذاته ، ولذلك لا يشق علينا أن نقرر أن الأمرين كانا موجودين بالفعــل فى حركة الطلبة** • ولعل هذا هو السبب الذى جعل من حركة الطلبة ثورة• فهى ليست مجرد مطالبة بأمور معينة ، وانما هى ثورة تعبر عن الأوضــاع الشــاذة التى نعيشها الآن ، والتمزق الكامل الذى يتناولنا ومن ثم الغموض والابهام • وفى ضوء هذا وحده لا نشعر بأية غضاضة من أن نتناول الآن الجــانب الثانى من الانتقادات التى وجهت الى « مجتمع الاستهلاك » • وهى منازعة هذا المجتمع • والواقع أن هذا هو أجمل الجوانب فى أحداث مايو •

ونبدأ بالقول أن هناك اصطلاحا خاصا هو الذى يميز أحداث مايو ، وهو اصطلاح « المنازعة » والكلمة الفرنسية هى Contestation وربما يجــد شخص آخر ترجمة أفضل ، ولكنى حتى الآن لم أوفق شخصيا فى الوصول الى ما يعطى الدلالة ذاتها • وقد استخدمت عدة ألفــاظ أخرى مثل الرفض والالغاء والاحتجاج والمعارضة •• ولكن « المنــازعة » هى التى استقرت فى

الأذهان ، حتى قيل بأن حركة مايو هى « حركة المنازعة » •

ونلاحظ أن المنازعة تختلف عن الرفض • فالرفض كما قال بيير هنرى سيمون ـ من الأكاديمية الفرنسية ـ يتضمن الاستبعاد بناء على مبررات قانونية أو أخلاقية وبصفة عامة لأسباب عقلية مجردة • أما المنازعة فانها على العكس لا تتضمن هذا الاستبعاد المجرد وانما تثير نوعا من العلاقة الشخصية بين المنازع والمنازع فتثير أسبابا عقلية وعاطفية فى وقت واحد ، ولا تتضمن على أى الأحوال هذه القطيعة الموضوعية كما فى حالة الرفض • وبطبيعة الأحوال يصعب على الأقل ، أن أعطى المدلول الحقيقى بالعربية • ولكننى أرجو أن يتضح ما فى هذا الاصطلاح من مضمون شخصى غير مجرد ، وما يفيده من علاقة أخذ ورد لا نجدها فى عبارات أخرى موضوعية قاطعة مثل الرفض • ولذلك لا عجب أيضا أن نجد اصطلاح « الحوار » قد أدى دورا خطيرا فى المطالبات التى رفعت أثناء حركة مايو • فبعض ما أخذه الثائرون على المجتمع الاستهلاكى ، ليس فقط الجانب القهرى فيه ، كما سنرى • وانما الطابع اللاشخصى للعلاقات • وبعبارة أخرى اختفاء الحوار بين شخصين حقيقيين •

٧ ـ آراء الفيلسوف ماركوز :

ومن الكتاب الذين حققوا شهرة حقيقية أثناء الأحداث : ماركوز • وقد رأى فيه كثير من المعلقين الأب الفكرى لأحداث الطلبة لأن كثيرا من أفكاره ومن تعبيراته قد استخدم أثناء هذه الأحداث • ومع ذلك أنكر كثير من زعماء الطلبة هذه التبعية الفكرية • ولكن هذا لا يمنع من الاشارة الى بعض أفكاره التى تشرح فى الواقع جانبا مهما من فكرة « المنازعة » هذه فى « المجتمع الاستهلاكى » • فماركوز يرى أن الانسان فى علاقته بالمجتمع الذى يعيش فيه ، يمكن دائما أن يميز بين بعدين لهذه العلاقة : البعد الأول هو الاندماج والتلاؤم ، والبعد الثانى هو المنازعة والرفض • وفى كل المجتمعات نجد أن الفرد يحتفظ فى علاقته بالمجتمع الذى يعيش فيه بهذين البعدين : الاندماج من ناحية ، والمنازعة من ناحية أخرى • فكل حضارة تطبع أفرادها بنوع من

التشابه ، ولكنهم أيضا مختلفون • وهذا التشابه والاختلاف هو الذى يحفظ للفرد توازنه داخل المجتمع الذى يعيش فيه • ويرى ماركوز أن « مجتمع الاستهلاك » خلافا لغيره من المجتمعات السابقة ، يتجه نحو الغاء جانب المنازعة أكثر فأكثر ، ومن هنا نجد أنفسنا فى ظل حضارة تميل الى غلبة «بعد الاندماج» على حساب « بعد المنازعة » اننا بصدد « الانسان ذو البعد الواحد » ، وهو اسم كتابه الذى تناول فيه خصائص هذا المجتمع • « فمجتمع الاستهلاك » عن طريق قدرته الفائقة فى زيادة انتاج سلع الاستهلاك ، ومن ثم رفع المستوى المادى لأفراده ، يتجه فى الواقع الى الغاء جانب المنازعة لتصبح شكلية فقط • ويحلل ماركوز أثر هذا التطور على نفسية الأفراد ، وهو فى ذلك يحاول أن يجمع بين تحليل ماركس وتحليل فرويد • فلا يكفى أن نحلل العوامل الاقتصادية والموضوعية ، وانما هناك محل لدراسة العوامل النفسية أيضا • وهذا هو السبب الذى جعلنا نقول فى أول هذه الانطباعات بأن من أهم مايميز أحداث مايو هو غلبة العوامل النفسية • وسوف نرى أن فكرة المنازعة هى التى تفسر سلوك بعض المجموعات اليسارية من الطلبة فى مواجهة الحزب الشيوعى باعتباره جزءا من النظام القائم ومندمجا فيه تماما •

والغاء جانب المنازعة من حياة الأفراد انما يشكل اعتداء حقيقيا على حرية الفرد • فوسائل الاغراء والترغيب التى تمارس على ارادة الفرد لا تقل خطورة عن القهر • ففى الحالتين ، يجد الفرد نفسه أعزلا فى مواجهة مجتمع جبار يفرض عليه آراءه وحكمه • وهذا يذكرنا بـ « الخوف من الحرية » • فالانسان الحديث بعد أن قضى على جميع المؤسسات التى كانت تتحكم فيه فى العصور القديمة والعصور الوسطى ، وبعد أن تحرر من نفوذ الكنيسة والتقاليد القديمة وأرسى قواعد العلوم الوضعية ومجد العقلانية ، أعتقد أنه قد تحرر تماما ووجد الحرية التى يحلم بها ــ وبذلك يكون قد خلق عالما يسوده الانسان •• ولكن فرحته لم تطل ، اذ سرعان ما اكتشف عجزه عن مواجهة المجتمع ، والى أى حد لا يستطيع أى فرد أن يفعل أى شىء • وهنا نستطيع أن نفهم لماذا يتنازل شعب مثل شعب ألمانيا عن حريته لدكتاتور مثل هتلر ، أو على

الأقل هكذا يقول لنا اريك فروم • ولحسن الحظ كان رد الفعل عند الطلبة الفرنسيين مختلفا ... وكانت الثورة ولم تكن الفاشية ... ولكن خطر الفاشية لم يكن مستبعدا • فكثير من الأفراد يفضلون السهولة ، والحرية ليست أمرا سهلا ، ومن هنا كان التنازل عنها أسهل من استخدامها•• وهو ماسنعرض له بالضرورة عند الكلام على موقف « حزب الخوف » في الانتخابات التي تلت أحداث مايو في فرنسا •

٨ ـ السمات الخاصة « لمجتمع الطلبة » :

ويحتل الطلبة في هذا المجتمع مركزا خاصا يسمح لهم بمنازعته • فاذا كان الاتجاه الغالب في « مجتمع الاستهلاك » هو نحو مزيد من الاندماج والغاء جانب المنازعة والرفض ، الا أن الطلبة بحكم تكوينهم الثقافي وبحكم المثالية التي تحكم سلوكهم يكونون بعيدين بعض الشيء عن الاتجاه الغالب في هذا المجتمع • ولذلك نرى الطلبة في جميع دول العالم يمثلون فئة مستقلة بعيدة بعض الشيء عن المشاكل اليومية ، مما يسمح لها بالقيام بوظيفة الضمير والحساب • وهو أمر يكاد يصبح مستحيلا عند الطوائف الأخرى بالنظر الى المسئوليات التي يتحملونها ، وبالنظر الى الكسب المادي المستمر الذي يحققونه• وبعبارة أخرى فان « مجتمع الطلبة » لا زال يمثل عنصر الطهارة ، وربما يمكن أن نقول العذرية في وسط مجتمع فقد عذريته واستراح الى جانب الكسب المادي والاندماج على حساب المنازعة ، والرفض • ومما يسهل مهمة الطلبة بعدهم عن المشاكل اليومية وانصرافهم الى الدراسات النظرية • والواقع أن الطلبة يوجدون خارج حلقة الانتاج بالمعنى الضيق • ومن الواضح أن هذا النوع من الحياة يحفظ لهم استقلالهم في مواجهة المجتمع ويمكنهم أكثر مما يمكن غيرهم من مناقشة المبادىء التي يقوم عليها • كذلك ينبغي ألا ننسى أمرا هاما ، وهو انعدام المسئولية الشخصية لدى الطالب ، ومحاولة ملء هذا الفراغ بمسئولية أشمل وأنبل ، المسئولية عن مستقبل الانسان بأكمله • فالطالب الذي لا يتحمل حتى مسئولية نفقاته الخاصة يجد نفسه في الواقع مشغولا

بمستقبل العالم ٠٠ ومن ناحية أخرى فان انعدام المسئولية الشخصية لدى الطالب يجعله أكثر صمودا للدفاع عن المبادىء ورفض أى مصالحة فيها • ولذلك سنجد أن الطلبة فى أحداث مايو كانوا دائما أكثر اقداما من العمال ، وفيما بين العمال كان الشباب أكثر اقداما أيضا •

وفى كل هذا نجد ن « الطلبة » أكثر من غيرهم قدرة على الاحتفاظ بمسافة معينة من « مجتمع الاستهلاك » مما يمكنهم من منازعة هذا المجتمع • فالاتجاه الغالب نحو تحقيق « الانسان ذى البعد الواحد » يجد صعوبة فى « مجتمع الطلبة » • وهكذا نجد « مجتمع الطلبة » خارجا بعض الشىء عن مقتضيات « مجتمع الاستهلاك » ، فهم غرباء عنه • ولذلك فهم أكثر الطبقات ثورية • واذا كان ماركس قد حدثنا عن ثورية طبقة « البروليتاريا » فينبغى أن نتذكر الأصل الذى جاء منه هذا الاصطلاح • ان اصطلاح « البروليتاريا » كان يعنى عند الرومان : الأجانب عن المدينة ، والذين لا يتمتعون تبعا لذلك بحق الملكية • وقد رأى ماركس أن العمال يعتبرون فى الواقع، خارجين عن المجتمع الرأسمالى ، لأنهم لا يتمتعون بحق الملكية • ولنا أن نتساءل اليوم عما اذا كانت هناك حاجة الى العودة الى المعنى الأصلى للبروليتاريا ، فهم الأجانب عن المدينة ولو تمتعوا بحق الملكية • فالطلبة فى الجامعات ، وهم أبناء الطبقات المستريحة ، هم أكثر العناصر ثورية فى المجتمعات المتقدمة • فقد لاحظ أحد أساتذة كلية الآداب بنانتير أن الطلبة الذين يثورون على « المجتمع الرأسمالى » هم أنفسهم أكثر المستفيدين من هذا المجتمع ، فعدد السيارات الخاصة أمام كلياتهم أمر يثير الطبقات الفقيرة حقا •• ولكن هذا الاستاذ نسى أن هؤلاء « الأغنياء » ، أجانب عن المجتمع الذى يعيشون فيه ، فهم غرباء ، أو اذا شئت هم « البروليتاريا » الجديدة فى المجتمعات المتقدمة •

وقد علمتنا الماركسية انه لكى نتكلم عن « الطبقة » لابد أن يكون هناك « وعى طبقى » • وقد تحدثنا عن « طبقة الطلبة » ، فماذا عن الوعى الجماعى: الحق أن أهم أحداث مايو ، فى نظرى ، هو مولد طبقة جديدة هى « طبقة

الطلبة » ، وظهور وعي جماعي جديد بين هؤلاء • وهذه الطبقـــة الجديدة ــ ليس بالمعنى الذى نتحدث به عندنا فى مصر عن « الطبقة الجديدة » ــ فقددخلت المسرح السياسى وسوف تؤثر فى الأحداث العامة ، كما فعلت « الطبقة العاملة » عندما دخلت المسرح السياسى فى القرن الماضى • وقد كانت الفكرة السائدة هى أن وجود الطلبة مع بعضهم البعض وجـــود عرضى ، كما يوجد عـــدد من الركاب فى سيارة أتوبيس مثلا ، فلا يمكن أن نتحدث عن وعى جماعى بينهم ومن ثم عمل جماعى •• وكانت الفكرة السائدة هى أن مركز الطالب الثورى يتحدد بمركزه الاقتصادى أو بعبارة أدق بالمركز الاقتصادى لعائلته • وهـذا كله كان قائما ، ولكنه تغير بعد أحداث مايو • فقد أثبتت هــذه الأحداث أن هناك وعيا جماعيا بين الطلبة واحساسا كاملا بالتضـــامن بينهم • فحركة ٢٢ مارس كانت بعيدة عن أن تكون ممثلة لأغلبية الطلبة ، ومع ذلك فبمجرد أن تعرض بعض أفرادها لعنت السلطة خرج جميع الطلبة للاحتجاج ، فالتضامن بين الطلبة يغلب على أى شىء • وبعبارة أخرى نجد هنا المثل الــدارج : أنا وأخويا عـــلى ابن عمى ، وأنا وابن عمى عـلى الغريب • كذلك فان أوامر « الاتحاد الوطنى لطلبة فرنسا » .U.N.E.F بالخروج والتظاهر فى مكان ما وفى ساعة معينة ، كانت تنبع من جميع الطلبة دون استثناء ، رغم أن هـــذا الاتحاد ، قبل الأحداث ، كان محل تشكك الكثير من الطلبة ، ولم يكن هناك أى اجماع على الاعتراف بسلطته التمثيلية • ولكن هنا أيضا المسألة تتعلـــق بتضامن الطلبة فيما بينهم فى مواجهة السلطة • وبطبيعة الأحوال فان هنـــاك عدة اعتبارات ساعدت على تقوية الوعى والتضامن بين الطلبة ، ولعل أهمها كما سنرى الدور الذى تقوم به وسائل النشر والاعلام • فرغم الاعتراضات التى وجهت الى الاعلام ، وأغلبها على حق ، فان هذه الوســـائل سهلت تحقيـــق التضامن بين الطلبة وربطهم بعضهم ببعض • فأوامر الاتحاد كانت تنقل ساعة بساعة بل لحظة بلحظة عن طريق الراديو • وهنا قام « راديو أوروبا رقم ١ » وراديو لوكسمبرج بدور هام ، اذ بعدم خضوعهما للحكـــومة ، باعتبـارهما مشروعات خاصة ، قد تحررا من كل قيود مجاملة السلطـــة • وفى الوقت

نفسه سهلت الصحافة هذه العملية أيضا • وسوف نشير الى أن الطلبة قد قاموا هم أيضا بتنظيم حركة اعلام مستقلة وفي غاية الكفاءة عن طريق النشرات والصحف التى أصدروها • ومن الأسباب الموضوعية التى ساعدت على خلق هذا التضامن بين الطلبة ، احساسهم بالضياع في وسط « مجتمع الاستهلاك »، وحاجتهم الى الاتصال والاندماج ، وقد وجدوا فيما بينهم رابطة قوية تعوضهم عن العلاقات اللاشخصية التى يفرضها عليهم « مجتمع الاستهلاك » ، كما سنرى •

ولم ينجح الطلبة فى تكوين وعى جماعى وتحقيق التضامن فيما بينهم فحسب ، وانما وصلوا ، أو كادوا ، الى ما لم يصل اليه العمال بعد ، وهو « الدولية » أو « الأممية » • فالتضامن بين الطلبة لم يقتصر على الطلبة الفرنسيين ، وانما جوز ذلك الى جميع الطلبة بما فيهم الأجانب ، بل قامت عدة مظاهرات تضامن من الطلبة فى الدول الأخرى • فعند تحريم دخول فرنسا لكوهن بنديت ، اشترك الطلبة الفرنسيون مع الطلبة الألمان عبر الحدود لمحاولة ادخاله بالقوة ثم بالحيلة • كذلك قامت المظاهرات فى الدانمرك وفى ألمانيا وفى ايطاليا لتأييد زملائهم فى فرنسا • والواقع أن العلاقات بين الطلبة الفرنسيين والطلبة الأجانب تحتاج الى وقفة • فسوف نشير فيما بعد الى أن منازعة الطلبة للمجتمع « الذى يعيشون فيه » و « العلاقات التجارية » الى تحكم نظرته للأمور قد جعلت كثيرا من الطلبة الفرنسيين يتجهون الى دول العالم الثالث كنوع من البحث عن هدف ومثال أعلى • ومن الملاحظات التى تستحق النظر هو أن الحكومات ، فى جميع الدول ، ما أن تواجه بحركة طلابية حتى تسارع الى الاشارة الى وجود عناصر أجنبية • فمحافظ بوليس باريس أسرع ببيان وجود طلبة أجانب بين المتظاهرين ، وهم فى نظره المسئولون عن الأحداث ، ولم تتردد صحف أقصى اليمين فى الاشارة الى اليهودى الألمانى كوهن بنديت باعتباره المسئول ، وحتى صحيفة الحزب الشيوعى استخدمت هذا التعبير • وسوف نرى أن موقف الحزب الشيوعى فى فرنسا من الأحداث كان غريبا ، مما دعا سارتر الى القول بأنه يمثل فى الواقع تواطئا موضوعيا مع

السلطة في الأهداف . كذلك نسبت أحداث الطلبة في ايطاليا ثم في المكسيك الى بعض العناصر الطلابية الأجنبية وبصفة خاصة الى الفرنسيين . والاستمرار مع هذا المنطق الذي تتمسك به أغلب السلطات ، معناه أن الطلبة لايثورون على المجتمع الذي يعيشون فيه الا اذا وجدوا في الخارج .. وأيا ما كان الأمر فان التضامن بين الطلبة حقيقي ، وهو يتجاوز في كثير من الأحوال الحدود السياسية : يا طلبة العالم اتحدوا .

٩ - ظاهرة « الاغتراب » في مجتمع الاستهلاك :

وعلينا الآن أن نتناول بعض مظاهر « مجتمع الاستهلاك » التي أثارت حالة القلق والضياع بين الطلبة وكانت سببا في قيام حركة « المنازعة » التي أشرنا اليها .

ان « مجتمع الاستهلاك » هو في الواقع النجاح الأكبر للثورة التكنولوجية والتقدم العلمي كما طبق في الحضارات الغربية حتى الآن ، وربما يكون هذا هو السبب الذي من أجله تحاول دولة منتمية الى حضارة أخرى (الصين) أن تصل بالثورة التكنولوجية والتقدم العلمي الى صورة مختلفة للانسان (الثورة الثقافية) . ولكن هذا ليس موضوعنا ، وعلينا أن نرى مظاهر « مجتمع الاستهلاك » ، كما هي ، لا كما تحاول دولة أخرى أن تطبقه ..

الظاهرة الأولى والحاسمة هي القدرة الهائلة على زيادة الانتاج والانتاجية ، مما ترتب عليه زيادة الاستهلاك الفردي زيادة ضخمة ونقص ساعات العمل وزيادة الهوايات . وهذه القدرة على زيادة الانتاج وهذه الكفاءة قد خلقت في الواقع منطقا لا يمكن هدمه هو المنطق التكنولوجي ، فليس أقدر على اقناع الناس من منطق المهندسين ومنطق زيادة الانتاج . وقد أعطى هذا المنطق انطباعا كاذبا هو أن المجتمع الاستهلاكي هو المجتمع الوحيد المتفق مع المنطق ومع العقل . ولكن هذه الزيادة في الاستهلاك بدلا من أن تحرر الانسان أخضعته تماما لقوى مجهولة . فاذا كان العامل في القرن التاسع عشر

فقد حريته فى قسوة العمل الذى ينبغى أن يؤديه لصالح طبقة أخرى ، مما أمكن معه القول بأن العامل يعتبر فى الواقع « مغتربا » فى نظام الانتاج ، فاننا **نلاحظ أن الفرد فى القرن العشرين ، فى الدول المتقدمة ، قد فقد حريته فى سعيه الميكانيكى للحصول على السلع . مما يمكن معه أن نقول بأن هذا الفرد قد أصبح « مغتربا » فى نظام الاستهلاك** . ولنبين ذلك بمثال بعيد عن الموضوع ولكنه قريب من أذهان عدد كبير من المصريين الذين يسافرون الى الخارج ، نقول ان كثيرا من هؤلاء والذين تتاح لهم فرصة رؤية العالم الخارجى وعاداته ، ما أن يصلوا الى باريس أو لندن حتى تجدهم فى لافييت أو فى سلفردج أو مارك اندسبنسر . وتنقضى مدة « الاجازة السعيدة » أو « المهمة الخاصة » فى ممرات المحلات وفى البحث عن مجموعة غريبة من البضـــائع تتراوح بين السجاد الصينى وباروكة الشعر ، ولا بأس من زيارة سريعة الى اللـــوفر أو قلعة لندن ، فهذا مما تقتضيه أصول « التمتع » ، بالرغم من أن المتحف المصرى لا نعرف عنه الا انه فى مواجهة فندق الهيلتون .. هؤلاء بالطبع أتيحت لهم فرصة نادرة فى زيادة الاستهلاك (هنا السفر الى الخارج) وتنمية القـدرات الثقافية والنفسية ، ولكنهم أضاعوا هذه الفرصة فى الحصـول على مزيد من البضائع . وهنا ربما يصح أن نقول بأن الفرد قد « اغترب » فى الاستهلاك . فهو لم ير شيئا ، ولم تتطور قدراته .

وهذا المثال القريب من أذهان الكثير منا ، انما يعبر فى الواقع عن مشكلة الحرية مع زيادة الاستهلاك فى الدول المتقدمة . فقد كان حلم الانسان منـذ زمن بعيد هو أن يستطيع أن يتخلص من عبء حاجاته الضرورية . فالجائع والمريض لا يستطيع أن يتمتع بالحرية . وقد استطاع الفرد فى الدول المتقدمة ، أو على الأقل فى عدد كبير منها ـ أن يتخلص من عبء حاجاته الضرورية ومع ذلك فقد حريته .. وهذه هى المأساة التى يعيشها العالم المتقدم الآن .

ومن أهم الشعارات التى ظهرت أثناء ثورة مايو وأعمقها : « **الخيال يأخذ السلطة** » . فبعد أن احتل الطلبة الكليات وحرموا على البوليس دخول « الحى

اللاتينى » ذهبوا رافعين هذا الشعار لاحتلال مسرح الاوديون واعلان انتهاء الثقافة البورجوازية ..

« الخيال يأخذ السلطة » .. ماذا يعنى ذلك ! الواقع أن « المجتمع الاستهلاكى » بقدرته الفائقة على زيادة الانتاج ، قد نزع الخيال من الغالبية العظمى من الأفراد وحرمهم من القدرة على تحقيق الحرية الشخصية . فالخيال أصبح من عمل قلة محدودة جدا توجد على رأس المشروعات الضخمة التى تسيطر على حياة الأفراد وأذواقهم ، فهى من عمل عدد محدود من المشتركين فى تصميم شكل السيارة الجديدة التى يجب على الأفراد شراؤها ، وهى من عمل عدد محدود من المسئولين عن وكالات السياحة التى تبين البلاد التى يجب زيارتها « للاستمتاع » بالاجازة ، وهى من عمل عدد محدود من المشرفين على دور النشر والاعلام الذين يبينون نوع الأفكار التى يجب أن يتداولها الأفراد والمعلومات التى يجب أن يعرفوها .. وهكذا . أما الغالبية العظمى فلا شأن لها بالخيال والتعبير عن ذاتها ، فهى أغلبية كسولة ، أو هكذا ينبغى أن تكون . « سيارة السباق » لم تعد قاصرة على الهواة والأغنياء وانما أصبحت فى متناول الجميع . ولذلك يجب أن يشتريها كل فرد ، والانتاج كاف والحمد لله لاشباع هذا الطلب المتزايد . أما السياحة فيجب أن تكون بالذهاب الى أسبانيا فهى بلد رائع الجمال ورخيص التكاليف أيضا ، وبالطبع لن يجد الفرنسى هناك أى أثر لاسبانى ، فأسبانيا فى الصيف مستعمرة فرنسية .. كذلك هناك سنوات أوربا الشرقية : يوغوسلافيا ورومانيا .. فهى بلاد مجهولة ولكنها جميلة أيضا ، وهناك أيضا سوف لا تجد الا فرنسيين فقط وربما بعض اليوغوسلافيين .. وينبغى على كل فرنسى أن يقرأ « التحدى الامريكى » لجان جاك شربير ، فهذا كتاب فريد فى نوعه ركزت صحافة الاكسبريس عليه حتى بلغ توزيعه أكبر توزيع عرف فى فرنسا .. وهكذا أصبح شأن الفرنسى فى « مجتمع الاستهلاك » ، فقد كل اهتمام بتنمية قدراته الخاصة ، وليس عليه الا أن يتتبع « السلوك الواجب » .

ومن هنا نرى أهمية شعار « الخيال يأخذ السلطة » ، فهو يعبر عن الرغبة في الوصول الى نوع جديد من الحياة غير هذا الذي يعدنا به مجتمع الاستهلاك، حياة بلا خيال . ولذلك أيضا نستطيع أن نفهم لماذا سافر بعض الطلبة الى البلاجات حيث المصيفون المستريحو البال ، وهناك بدأت مناقشات غريبة . أخذ الطلبة يقنعون هؤلاء المصطافين « السعداء » بأنهم في الواقع غير سعداء ، بل هم في غاية الشقاء بذهابهم الى البحر . وعندما نفكر لانجد في ذلك غرابة حقيقية ، فالعامل ، وخاصة في الدول المتقدمة ، بعد عمل مستمر لمدة سنة ، وبعد الحياة المملة في المدن الصناعية الكبرى ، وما فيها من زحام شديد وضغط عصبي ، هذا العامل يحتاج في الواقع الى الراحة . انه في حاجة الى اجازة . ولعل أحد مزايا « مجتمع الاستهلاك » هو قدرته على تخفيض ساعات العمل ، ومن ثم زيادة الاهتمام بالهوايات ، ولذلك يحلو للبعض أن يسموا هذا المجتمع « مجتمع الهوايات » . هذا كله معقول ومفهوم . ولكن ماذا يحدث عندما نريد الذهاب الى الاجازة والافادة من وقت « الهواية » ؟ يجب أولا البحث عن وكالات السياحة فانها تنظم رحلات رخيصة و « جميلة » . ويجب الاشتراك في هذه الرحلات في وقت مبكر وقبل الاجازات حتى لا تتعرض لمشكلة عدم وجود الأماكن . وبعد ذلك ينبغي الاستعداد لهذه الاجازة بنوع خاص من الملابس . فلكل مكان تقاليده .. البحر له « موضته » وحاجته ، والجبل أيضا .. ولا يمكن الخلط بينهما . وبذلك تصبح الاجازة « مشكلة » ينبغي الاستعداد لها ولا يمكن أن تقرر هكذا بسهولة . ومتى وصلت الى البحر أو الى الجبال فهناك عدد معين من الطقوس التي يجب أن تفعلها والا .. فلماذا حضرت ؟ . على البحر لابد من حمام شمسي ، والأهم من ذلك لابد أن تنتهي الاجازة وقد أصبح لون بشرتك « برونزيا » (والحديث هنا عن الاوربيين طبعا ، أما عندنا في مصر فلا زالت معايير الجمال بخير ، البياض هو جوهر الجمال ..) ولكن تصبح « برونزيا » حقيقيا فلابد من استخدام عدد من المساحيق . وليس هناك من خطر اذا نسيت أسماء هذه المساحيق ، فالراديو يكررها كل عشر دقائق ، وجميع الجرائد تعطيها حقها من الاعلان .

استخدام المساحيق يستدعي بالطبع أن يقوم رفيق لك بعملية التدليك — لكي تقوم أنت بتدليكه بعد ذلك (مبدأ العدالة ! و .) . كذلك لابد من القيام ببعض الرياضيات الساحلية ! وهنا يعتبر ركوب المراكب الشراعية أمرا حيويا .. وهكذا . أما من يذهبون الى الجبل ! فإن رياضة المشي ساعتين يوميا تعتبر من الطقوس المحترمة والتي لا يمكن اغفالها . واذا ذهبت الى فلورنسا في ايطاليا فيجب زيارة جميع المتاحف . فهذا نوع من التعبد .. وهنا تذكر عادة القصة التالية : ان احدى الباريسيات عند رؤيتها لأحد المتاحف في فلورنسا أبدت اعجابها الشديد بأحد التماثيل . وبعد أن سألها المرشد عن بلدها ، ذكر لها أن الأصل في اللوفر ... المهم هذه هي الاجازة كما يقدمها « مجتمع الاستهلاك » . ولا ننسى طبعا أننا اذا كنا نهرب من الزحام في المدن الكبرى الصناعية ونشد الراحة فإن هناك تقليدا متبعا وهو أن جميع الناس يسافرون في الاجازة في شهر أغسطس لينقلوا الزحام معهم الى حيث الاجازة ! أما باريس أو لندن فهي مفتوحة للزائرين الأجانب فقط . وبعبارة أخرى يترك أهل باريس بلدهم في اللحظة الوحيدة التي يمكن العيش فيها بلا زحام .. وان كنت أنا شخصيا لا أحبها أيضا في أغسطس .. فأنا ولا شك ضحية لهذا المجتمع .

وفي مثل هذه الظروف نستطيع أن نفهم سلوك الطلبة حين يحاولون ، وبنجاح ، أن يقنعوا كثيرا من المصطافين بأنهم « قرفانين » في الواقع .

ومجتمع « بلا خيال » — على الأقل بالنسبة للغالبية العظمى — هو مجتمع « أبوي » تباشر فيه فئة « سلطة أبوية » على الغالبية — وهذه الظاهرة الأبوية تسيطر على كل مظاهر المجتمع . وقد سبق أن أشرنا الى أن أحد مطالب الطلبة هو الغاء أسلوب التعليم القديم . ونقول هنا أن أحد خصائص هذا الأسلوب هو أنه تعليم أبوي ، لا مشاركة حقيقية من جانب الطلبة فيه ، فهو دور سلبي محض يتلخص في تلقي قدر من المعلومات ، وعليه أن يخرج هذا القدر أو ما يقدر عليه في ورقة الامتحان . فالتعليم عبارة عن عملية تلقين

« حقائق » من الاستاذ ، وتلقى من الطالب ، دون مناقشـة وحوار • وهـذا الأسلوب « الابوى » لا يقتصر على التعليم ، فقد أشرنا الى أن جميـع مظاهر الحياة تنظيمها قلة أبوية للغالبية الكسولة التى تتبع فى سـعادة وراحـة بال ارشادات « الوالدين » • واذا كانت « السلطة الابوية » داخل الأسرة تهتز عندما يعى الطفل وجوده وعلاقته مع العالم الخارجى فى فترة المراهقـة ، فان « المجتمع الأبوى » لابد وأن يواجه المشاكل نفسها مع زيادة الوعى • وهذا هو ما حدث بالفعل •

ومع ذلك فان « المجتمع الأبوى » الذى يخلقه « مجتمع الاستهلاك » يختلف عن « السلطة الأبوية » داخل الاسرة • فالسلطة الابوية داخل الاسرة علاقة « شخصية » ، فى الاصل ، تتحدد فيه علاقة الاب مع كل واحد من ابنائه ، وهناك معرفة شخصيه تامة بين الجميع ، ولا تكاد توجد سلطة ابويه مجردة داخل الأسرة ، وانما علاقات محددة بين الاب وكل واحد من أبنـائه • هذا الطابع الشخصى يختفى تماما فى « مجتمع الإستهلاك » ، فاذا كانت هنـاك سيطرة أبوية فهى سيطرة غير شخصية ، فالأفراد لا يوجدون فى مواجهة « الآباء » فى المجتمع الاستهلاكى باعتبارهم اشخاصا وانما باعتبارهم ارقاما ، ومن هنا الاهمية الزائدة التى يحتلها علم الاحصاء فى مجتمعنا • فكل ما نعرفه عن هؤلاء الأفراد هو ان ٦٠٪ من الفرنسيين يحتفلون أجازاتهم فى شهر أغسطس ، وان ٦٠٠٫٠٠٠ قارىء اشترى كتاب « التحدى الامريكى » ، وان سيارات رينو قد زادت مبيعاتها بنسبة كذا ••• وهكـذا • فالانسان يختفى تماما فى « المجتمع الاستهلاكى » ويحل محله رقم معين • وهذه تعتبر احدى نتائج تأليه العلم • فالعلم ، كما رأى البعض ، هو ما يمكن قياسه ، والانسان لا يقاس الا بالعد • كذلك فان ظاهرة استخدام العقول الحاسبة تتفق تماما مع تخفيض الانسان الى مجرد رقم • وفى مثل هذا الجو من العلاقات اللاشخصية نستطيع أن نفهم المضمون الحقيقى لبعض المطالب التى رفعت أثناء أحداث مايو •

لفظا « الحـوار » أو « المشاركة » ، كلتاهما من أهم الألفاظ المستخدمة

وهما يعبران عن الرغبة فى التخلص من الجانب الأبوى فى المجتمع الاستهلاكى من ناحية ، وفى ضرورة اعتراف بالجانب الشخصى فى العلاقات الاجتماعية من ناحية أخرى . فالديمقراطية الحقيقية لا تقتصر على تقرير حق الانتخاب بالعام واباحة الاضراب واقامة برلمان ، وانما تقتضى « الحوار والمشاركة » الحقيقية فى جميع المستويات ، فى المشروعات وفى الجامعة . لابد من اقامة وسائل للاتصال بين الأفراد فى هذا المجتمع اللاشخصى . و «الحوار» و « المشاركة » يقصد بهما فى الواقع اعادة الاعتراف بالوجود الشخصى للانسان ، ولا يكفى أن يقتصر دوره على مجرد الاشتراك فى تكوين «أغلبية» أو « أقلية » ، وانما يجب الاعتراف به شخصيا واقامة « الحوار » معه وتقرير حقه فى « المشاركة » فيما يهمه من أحداث .

ونود أن نشير هنا الى الاحساس المتزايد بين الأفراد فى « مجتمع الاستهلاك » بنقص القدرة على المشاركة والاتصال بالآخرين . فالفرد وحيد فى وسط جمع من الناس ، لا تقوم اتصالات حقيقية بينه وبينهم ، وانما هناك مجموعة « الرموز » المتعارف عليها والتى لا تعبر بالضرورة عن حقيقة كل واحد . ومن هنا نستطيع أن نفهم هذا النجاح الذى يحققه التيار الأدبى الذى يهتم بشرح خفايا النفس (التروبزم) أو بيان عزلة الانسان وعدم جدوى الاتصال بغيره لأنه لا وسيلة لذلك ، **فاللغة قاصرة** . اللغة لا تصلح الا لبيان ما يلزم لسير الأمور وتأدية بعض الوظائف . ومن هنا نجد النجاح الكبير لكل فروع « بحوث العمليات » . فما يهم هو « تأدية الوظيفة » وليس « الشىء فى ذاته » ، وهو ما يصلح بوجه خاص للانتاج المادى ، ولكنه للأسف بعيد عن أن يحقق سعادة انسان . وفى ضوء هذا نستطيع أن نفهم الشعار الذى كتب على جدران كلية الآداب (فرع سانسيه) : « أريد أن أقول شيئا ، ولكنى لاأعرف ماذا .. » .

ومن الطبيعى أن تظهر الحاجة فى مثل هذا الجو ، الى لغة جديدة وأدب جديد . وهذا هو ما حدث بالفعل ، فجرائد ونشرات المتظاهرين تداولتها

الأيدى فى هذه الفترة على نطاق واسع • ولا بأس من ظهور كلمات جديدة• اذا كان المجتمع المحافظ يطلق على المتظاهرين اسم « المسعورين » لكى يجردهم من كل عطف من جانب الأهالى ، فان الطلبة من جانبهم يقبلون هذه التسمية : نحن فعلا « مسعورون » • وتشتق كلمات جديدة من هذا الأصل ، فيكتب على جدران مدرج الموسيقى بنانتير « انسعروا » ، وتظهر أهم صحف الطلبة وهى « المسعورون » • أما وسائل الاعلام التقليدية فانها محل انتقاد شديد • انها أداة فى سبيل استعباد الأفراد ، وتلقينهم جزءا من الحقيقة وليس كلها • الراديو والتليفزيون وسيلة يستخدمها الحاكم لينفذ بها ما يريد دون ان يكون هناك أى مجال « للموضوعية » • ولكن « الموضوعية » أمرها صعب ولا أحد يعرف بالضبط ماذا تعنى ، على الاقل يجب أن يكون هناك نوع من « الأمانة » فى سرد الوقائع والمعلومات • وهذا بالضبط ما لا تفعله وسائل الاعلام التقليدية • ولذلك لم تلبث الحركة أن مست العاملين بالراديو والتليفزيون ، فيقررون الاضراب ويطالبون « بالموضوعية » أو « الأمانة » • ان مشكلة الاعلام والاتصال بالآخرين هما فى صلب قضية الحرية •

١٠ ــ لماذا فرنسا بالذات ؟ :

ولكن لماذا نشبت الثورة فى فرنسا وليس فى مكان آخر ؟ ان حركات الطلبة قد شملت جميع أجزاء العالم ولم تستثن بقعة منها • الطلبة ثائرون فى بركلى ضد المجتمع الامريكى والحرب فى فيتنام ، وتحركوا فى براغ وبلجراد لمزيد من الحرية ، وفى برلين بلغت حدة الحوادث شأنا كبيرا ، وهوجم رودى دوتشك زعيم الطلبة اليساريين فى ألمانيا حتى يكاد يفقد حياته ، وفى الجزائر وايطاليا والمكسيك ومصر واسبانيا وبولندا ومنذ سنوات فى اندونيسيا •ولكنها لم تصل فى أى من هذه الدول الى الحدة والعمق اللذين عرفا فى فرنسا ، فلماذا ؟

الواقع أن ما حدث ويحدث ، هو أزمة حضارة ، وثورة للحرية خالية من كل القيود • وقد سبق أن أشرنا الى بعض الظروف التى ساعدت فرنسا

على التعبير ، أكثر من غيرها ، عن هذه الأزمة • ولكننا نود هنا أن نشير الى عامل هام وهو : **التراث الثورى فى فرنسا** .

قال توينبى فى محاضرة فى احدى الجامعات الامريكية عن « الثورة فى العالم » ـ أن هذه الثورة بدأت فى الولايات المتحدة الأمريكيـة مع حرب الاستقلال ، ومعها ظهر اول اعلان لحقوق الانسان • ومن هذه البداية بدأت عدة حلقات للثورة فى العالم : « الثورة الفرنسية » فى أوروبا الغربيـة ثم « الثورة الروسيه » فى اوروبا الشرقيه وبعض اجزاء اسيا ، ثم ثورة « العالم الثالث » فى الدول المتخلفة • وهو يرى ان الدائرة بدأت تكتمل لكى تحدث « الثورة الجديدة فى امريكا » • وبطبيعه الاحوال يستطيع مؤرخ اخر ، وربما توينبى نفسه فى جامعه اخرى ، ان يقول الشىء نفسه بالنسبه الى ايه حركه مرت فى العالم مع تغيير فى الافق التاريخى الذى ناخذه فى الاعتبار • فمن يوسع هذا الافق يستطيع ان يبدا بالمصريين ، ومن يضيقه يمكن ان يكتفى « بحركة ٢٢ مارس » • وايا ما كان الامر فان عبارة توينبى تصدق تماما مع ... الثورة الفرنسية محل الثورة الامريكيه • فالتراث الثورى فى فرنسا قد خلق لدى الفرنسيين نوعا من الحنين الدائم الى الثورة ، وقد اضفى ذلك على الثورة طابعا رومانسيا قد لا نجده عند الكثيرين من غيرهم • ويكفى فى ... الصدد ان نشير الى « المتاريس » والاثر السحرى الذى له فى النفوس • فبمجرد أن وضع بعض الطلبة نوعا من المتاريس لتاخير تقدم رجال الامن ، وبمجرد ان ذكرت عبارة « المتاريس » حتى تحول الشعور كلية وساد شعور ... : انها الثورة ، الباستيل •• كذلك فان الاعلام السـوداء لا تعنى فقط الفوضوية ، وانما تعنى ثورة ١٨٤٨ وتعنى « كومون باريس » ١٨٧١ • ان هذه الرموز البسيطة تثير لدى الفرنسى تاريخا حافلا بالثورات ، وليس مجرد متاريس وعقبات فى مواجهة البوليس ، وليس مجرد أعلام لأفكار مجردة ، وانما تشير الى تاريخ حى فى النفوس • ينبغى ألا ننسى أن للثورة جانبـا شاعريا رومانتيكيا •

كذلك ينبغى ألا ننسى أنه فى دولة مثل فرنسا ، معروفة بعمق الشعور

الوطنى ، فان الجيل الحالى من الشباب لم يحارب . الجيل السابق مباشرة واجهته مشكلة الجزائر ، واضطر الى الاشتراك فى أزمة ضمير عنيفة . ومن سبق هؤلاء قاموا بالمقاومة ، فالذين يحتلون المناصب الأساسية فى فرنسا الآن هم رفقاء المقاومة . وقبل ذلك كان كل جيل على موعد مع الحزب : حزب ١٨١٤ وقبلها حزب السبعين .. وهكذا ، ولذلك فان أحداث مايو ٦٨ كانت بالنسبة الى بعض الشباب ميدان المعركة ، وهكذا ظهر أبطالها . ويبدو أن فرويد لم يكن مخطئا تماما عندما ذكر أن الحروب ضرورة نفسية لاشباع غريزة الاعتداء عند الأفراد ، وبدون الحرب يمكن أن نواجه بحالة عامة من الانهيار العصبى ..

١١ ـ حركة تلقائية :

تناولنا فيما سبق بعض الأسباب التى نعتقد أنها أسهمت فى قيام « ثورة مايو » . وقد يبدو من ذلك أن هذه « الاحداث » كانت متوقعة او على الاقل كان يمكن توقعها . ولكن هذا غير صحيح ، فمن السهل أن يكون الانسان حكيما بعد الأحداث ويتناولها بالتحليل ويشرح اسبابها ، ولكن الامر قبل « الاحداث » غير ذلك تماما . فما حدث فى فرنسا لم يكن متوقعا ، لا من جانب الحكومة ولديها جهاز قوى وذكى لتحليل الامور ، ولا من جانب الأحزاب ، ولا من جانب النقابات . الجميع كان فى حالة ذهول ، ولذلك فان كثيرا من التصرفات كانت غريبة ويمكن ان توصف بالغباء . حقيقة كان هناك احساس عام بالضيق والثقل ، ولكن هذا شىء وتوقع قيام ثورة شىء آخر . وهذا ما يثير مسألة تلقائية الثورة .

ما يثار عادة بصدد قيام الثورات ضرورة وجود « تنظيم » قادر على ادارتها واتخاذ القرارات الهامة فى الوقت المناسب . وتعلم جميعا أفكار لينين وتروتسكى عن ضرورة « الحزب » فى مثل هذه الظروف . ولكن ما حدث فى فرنسا فى مايو كان مختلفا بعض الشىء ، فأحداث هذا الشهر انما هى تعبير تلقائى عن حاجة « القاعدة » ، دون أن يكون « للقيادة » أو « التنظيم » أى

دور خطير فيها • بل اننا نقول أن أحداث هـذا الشهر قد وقعت بالرغم من هذه « التنظيمات » وعلى غير هواها دائما • فلا الحزب الشيوعى ولا نقـابات العمال قد قادت الحركة ، بل العكس هو الصحيح، بمعنى أنها انساقت وراءها، وفى كثير من الأحيان حاولت عرقلتها • فالحـزب الشيوعى ونقابات العمـال حذرت أكثر من مرة من العناصر « المغامرة » التى تجر الشباب وراء شعارات « شبه ثورية » •

كذلك ليس صحيحا أن زعماء حركة الطلبة ، كوهن باندت ،وسافاجو، وجيزمار ـ هم الذين وجهوا الأحداث ، وانما الصحيح أن الأوامر التى كانوا يعطونها كانت تتبع لأنها فى اتجاه رغبات « القاعدة » • « فحركة ٢٢ مارس » وعلى رأسها بنديت ، ليس لهـا أى صفة تمثيلية ولا تعبر عن أى نوع من الاغلبية ، ومع ذلك باشرت تأثيرا هاما فى الأحداث لأنها كانت تعبر ، بنوع ما، عن رغبات « القاعدة » • كذلك كان « الاتحـاد الوطنى لطلبـة فرنسـا » U.N.E.F. بعيدا عن أن يعتبر ممثلا للحركة الطلابية ، فصفته التمثيليـة منازعة من أكثر من جانب ، ومع ذلك فان جاك سوفاجو قد نجح فى تجميع عدد ضخم جدا من المتظاهرين فى استاد شارلتى بالرغم من مقاطعـة الحزب الشيوعى والاتحاد العام للعمال • وبالمثل فان النقابة الوطنية للتعليم العـالى S.N.E.S,U,P, وعلى رأسها جيزمار قد قامت بدور أخطر كثيرا مما تمثله هذه النقابة ، لأن جيزمار نجح فى التعبير عن حاجات القاعدة •

ومع ذلك فان نجاح « حركة مايو » وهو نجاح نسبى بالطبع بالرغم من عدم وجود « تنظيم » انما يرجع الى كثير من الاعتبارات المسـاعدة التى قد لا تتوافر فى مكان آخر • وأهم هذه الاعتبارات **جهاز الاعلام** الذى وضع تحت يد الطلبة • فهناك اذاعات « لوكسمبورج » وأوروبا التى أرسلت مراسليهـا بأجهزة التسجيل والارسال فى وسط المظـاهرات ـ مراسـلين ثورة مثل المراسلين الحربيين ـ ليسجلوا لحظة بلحظة الأحداث ونقلها الى الشعب ، وفى الوقت نفسه تسهيل عملية نقل « أوامر » التجمع والتفرق وغير ذلك • وهناك

أجهزة الميكرفون المتحرك الذى استخـــدمه المتظاهرون لتنظيم « الأوامر » • وهناك كذلك النشرات والصحف التى أصدروها • وبعبارة أخرى فان هناك نظاما كاملا من الاعلام منع من حصر أحداث الطلبة بعيدا عن الشعب ، وأكد فى الوقت نفسه عملهم الجماعى • كذلك ينبغى أن نشـــير الى انه بالرغم من أعمال القهر والتعسف التى استخدمها البوليس ضد الطلبة ، فان تقاليد المجتمع وضعت حدا معينا لهذه الأعمال لا يمكن مجاوزتها دون اثارة الرأى العـام ، وربما عصيان رجال السلطة أنفسهم • ومن الامور الجديرة بالنظر ان موجة الاضرابات والتى عمت فرنســـا انتقلت الى رجـــال البوليس الذين هـددوا بالاضراب اذا تجاوز القهر حدا معينا •

كذلك فان الحكومة بذهولها التام أمام الحركـة تصرفت بتردد وبغبـــاء شديد أحيانا ـ وان كان بعض الخبثاء يرون أن الحكـــومة ارادت ذلك حتى تحقق نجاحا أخيرا بعد اثارة الخوف فى جزء من الشعب ، وهو ما حدث •• ـ..ه نظرة خبيثة جدا فى الواقع وشيطانية ايضا ، ولكن من يدرى •• المهم ان الحكومة بتصرفاتها قد ساعدت على تفاقم الوضع • فمن ناحية وسائل القهر المستخدمة كانت فى أغلب الأحيان اكثر مما يستدعيه مجرد حفظ الأمن ،وقد أدى ذلك الى اثارة الشعور ضدها ، وبدأت حلقة مفرغة من الانتقـــام ومن القهر • كذلك فان رد فعل الحكومة كان متأخرا بصفة مستمرة • فاذا طالب الطلبة بتسريح المتعقلين واخلاء السربون ، فان الحكـــومة ترفض ، وبعد أن تقوم حركة المطالبة باستقالة الحكومة وتكوين حكومة شعبية واجـــابة طلبات العمال ، فان الحكومة توافق على مطالب الطلبة : اخــــلاء السربون وتسريح المعتقلين • ولكن بعد فوات الوقت ، فالمشكلة أصبحت سياسية ومتعلقة بالنظام القائم • وهكـــذا دائما كان تصرف الحكـــومة متأخرا مما ســـاعد على تفاقم الأوضاع •

واذا كانت المنظمات التقليدية ـ الأحزاب اليسارية الكبيرة والنقابات ـ لم تستطع أن تؤدى دورا قياديا فى حركة الطلبة فى شهر مايو ، فهل يرجع

هذا الدور الى المجموعات اليسارية الصغيرة التى تكونت ؟ الواقع أن هناك عديدا من المجموعات اليسارية المتطرفة التى أثرت تأثيرا كبيرا فى هذه الأحداث ، وكان لها على أى حال مريدون كثيرون وخاصة فيما بين الطلبة ، ولعل أكثر هذه المجموعات نجاحا الحزب الإشتراكى الموحد P.S.U. وهذه المجموعات تقف فى مجموعها فى أقصى اليسار ، فتهاجم الحكومة والحزب الشيوعى معا ، وتنسب حينا إلى تروتسكى وحينا الى ماوتسى تونج وحينا الى تشى جيفارا ، بالاضافة الى المجموعات الفوضوية والمجموعات الماركسية غير التقليدية .

ومع ذلك فانه من الصعب القول بأن هذه المجموعات اليسارية هى التى قادت حركة مايو ، فقد كان ينقصها النضوج الفكرى فى كثير من الاحيان ، وغالبا ما كانت تمثل نوعا من الرمزية لمنازعة المجتمع الحاضر . « الثورة مستمرة » لتروتسكى ، و « الثورة الثقافية » او « ثوره داخل الثورة » لماوتسى تونج ، واخيرا المثال البطولى للثائر تشى جيفارا ، بل هذه ولا شك تلهم جموع الطلبه بافكار ومبادىء تعارض المجتمع القائم . فهذه المجموعات ليست « قيادة » حركه الطلبة ولا تنظيما لها ، وانما جزءا من فلكلور الحركه .

واهم ما تميزه هذه المجموعات هو الرغبة فى البحث عن مثال ومبادىء جديدة بعد أن فقد الشباب كل المثل التى يتضمنها « المجتمع الاستهلاكى » . ويرى البعض أن حركه الطلبة انما تعبر عن مشكلة الضمير العلنى فى سبيل البحث عن ايمان جديد يؤلف بين الناس . ويشبه البعض العصر الحالى بنهايه الامبراطوريه الرومانية وظهور المسيحيه . بل ويصل التشبيه الى حد التذكير بان الرومان كانوا يحلقون شعورهم خلافا للمسيحيين الاوائل الذين كانوا يتركون شعورهم طويلة ، ويرون فى عادة تطويل الشعور لدى الشباب ما يذكرهم بهذه الفترة . فالهيبى هم مبشرو الديانة الجديدة .. ومن يدرى فلا حد لعجائب الزمان ! .

كذلك ينبغى أن نلاحظ أن الدول المتخلفة قد حظيت باهتمام شديد من

جانب الطلبة ، وأصبحت مشاكلها جزءا من المثال الذى يتطلع اليه الطلبة . فهناك اتجاه متزايد نحو تخطى الوطنية ـ بالطبع فى ميدان الأفكـــار وليس الواقع ـ الى نظرة انسانية شاملة . ويتأكد هذا المعنى اذا لاحظنا ، من ناحية مدى اشتراك الطلبة الأجانب فى حركة مايو وخصوصا طلبة الدول المتخلفة ، ومن ناحية أخرى الاهتمام بمشاكل هذه الدول وكيف أن معظم الأمثلة انما تؤخذ من ماوتسى تونج أو شى جيفارا .

١٣ ـ الخيال والواقع :

فى ١٣ مايو انسحبت قـــوات الأمن من السربون واندفع آلاف الطلبة وغيرهم الى جامعتهم التى كانت أقفلت فى وجوههم قبـــل ذلك بعشرة أيام . وبدأ احتلال السربون وكان قد بدأ منذ يومين فى فرع نانسيه ، وبعد ذلك انتشر فى أغلب دور العلم ، وسوف نشير الى احتلال المصانع فيما بعد . وفى هذه الأيام وما تلاها عاش الحى الـــلاتينى « ثورة الطلبـــة » أو « الكومون الجديدة » . فماذا كان الحال ؟ .

ان من شاهد « الحى اللاتينى » فى هذه الأيام يخرج باحساس واحد : **العيد** . البهجة والسعادة بادية على الجميع وأهم من ذلك حب الحياة والاستمتاع بها . الحى اللاتينى فى عيد .. مدرجات السربون تعقد مؤتمرات عامة مستمرة، وجميع أنواع اللجان المتصورة تقيم فى الحجرات المختلفة : لجنة الأمن ، لجنة الاعلام ، لجنة العلاقات مع دول القارات الثلاث ، لجنة الاتصال ، لجنة الاشراف على أطفال المشتركين فى الثورة ، ... الخ . وفى الوقت نفسه تعزف فرق الموسيقى فى القاعات الكبرى ، ومن لا يحب السياسة فانه يستطيع الرقص .. وفى الفناء مجموعات لا حصر لها من الأفراد التى تناقش جميع المسائل بلا استثناء ـ كل شىء أصبح مباحا : فجأة عاش الطلبـة بلا قيود . والاعلانات الموجودة على الجدران والتى تقول : « ممنـــوع لصق الاعـــلانات » غيرت وأصبحت « ممنوع المنع » .. جميع الأفكار لها الحق فى التعبير .

ان من شاهد الطلبة هذه الأيام يرى عجبا ، فهؤلاء الثائرون على المجتمع

مقبلون على الحياة بشكل غريب ، ثورة واقبال . وهذا ما يذكرنا « بالتمرد » لكامى . بل أكثر من هذا ، اننا نعرف أن الثورة هى انقطاع فى التاريخ ، هى فصل بين الماضى والمستقبل . ولكن الثورة أيضا ارتفاع عن التـــاريخ ، فهى لحظات أبدية يختفى فيها الحاضر والمستقبل ليكونا لحظة واحدة من الأبدية . وهذا يفسر أسباب السعادة والبهجة لدى الطلبة فى « الحى اللاتينى » . جميع الآمال قد تحققت فى نفس اللحظة لأنه ليس هناك حاضر ومستقبل ، وانما كل شىء قد تجمع فى هذه اللحظة . وهنا نفهم أكثر « المتمرد » الذى لا يعيش على الأمل ولكن يستوعب الحياة كلها فى اللحظة نفسها ويحبها .

وفى هذا الجو الغريب من الحقيقة والخيال ظهرت طاقات حقيقيـــة عند الطلبة . فهؤلاء الذين كانوا يتهمون بالسلبية وعدم الاكتراث أظهروا مقدرة فائقة على العمل والتنظيم . فالمناقشات التى تدور ، وأيا كانت غرابة الموضوعات والأفكار ، انما تؤكد صلابة المنطق وقوة الاقناع . والعمل المتواصل فى اللجان انما يؤكد الصبر وطول البال . الجميع مشغولون ويريد أن يكون نافعا فى هذا « المجتمع الجديد » ، والجدية التى أبداها الطلبة فى جميع المشاكل التى واجهوها تتناقض تناقضـــا تاما مع الفكرة الشـــائعة عن هـــذا الشبـاب « المائع » !

ومن أجمل الأشياء التى رآها « الحى اللاتينى » فى هـذه الأيام تجربة « الديمقراطية المباشرة » . فجميع الآراء لها حق مطلق فى الصعود الى المنصة والتعبير عن نفسها ، وجميع القرارات تتخذ بأغلبية الآراء ، ورئاسة الاجتماعات تختار لكل اجتماع . وهى ليست رئاسة وانما تنظيم لعملية المناقشة . وبطبيعة الحال انتقلت العدوى الى بقية أجزاء باريس ، فعلى كل ناصيـــة مجموعة من الأفراد تناقش الوضع بين مؤيد ومعارض . وما نقوله عن مناقشـــات رجـل الشارع لم تعد طريقة مجازية للتعبير وانما حقيقة تراها على كل ناصية .

وبطبيعة الأحوال لم يستطع هذا الجو « الخيـــالى » أن يستمر طويلا ، فللأسف ما لبثت عوامل الانحلال أن تسربت بسرعة . فدخل السربون الى

جانب الطلبة الثائرون مجموعة غريبة من الغوغاء أطلق عليهم « الكتانجيين »• والأوديون الذى أريد أن يكون مقرا ثقافيا وللالتقاء بين الطلبة والعمال سرعان ما أصبح مأوى لشرذمة من المتشردين الذين لم يسمعوا عن الثقافة ولا يريدون أن يسمعوا • وهنا بدأ ظهور جهاز من الطلبة للأمن ، ولمنع الأعمال التى لا تتفق مع روح الثورة • وبذلك اختفى شعار : « ممنوع المنع ، فقد كان من الواجب « منع » تحلل الثورة • وبذلك عدنا الى « الواقع » واختفى أجمل ما فى حركة الطلبة •

وما دمنا قد عدنا الى الواقع أو « حقائق الحياة » ، فان أهم أحداث مايو هو فى الواقع اضراب العمال •

١٣ ـ حركة العمال :

فى مساء ١٤ مايو وبينما جميع الأنظار متجهة الى مظاهرات الطلبة ، استولى عمال « سود افياسيون » بالقرب من نانت ، على المصنع وأعلنوا احتلال المصنع والتحفظ على الادارة حتى تجاب مطالبهم • لقد تغيرت الصورة ، ان العمال قد دخلوا الحركة ••

ونلاحظ هنا أن بداية الحركة كانت تلقائية وليست بناءا على أوامر من النقابات • لقد أصاب جو الثورة العمال ، فدخلوا المعركة ابتداء من «القاعدة» دون انتظار أوامر من النقابات • فهنا أيضا كانت « القاعدة » أكثر حساسية وأكثر ثورية •

ونبدأ بأن نقول بأن حركة العمال تمثل ، فى الأصل ، ثورة مختلفة ، ثورة من الطراز العادى الذى نعرفه : المطالبة بالمزيد من الحقوق الاقتصادية • كذلك فان « مجتمع الاستهلاك » فى ذاته ليس فى الأصل أيضا ، موضع مناقشة من العمال ، فهم يريدون مزيدا من الأجر لشراء التليفزيون والسيارة، وهم يريدون تقليل ساعات العمل وزيادة الاجازات المدفوعة للذهاب الى البحر

كما تفعل الطبقات المستريحة . أما ما يذكره الطلبة فهو كلام مثقفين وربما « مدللين » أيضا !

ومع ذلك فان هناك أجزاء من الطبقة العاملة التى انساقت وراء « ثورة الطلبة » ورددت معها الهجوم على « المجتمع الاستهلاكى » . ونجد هذا النوع بصفة خاصة بين العمال الشبان ، فأفكار الطلبة وجدت بينهم على وجه الخصوص جوا ممهدا . أما العمال الأكبر سنا والأكثر خبرة فانهم ، مع اعجابهم « المتردد » بحركة الطلبة ، ظلوا بعيدين عنهم بعض الشىء . فعندما علم الطلبة باضراب عمال سود افياسيون ذهبوا اليهم فى ١٥ مايو للاقامة معهم واحتلال المصنع احتلالا مشتركا ، ولكن العمال رفضوا السماح لهم بالدخول .

العمال يقدرون حركة الطلبة ، ولكن اضراب العمال ومطالبهم هذه مسألة تخصهم وحدهم .

وقد سبق أن أشرنا الى أن ثورة الطلبة وان كانت موجهة أساسا ضد « مجتمع الاستهلاك » الا أننا ينبغى أن نتذكر دائما أن فرنسا لا زالت فى أول الطريق نحو هذا المجتمع ، ولذلك فان أغلب المشاكل التى تعرضنا لها فيما سبق لا يعرفها العمال . لا زال المجتمع فى جزء كبير منه يخضع لاعتبارات « الندرة » ، ومن ثم فان مشاكل توزيع الدخل لا زالت تمثل أهمية خطيرة . العمال ، أو على الأقل جزء منهم ، ما زالوا بعيدين عن التمتع بالحد « الأدنى » الضرورى فى ظروف القرن العشرين . اذا كانت حركة الطلبة قد بدأت فى نانتير ، فان هناك مستعمرة للعمال وخصوصا من الأجانب « الجزائريين والاسبان » الذين يعيشون فى ظل أقسى الظروف المادية . كذلك اذا كان أحد المطالب الأساسية للعمال ضمان الحد الأدنى للأجور عند ١٠٠٠ فرنك فى الشهر ، فذلك لأن غالبية العمال لا يحصلون على هذا الأجر ، ومن يعرف نفقات المعيشة فى فرنسا يقدر تماما ظروف الحياة لأسرة تعيش على هذا الدخل .

لذلك فان العمال اذ قاموا في مايو بحركة « تمرد » فانما ذلك يعبر عن نوع آخر من « الثورة » ، ثورة من النوع الذي نعرفه والذي يطالب بمزيد من العدالة الاقتصادية . وهنا نستطيع أن نفهم الدور الذي قامت به « اللغة الماركسية » في هذه الأحداث . « فاللغة الماركسية » تكاد تكون اللغة الوحيدة الثورية المتاحة للطلبة ، ولذلك فلا عجب أن تكون أغلب شعاراتهم مستلهمة منها ، وذلك بالرغم من أن كثيرا من مشاكلهم لم يتعرض لهم ماركس ، لأنه اهتم بوجه خاص باقتصاد « الندرة » وليس باقتصاد « الوفرة » أو « مجتمع الاستهلاك » . ومع ذلك فان هذه « اللغة الماركسية » تجد صدى واسعا في طبقة العمال التي لا تزال تعيش في ظروف « الندرة » وسوء توزيع الدخل . ومن ثم فان هذه « اللغة » ساعدت على تحقيق الصلة بين « ثورة الطلبة » و « ثورة العمال » . هذا الغموض والابهام هو الذي حقق ، الى حد بعيد ، نوعا من الوحدة في حركة الطلبة وحركة العمال .

وقبل أن نحلل سلوك نقابات العمال نود أن نشير الى بعض الظواهر العامة عن هذه الحركة .

سبق أن قلنا ان اضراب العمال واحتلال المصانع قام تلقائيا ودون أية أوامر خاصة من النقابات المركزية ، فبعد احتلال مصنع سود افياسيون سارت موجة من الاضراب واحتلال المصانع في جميع أجزاء فرنسا .

كذلك من الأمور الهامة أن حركة الاضراب تمت بسرعة مذهلة ، ففي سنة ١٩٣٦ عندما أعلن عمال فرنسا الاضراب العام واحتلال المصانع ، احتاج الأمر الى أكثر من شهر حتى تصبح الظاهرة عامة تماما ، أما في مايو ٦٨ فان الأمر لم يحتج الى أكثر من ثلاثة أيام ، وبعدها توقفت الحياة تماما . أكثر من عشرة ملايين عامل أضربوا وأغلبهم احتلوا المصانع . وهنا يجب أن نشير الى دور الاعلام في نشر هذه الحركة . فبالرغم من الانتقادات التي توجه الى الاذاعة والتليفزيون — وأغلبها على حق — فانها بالاشتراك مع الجرائد قد

ساعدت على نشر حركة العمال فى مختلف أجزاء فرنسا ، فوسائل الاعـلام ليست فى يد السلطة تماما !

كذلك ينبغى أن نشير الى الحكمة والحرص اللـــذين تم بهما احتـلال المصانع . فنظرة العمال الى الآلات والمصانت بصفة عامة كانت نظرة الاحتفاظ بثروة قوميـة والطـاقة الانتاجيـة للدولة وليس مجرد أموال مملـوكة « للرأسماليين » . ولذلك فانه فى خلال فترة الاضراب والاحتلال لم تقم حالة واحدة من التخريب أو الاهمال فى هذه الثروة القومية ، وعنى العمال بوجه خاص بأعمال الرعاية والرقابة ، حتى أن الانتـاج بدأ مباشرة بعـد انتهاء الاضراب .

ومن مظاهرة حكمة العمال أن الاضراب العام الذى شمل جميع نواحى الحياة لم يتعرض بالاقلاق لضرورات الحياة حتى أن العمال لم يحضروا فى أى وقت شعور الرأى العام . فالمياه لم تتعطل اطلاقا ، والكهرباء كانت تنقطع فى ساعات يعلن عنها مقدما « للانذار » ، ولم تنقطع فى أى وقت بصفة مطلقة .

ومن الظواهر الهامة أن الاضراب شمل عمال القطـاع الخاص والقطاع العام على السواء . وقد كان عمال مصنع رينـو ، وهو مؤمم ، أكثر العمال تشددا ، فبعد أن وافق ممثلوا العمال وأرباب الأعمال والحكومة على مشروع اتفاق فى جرونيل بوزارة الشئون الاجتماعية ، رفض هذا المشروع من عمال رينو بالرغم من موافقة النقابات عليه مما أدى الى استمرار حركـة الاضراب
النقابات عليه مما أدى الى استمرار حركة الاضراب عدة أيام بعد ذلك .

١٤ ــ الجوانب السياسية :

ان « ثورة الطلبة » كما سبق أن رأينا هى رد فعل مباشر لـ « مجتمـع الاستهلاك » ، ومع ذلك فان الأمور لم تكن واضحة تماما وانما كانت تسود حالة من الغموض والابهام . ولذلك فان منازعة « مجتمع الاستهلاك » كانت

يعبر عنها كثيرا فى « لغة ماركسية » مما جعل الثورة الشاملة هى هدف الطلبة أو على الأقل أعطوا هذا الاحساس • وفى مثل هذه الظروف يكون من الطبيعى أن تتحول ثورة الطلبة الى ثورة سياسية تريد تغيير نظام الحكم وتراه السبيل الوحيد الى علاج المشاكل •

والذى يهمنا هنا هو أن موقف العمال ، بصفة عامة ، كان بعيـــدا عن الرغبة فى تحقيق الثورة السياسية ، فالمطالب هى مطالب اقتصـــادية ودور النقابات هو دور نقابى بحت • وبطبيعة الأحوال فان ذلك لا يحول دون وجود بعض العناصر التى تأثرت بشعارات الطلبة وخصوصا فيما بين العمال الشبان ، كذلك لا يمنع من أن بعض الشعارات السياسية قد رفعت أثناء المظاهرات كما فى ١٣ مايو حينما رفعت لافتات تطالب « بحكومة شعبية » • ولكن كل ذلك لا يغير من الموقف ، وهو أن العمال بصفة عامة لم يرغبوا فى احـداث تغيير سياسى خطير وانما اقتصرت مطالبهم على النواحى الاقتصادية • وقد دعى ذلك بعض الطلبة الى اتهام نقابات العمال والحزب الشـــيوعى بالتخاذل • ولـكن الحقيقة هى أن الموقف مختلف تماما •

قلنا ان العمال لا يرفضون « مجتمع الاستهلاك » ، فهم لا زالوا يعانون من قسوة الحياة ، والتليفزيون والسيارة الجديدة تعتبر أملا لهم ، وليس كمـا يقول هؤلاء « المثقفون » بأنها أداة سيطرة واغتراب لحرية الفرد ! هذا كلام غير مفهوم بالنسبة الى الغالبية العظمى من العمال التى لم تنل الحظ الكافى من التعليم ولا القدر الكافى من مســـتوى المعيشة الذى يسمح بهذا النـوع من المناقشة « الثقافية والنفسية » • وكثير من هؤلاء العمال بتجربتهم الخاصة فقدوا كل « وهم » فى الشعارات السياسية الكبيرة ، فما يعرفونه هو ضرورة العمل النقابى لتحسين ظروف الحيــاة بالنسبة اليهم • وهم يعرفون أنهم يواجهون « ادارة » واحدة فى مصانع « رينو » المؤممة أو فى مصانع « سميكا » الخاصة ، بل ان عمال هذه الأخيرة لم يضربوا ! كـذلك يعرف بعضهم أن مجرد تغيير الحكومة لن يؤدى بذاته الى تحسين أحوال العمال • فاحلال حكومة « ائتلاف

اشتراكى » محل الحكم القائم وان كان سيحسن الأحـــوال فى الفترة التالية مباشرة ، قد يترتب عليه اضعاف العمل النقابى بدمج النقابات فى جهاز الدولة، بحيث تصبح مجرد أداة فى يد الدولة وليست سلاحا فى يد العمـال للضغط الدائم على الدولة • وهنا تلعب الايديولوجيات اللبرالية لتأكيد هذا الشعور • كذلك فان نقابات العمال تعرف أنه لا يمكن اجابة جميع طلبات العمـــال مع الابقاء على قدرة الاقتصاد الفرنسى التنافسية • فليس هناك علاج سحرى لزيادة الأجور زيادة هائلة مع الاحتفاظ بقدرة الاقتصـــاد على النمو • فيجب لكى يستطيع الاقتصاد أن يستمر فى النمو وفى منافسة الاقتصاديات الأخرى ، أن يقتطع جزءا مستمرا من الانتاج لحساب الاستثمار سواء أطلق على هذا الجزء اسم « الأرباح » أو اسم آخر • وبطبيعة الأحوال يترتب على ذلك أن الأجور ـ ومعظمها يتجه الى الاستهلاك ـ لا تستطيع أن تتجاوز حدا معينا • وقد بادر بالفعل بعض زعماء الأحزاب الاشتراكية الى التأكيد بأن أية حكومة اشتراكية « لا تستطيع أن تجيب جميع مطالب العمال » • ويذكر كثـــير من العمال أن تجربة « الحكومة الشعبية » التى طبقت بعد الحرب العالمية الثانية لم تكن مجرد زيادة فى الأجور والاستهلاك بقدر ما كانت تجربة انتاج وعمل دون زيادة فى الاستهلاك • حقا ان هناك فرصة لزيادة الأجور عن طريق تغيير شكل توزيع الدخول لمصلحة العمال أكثر ، ولكن بصفة عامة فان العمال فقدوا كل «وهم» وراء تحقيق جميع الآمال بمجرد تغيير النظام السياسى •

وليس الأمر متعلقا فقط بـ « واقعية العمال » والاقتصـــار على المطالب الاقتصادية ، ولكن لها جوانبها « الدولية » أيضا • « فالتعايش السلمى » حدد الى درجة كبيرة سلوك الحزب الشيوعى والاتحاد العام للعمال ـ وهو وثيـــق الصلة بالحزب • فقد سبق أن رأينا أن الحزب الشيوعى والاتحاد العام للعمال كانا متحفظين بالنسبة الى ثورة الطلبة به بل لقد أداناها أيضـــا فى المراحل الأولى ، ثم أنهما انساقا وراء حركة القاعدة العمالية • ونشير الى أنه فى آخر مايو سادت حالة من الاضطراب الشديد فى جميع أجهزة الحكومة الفرنسية ثم سافر ديجول الى قريته يوم ٢٩ مما ترك الأوضاع فى حالة شاذة • وفى

هذه الظروف الغريبة لم يحاول الحزب الشيوعى ولا نقابات العمال اتخاذ أى اجراء حقيقى « للاستيلاء » على السلطة • وعلى العكس من ذلك فانه وافق على اجراء انتخابات عامة كما أعلن ديجول ، ونحن نعرف بصفة عامة أن الأحزاب الشيوعية ترى أن الانتخابات العامة وسائل بورجوازية • وبطبيعة الأحوال فان جزءا من الحقيقة يفسر بعدم رغبة الحزب الشيوعى فى الالتجاء الى المغامرة والقاء فرنسا الى الحرب الأهلية ، خاصة وأن المعروف أن الجيش لن يسمح بسهولة باستيلاء الحزب الشيوعى على الحكم • ولكن هذا ليس الا جزءا من الحقيقة ، فحتى خطر تدخل الجيش لم يكن حاسما نظرا الى أن أكثر من ٨٠٪ من رجال الجيش هم من المجندين الذين يرفضون التدخل ضد الشعب • وقد كانت هذه الحقيقة هى السبب فى فشل انقلاب الجزائر العسكرى فى ابريل ١٩٦١ • ونعتقد أن جزءا هاما من التفسير يرجع الى الظروف « الدولية » ، وعلى وجه الخصوص « التعايش السلمى » بين الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة الأمريكية • « فالتعايش السلمى » بين التكتلين يقوم فى الواقع على الاحترام المتبادل لعدد من الأمور التى تعتبر جوهرية فى نظر كل منهما • واستراتيجية « التعايش السلمى » تقوم على توازن دقيق بين القوى ونوع من التفاهم الضمنى • وفيما يبدو فان استيلاء الحزب الشيوعى على السلطة فى فرنسا بغير الطريق البرلمانى أمر يستدعى التدخل المباشر للولايات المتحدة الامريكية ، وهو أمر لا يمكن مواجهته الا على أساس تهديد « التعايش السلمى » • وبالمنطق نفسه لم تستطع الولايات المتحدة الامريكية أن تتدخل فى تشيكوسلوفاكيا فى أغسطس ١٩٦٨ • ولذلك نستطيع أن نفهم التردد الذى وقفه الحزب الشيوعى من حركة مايو وخصوصا فى أولها والحرص على عدم دفع الأمور الى درجة « الثورة السياسية » والاستيلاء على الحكم • والحزب الشيوعى الفرنسى وهو جهاز جبار وثانى الأحزاب الشيوعية فى أوروبا الغربية ، لم يتدخل بكل ثقله لدفع الأحداث الى أكثر مما ينبغى ! كذلك فان « النظام السياسى » القائم فى فرنسا وان كان بعيدا عن أن يوصف بأنه

« اشتراكى » بالمعايير الماركسية ، فانه يؤدى خدمة هامة للمعسكر الاشتراكى فيما يتعلق بسياسته الخارجية المستقلة .

ولكل هذا نستطيع أن نفهم كيف تتفق جريدة « الاومانتيه » مع جريدة « الفيجارو » أو « الاورور » اليمينية فى ادانة « العناصر المغامرة » التى تقود حركة مايو ! بل انه من الملاحظات الطريفة أن مظاهرات التأييد لديجول ،وقد غلبت عليها العناصر اليمينية ، قد حملت الفرنسيين الاعلام « مثلثة الألوان » ، وبالمثل فان مظاهرات الحزب الشيوعى قد غلب عليها لأول مرة « الاعلام مثلثة الألوان » ، وذلك بعكس الطلبة و « المسعورين » الذين حملوا الاعلام الحمراء والسوداء !

وقد أكدت هذه المظاهر الانطباع السائد لدى عدد كبير من الطلبة بأن الحزب الشيوعى والنقابات بدأت تندمج أكثر فأكثر فى المجتمع القائم ، وبدأت تفقد عنصر المنازعة ، أى أصبحت تعبر عن « الرجل ذى البعد الواحد » . فهى مؤسسات هامة وقوية وتقوم بالمعارضة ولكن فى حدود « النظام القائم » دون منازعة حقيقية ، فهى تؤدى دورها وفقا للقواعد التى يفرضها هـــذا النظام . ولعل هذا الانطباع هو الذى أدى الى ظهور عـــدد من المجموعـات اليسارية الأخرى التى تقف الى يسار الحزب الشيوعى لتنازع « النظام القائم » وتأخذ مواقف ثورية منه . ولعله من المقبول وفقا لهذا المنطق أن نتســـاءل اذا كانت الأحزاب الشيوعية الغربية تسير فى طريق التطور نفسه الذى سلكته من قبل الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية . فهذه الأحزاب كما نعلم كانت تقوم على المبادىء الماركسية ولكنها تطورت بحيث أصبحت جزءا من « النظام القائم » . وتجربة الحزب الاشتراكى الديمقراطى فى ألمانيا وحزب العمال فى انجلترا تؤكدان هذا الوضع . بل لعلنا نقول بأن هذا التساؤل مبرر أيضا على المستوى العالمى بالنسبة الى موقف الشيوعية « الروسية » والشيوعيـــة « الصينية » من الرأسمالية العالمية . فالشيوعية « الصينية » تدعى أن موقف الأحزاب المرتبطة بموسكو أقرب الى موقف الأحزاب الاشتراكية الديمقراطية .

ان حركة مايو فى فرنسا كانت حركة شعبية ، أدى فيها الطلبة دورا هاما لأنهم طرحوا مشاكل جديدة أمام ضمير « مجتمع الاستهلاك » ، وتدخل فيها العمال للمطالبة بحقهم المشروع فى تحسين مستوى معيشتهم • ولكن « الحكومة » أو « السلطة » لم تقف موقف المتفرج ، انها طرف أصيل فى المعركة ، وقد أدت هى الأخرى دورها • وبقدر ما وصفت اجراءات الحكومة فى أول الأمر بالتردد وأحيانا بالغباء ، فان النتيجة النهائية كانت نصرا لها ، أو على الأقل حتى الآن • والحق أنها أدت دورها بمهارة وأحيانا بطرق ميكيافيلية •

الواقع أن استراتيجية الحكومة كانت على العكس تماما من استراتيجية الحزب الشيوعى • فاذا كان هذا الأخير قد أراد أن يتجنب مواجهة حاسمة مع السلطة ورفع شعار « الثورة » على « النظام القائم » ، فان الحكومة أرادت أن تخلق وضعا يتحتم فيه الاختيار بين « استيلاء » الحزب الشيوعى على الحكم وبين استمرار « الديجوليين » ومنع أى طريق ثالث بينهما • والواقع أن هذا « الطريق الثالث » أو ما يسمى غالبا « باليسار الفرنسى غير الشيوعى » هو الفشل الأكبر لجميع معارضى ديجول ، وهو أيضا نجاح لديجول • وتقوم استراتيجية الحكومة على اعتقاد بأنه يوجد لدى الغالبية من الفرنسيين حتى اليساريين منهم نوع من الريبة بالنسبة الى الحزب الشيوعى • وقد بينت الأحداث صحة هذا « الاعتقاد » الى حد بعيد •

سافر ديجول الى رومانيا والأزمة على أشدها • وبالرغم من حزم بومبيدو وما أثبته من كفاءة فان هناك أمورا خطيرة لا يستطيع أن يتصرف فيها وحده • وقد ساعد ذلك على استمرار الأزمة وربما على تفاقمها أيضا • ومع استمرار الاضراب العام وكثرة المظاهرات والمعارك بين الطلبة والبوليس ساد شعور عام « بالثورة » •

وفى ٢٩ مايو وفى حالة اضطراب وغموض تام ، أعلن الاليزيه بأن ديجول قد سافر الى بلدته « كولمب دوزجليز » • ولم يصل ديجول الى قصره

الريفي في الموعد وانما بعد ست ساعات أمضاها في مكان غير معروف • ومن الطبيعي في مثل هذه الظروف أن تثار جميع التساؤلات وتوضع جميع الفروض الممكنة • هل يتعلق الأمر باعتزال رئيس الدولة كما حدث سنة ١٩٤٧ ؟ أين أمضى ديجول هذه الساعات الست ؟ هل زار القاعدة العسكرية في بادن ؟ هل سيتدخل الجيش وتقوم حكومة فاشية لمواجهة « خطر الشيوعية » ؟ كل هذه التساؤلات وغيرها مرت بالأذهان ، كما نقلتها الاذاعات والصحف •

وفي هذه الأثناء بدأت الأحزاب اليسارية تعد موقفها لمواجهة « الفراغ » السياسي • وأعلن منديس فرانس موافقته على تشكيل حكومة اذا طلب منه ذلك اليسار « مجتمعا » • ثم أعلن ميتران خطته السياسية للمستقبل ولتولى الحكم •

وفي هذه الظروف وبعد اضراب عام دام أكثر من أسبوعين وشل الحياة الاقتصادية ، أعلن ديجول حل البرلمان ، واجراء انتخابات عامة بعد ثلاثة أسابيع • وكان من الواضح أن الاختيار هو بين استمرار « الديجولية » أو بين ما يمكن أن يطلق عليه اسم حكومة يسار ذات طابع شيوعي • وبذلك نجح ديجول في أن يقدم المعركة الانتخابية وفقا لما رآه ببيان أن هناك حلين لا ثالث لهما • وقد أدى ذلك الى أن عددا ضخما من الأفراد الذين ينتقدون النظام الديجولي قد اضطروا الى التصويت له ، وهذا هو ما يطلق عليه اسم « حزب الخوف » •

ونقصد بحزب الخوف ذلك الاتجاه الذي اضطر الى التصويت الى جانب ديجول ليس اقتناعا به ، ولكن خوفا من نجاح الحزب الشيوعي أو حتى خوفا من مستقبل غير معروف • وبعبارة أخرى فهو ذلك الحزب الذي يصوت « كراهية في معاوية وليس حبا في علي » • وقد سبق أن أشرنا الى أن استراتيجية حكومة ديجول كانت تقوم على الاعتقاد في وجود نوع من الريبة تجاه الحزب الشيوعي • وهذه ظاهرة هامة ينبغي الوقوف عندها • فكثير من الفرنسيين الذين يصوتون للحزب الشيوعي يترددون أكبر التردد اذا كانت

أصواتهم ستؤدى الى وصول الحزب الشيوعى الى الحكم • فهم يصوتون لصالح هذا الحزب لكى يستمر مظهرا من مظاهر المعارضة فى دولة لبرالية أساسا ، ولكن الأمر يكون غير ذلك اذا تعلق « باستيلاء » الحزب على السلطة واقامة نظام جديد مختلف عن هذا النظام اللبرالى • وهذه حقيقة هـامة بالنسبة الى التفسير السياسى لتوزيع أصوات الناخبين فى فرنسـا ، وربما فى معظم دول أوروبا الغربية • وبالاضافة الى هذا « الشعور الغريزى » ضد استيلاء الحزب الشيوعى على السلطة ، فان هيكل القاعدة الانتخابية يساعد فى الواقع على زيادة اظهار أثر « حزب الخوف » • فالناخبون يتكونون فى فرنسا من البالغين ٢١ سنة فأكثر دون تمييز فى الجنس ، ومعنى ذلك أن عدد أصوات النساء تساوى عدد أصوات الرجال • فاذا عرفنا أن النساء بصفة خاصة يترددن كثيرا قبل أن يعطوا أصواتهن لتغيير نظام الحكم مع ما قد يترتب عـــلى ذلك من قـــلاقل واضطرابات ، فاننا نفهم لماذا كانت أصوات هؤلاء متجهة بصفة عامة الى الحكومة • كذلك فان الاضطرابات جاءت من الشباب وعدد كبير منهم لم يبلغ سن الرشد الانتخابى • وأخيرا فان هناك فجوة بين المضربين وكلهم من العاملين ، وبـين المنتخبين وعدد كبير منهم من الشيـــوخ والعجـــزة الذين لا يقبلون التغيير بسهولة •

ولكن ذلك فان « فرنسا » التى عرفت الاضراب العـــام لأكثر من ثلاثة أسابيع تعطلت فيها الحياة تماما ، وظهر لكل مراقب أن هناك انفصالا بين الناس والحكومة ـ هى نفسها التى صوتت لحزب ديجول بأكبر أغلبية عرفهـا حزب واحد فى فرنسا • وليس فى ذلك الا تعارض سطحى ، أما الحقيقة فهى اختلاف سلوك المنظمات الاقتصادية الانتاجيـة (النقـــابات) ، والمنظمـــات السياسية (الناخبين) وذلك من حيث تكوين كل منهم والاعتبارات التى يأخذونها فى الاعتبار •

وباعلان نتائج الانتخابات فى آخر يونيه عاد « **النظام** » الى فرنســـا ، وعادت الأمور الى مجاريها ، بل ان النظام قد عاد قبـــل ذلك بعدة أيام •

وشكلت حكومة جديدة ، وبدأت الاجازات وسافر عدد هائل من الفرنسيين الى شواطىء البحر وكأن شيئا لم يحدث . وأعلن الراديو أن النشاط الطبيعى لفرنسا قد عاد ، وساد الهدوء ، وبلغ عدد حـــوادث الطريق فى أول اجازة نهاية أسبوع أكثر من ٣٩ وفاة بعد شهر من الاضطراب والفوضى لم يمت فيه — للغرابة — سوى اثنين فقط !

وبعودة الحياة الطبيعية سار كل شىء فى الطريق السوى ، حتى « ثورة مايو » أصبحت أحد الموضوعات الأساسية لتجارة الكتب والمجلات ، و «كوهين بانديت » أصبح نجما يظهر على شاشة التليفزيون وتقرأ أخباره على صفحات المجلات . لقد انتصر « المجتمع الاستهلاكى » وأصبحت « الثورة » احدى سلع الاستهلاك الهامة . ولكن .. لا يمكن أن تعود الأحوال الى ما كانت عليه ، فقد حدث شىء !

الأوتوميشن والاقتصاد

تمهيـــد :

الاوتوميشن Automation أو ما أطلق عليه أحد المعاجم العربية لفظ « الأتمتة » هو من الألفاظ التى انتشر استخدامها فى الآونة الأخيرة للتعبير عن مرحلة جديدة من مراحل التقدم الفنى التى عرفها القرن العشرون •

ويبدو أن الحياة قد قامت على مبدأ اقتصادى : « **لكل شيء ثمن** » . فمعظم الاصطلاحات التى يسعدها الحظ بالشهرة والانتشـــار ، تدفع ثمن ذلك فى فقدان انضباطها وغموض معناها • ولا تخرج الأوتوميشن عن هذه القاعدة • فمع اتساع نطاق استخدامها فان حدودها تبدو غير واضحة تماما •

ولذلك نبدأ بمحاولة تحديد المقصود من هذا الاصطلاح بمتابعة التطور التاريخى لاستخدامه • ولكن الاوتوميشن ـ كما سيتضح ـ لا يعدو أن يكون تطبيقا فى ميدان الصناعة والادارة لفروع علمية حديثة فتحت مجالات جديدة • ولذلك فان الفهم الحقيقى والكامل لمضمون الاوتوميشن لا يمكن أن يتحقق الا بعد التعرض لهذا التطور الجديد فى ميـــدان العلوم ، وبخاصـــة فى ميدان السيبرنطيقا Cybernetics •

---

* نشرت هذه الدراسة فى مجلة « عالم الفكر » ، المجلد الثانى ، العدد الرابع ، يناير ـ مارس ١٩٧٢ •

وعلينا بعد ذلك أن نشير الى مدى انتشار الاوتوميشن في الدول المختلفة وفي النشاطات المتنوعة حتى يمكن بعد ذلك التعرض لآثار هذه الظاهرة الجديدة •

وبطبيعة الأحوال فان ظاهرة مثل الاوتوميشن وما تؤدى اليه من تغيير في الانتاجية وفي ظروف العمل وطبيعته لا بد وأن يكون لها آثار[1] بعيدة تتناول جميع مظاهر الحياة الاقتصادية والاجتماعية والنفسية والثقافية • ومن غير الممكن التعرض لهذه الجوانب ولو الماحا ، ولذلك فاننا سنقتصر على بعض ، وليس كل ، **الآثار التى ترتبط بالحياة الاقتصادية من ناحية ، كما نشير اشارة سريعة الى آثارها على علم الاقتصاد نفسه من ناحية أخرى •** فنتعرض تباعا لآثار الاوتوميشن على العمل وما يثيره من مشاكل البطالة وتحويل العمل الى أنواع أخرى ، والتأثير على هيكل العمل وظروف العمل ، ثم تتناول مشكلة العمل والفراغ ، لأن الفراغ ليس مجرد الامتناع عن القيام بالعمل ، ولكنه ظاهرة هامة تؤثر فى نوع الحياة والحاجات التى يريدها الانسان • والاوتوميشن وهو يؤدى الى زيادة الانتاجية لا يؤثر فقط فى العمل ، ولكنه يرفع من مستوى المعيشة وهذا بدوره يؤدى الى تغيير خطير فى نمط الحياة وفي حاجات الانسان • فيتجه المجتمع نحو اقتصاد الخدمات الانسانية ، سواء من ناحية الانتاجية حيث نجد تحول القوة العاملة أكثر فأكثر نحو قطاع الخدمات ، أو من ناحية الاستهلاك حيث تتضح حاجات جديدة يغلب عليها فى الاشباع طابع الخدمة الانسانية • ويرتبط بذلك الاهتمام بالموارد البشرية فتظهر أهمية اقتصاديات التعليم والصحة واقتصاديات البيئة ، كما يؤدى التأثير في ظروف العمل الى ظهور طبقات جديدة من المستهلكين •

---

(١) تناولنا فى دراسة سابقة نشرت فى نفس المجلة كثيرا من الأمور الوثيقة الصلة بموضوعنا ، وسوف نتناول فى دراستنا الحالية بعض الجوانب التى لم نتعرض لها سابقا منعا للتكرار • وان كان جديرا الاشارة الى التكامل بين الدراستين الى حد بعيد • أنظر لنا ، التنظيم السياسى فى المجتمع التكنولوجى الحديث ، « عالم الفكر » ، المجلد الأول ، العدد الأول ، ابريل ـ يونيو ١٩٧١ • (المقالة الأولى فى هذا المجلد) •

وأخيرا تتعرض لأثر الاوتوميشن والجو العلمي المصاحب لهذه الظاهرة على علم الاقتصاد سواء من ناحيــة القرارات الاقتصــادية وترشيدها لنمو المعلومات وزيادة القدرة على استخدامها مع التطورات العلمية الحديثة ، أو من ناحية كيفية دراســة علم الاقتصاد نفســه كعلم من علــوم التحكم الذاتى (كالاوتوميشن) •

تحديد المقصود بالأوتوميشن ، الأوتوميشن والسيبرنطيقا :

ربمــا كان أول من استخــدم اصطــلاح الاوتوميشن هو هــاردر D. S. Harder ١٩٣٦ ـ وقد كان يعمل بشركة جنرال موتورز الامريكية ـ وكان يعنى بذلك ادماج المراحل الانتاجيــة فى سلسلة متصلة على نحو آلى وبدون تدخل الانسان فيما بين هذه المراحل الانتاجية • وهكــذا نشعر بأن الاوتوميشن لا تعدو أن تكون توسعا فى الآلية Mechanization ومرحلة جديدة فى ادماج الانتــاج على نحــو آلى • ومع ذلك فسوف يتضــح أن الاوتوميشن تتضمن أشياء أكثر من مجرد الآلية التقليدية ، وان ظلت فكرة الادمــاج Integration بين المراحل الانتاجيــة من العنــاصر المميزة للاوتوميشن •

وقد استقر تعبير الاوتوميشن ، بوجه خاص ، مع استخــدام الحواسب الكهربائية وخصــوصا الالكترونية Computers فكما أن الآلة البخــارية Steam Engine هى رمز الآلية التقليــدية فى القرن التاسـع عشر ، فان الحواسب الالكترونية هى رمز الأوتوميشن فى القرن العشرين(١) •

والواقع أن الحواسب الالكترونيــة ليست مجرد آلة جديدة تقوم ببعض الأعمال التى كان يقوم بها الانسان من قبــل ، ولكنها تتميز بالقيام بأعمــال

---

(١) Cf. Colin Cherry, The Scientific Revolution and Communication, 1963, cited in Jean Fourastié, Les 40.000 Heures. Laffon-Gonthier, Paris 1965, p. 19.

أو المساعدة فى نوع من الأعمال التى تختلف فى طبيعتهـا عما كانت تقوم به الآلة التقليدية(١) • ويرتبط ذلك بوجه خاص بأعمـال الرقابة Control والتوجيه • وفى أغلب الأحيان يتحدد سلوك الآلة الجديدة بنشاطها السابق ، فهى لا تقوم باجراء عمليات رتيبة مكررة ، ولكنها تعـدل عن سلوكها وفقا للنتائج التى حققتها فى الماضى • وهذا هو ما أطلق عليه اسم التغـذية المرتدة Feedback وأحيانا التحكم الذاتى أو الآلى Automatic control •

وعلى ذلك فان اصطلاح الاوتوميشن يشـير فى كثير من الأحيـان الى الآلية الجديدة التى تقوم بأعمال الرقابة والتوجيـه وتعتمد فى سلوكها عـلى التغذية المرتدة •

على أن العناصر المتقدمة لا تكفى وحـدها لفهم حقيقـة الاوتوميشن ، فهذه الظاهرة لا يمكن ادراكها تماما استقلالا عما حدث فى التفكير العلمى فى خلال القرن العشرين • فالاوتوميشن لا يعدو أن يكون فى نهاية الأمر تطبيقا تكنولوجيا فى ميدان الصناعة والادارة لمنجزات العلم الحـديث • ولعل أهم منجزا تالعلم الحديث فى هذا الصـدد هو ظهور علم السيبرنطيقا ، أو علم التحكم • وقد دعت الرابطة بين الاوتوميشن والسيبرنطيقا بعض المفكرين الى اطلاق اسم السيبرنيشن(٢) Cybernation (لعل المعجم العربى كان يطلق على ذلك السيبرنطة) على ظـاهرة الاوتوميشن • وذلك حتى يمكن ابراز التفرقة بين الاوتوميشن وبين الآلية التقليدية (خصوصا وأن الخلط فى اللغة الانجليزية سهل بين عبارة أوتوميشن Automation ومنها Automated وبـين الأوتوماتيكيـة Automatic وهى تشـير الى الآليـة التقليـدية Mechanization •

(١) انظر فى موضوع الحواسب الالكترونية دراسة قيمة نشرت فى هـذه المجلة ، دكتور صلاح الدين طلبه ، العقول الالكترونية « عالم الفكر ، المجلد الأول ، العدد الثانى ، يوليو ـ سبتمبر ١٩٧٠ » •

(٢) Cf. Leon Bagrit, The Age of Automation, a Pelican Book, 1965, p. 20.

فما هى السيبرنطيقا ؟

كتب فينر Nobert Wiener (١) لأول مرة عن السيبرنطيقــا عــام ١٩٤٨ • والاسم مأخوذ من الكلمة اليونانيــة Kubernetes ومعناها ربان السفينة ، وذلك لما يرتبط بربان السفينة من معنى التوجيـــه والتحكم • وقد عرف فينر السيبرنطيقا بأنها « علم التحكم Control والاتصال Communication فى الحيوان وفى الآلة » • والواقع أن السيبرنطيقا لا تقتصر على دراسة الآلة الحقيقية real machine كما تظهر فى التطبيـــق ، ولكنهـــا تحـاول أن تستخلص **نظرية عامة للآلة المجردة** ، وهى تقصد بذلك كل أشكال السلوك الخاضعة لنظام معين ومحـــدد(٢) • فالآلة الحقيقية هى تطبيق لهـــذه الفكرة المجردة للآلة ، وبالمثل فانه يمكن النظر الى الانسان والحيـــوان فى كثير من مظاهر نشاطهما كآلة وكتطبيق لنفس الفكرة • فالسيبرنطيقا تعطينـــا النظرية العامة للآلة المجردة ، والآلة الحقيقية هى تطبيق لهذه الفكرة المجردة •ويعتبر آلة حقيقية كل سلوك خاضع لنظام معين ومحدد ، وسواء كانت هــــذه الآلة ميكانيكية أو عصبية أو الكترونية أو اقتصادية أو حيوية •• فالآلة قد اتسعت لتشمل النظام العصبى والحاسب الالكترونى والنظام الاقتصادى •• وهكذا • ولذلك نستطيع أن نفهم تعريف فينر للسيبرنطيقا الذى يجمع بين « الحيوان والآلة » •

والسيبرنطيقا وهى تتناول « الآلة » فى سلوكها لابد أن تتعرض للمسائل الجـــوهرية فى الرقابة والتحكم(٣) وهـــذا ما يرتبط بالضرورة بالاتصـــال Communication والمعلومات information • وقد أعطى فينر أهمية خاصة للمعلومات والاتصال كجزء من نظرية التحكم فى الآلة • فعندما يريد

---

(١) Cf. N. Wiener, Cybernetics of Control and Communication in the Animal and Machine, Paris, New York, 1948.

(٢) Cf. W. Ross Ashby, Introduction à la Cybernetique, Dimmond, Paris, 1958, (trad.), p. 1.

(٣) Cf. Ashby, op. cit., p. 145.

فرد أن يتصل بفرد آخر فهو يرسل اليه رسالة معلومات ، كذلك عندما يريد أحد أن يتحكم فى أفعـــال شخص آخر فهو يرسل اليـــه رسالة معلومات ، (يطلق عليها هنا اسم : الأمر) • والواقع أن السيبرنطيقا تهتم بدراسة هـذه الرسائل ووسائل اتصالها سواء من الانسان للآلة ، أو من الآلة للانسان ، أو من الآلة للآلة([1]) • ورغم أنه توجد اختلافات كثيرة فى التفاصيـل فى كيفية الاتصال والتحكم ليس فقط بين الكائنات الحية وبين الآلة الميكانيكية ، وانمـا أيضا داخل كل مجموعة من أى منها ، فان غرض السيبرنطيقا هو تطوير لغة
أيضا داخل كل مجموعة من أى منها ، فان غرض السيبرنطيقا هو تطوير لغة
وأسلوب يسمحان بمناقشة مشكلة الاتصـــال والتحكم بكفاءة بالنسبة لهـا جميعا ، أى بالنسبة « للآلة » بالمعنى العام الذى سبق أن أوردناه •

وازاء الرسائل التى تتلقاها « الآلة » فقد يكون سلوكها محددا من قبل على نحو تكرارى لا تغيير فيه ، وقد يكون متغيرا يعكس تأثير سلوك « الآلة » فى الماضى • فالانسان « كآلة » عبارة عن سلوك منظم • ولكنه لا ينطوى عـلى سلوك تكرارى محدد وانما يعكس خبرته السابقة ، أى أنه يتعلم من الخبرة الماضية • وهذا النوع هو ما يتضمن التغذية المرتدة • وقد أمكن التوسع فى انشاء آلات تتضمن هذين النوعين من السلوك([2]) ، فهى تقوم بأداء عمليـات محددة ومتكررة بلا تغيير وبذلك تحتـاج الى أعضـــاء محركة motoring organs (مماثلة لذراع الانسان) ، ولكن هذه الآلات تتضمن أيضا أعضاء حاسة sensing organs تعرف سلوكها المستقبل حسب الأفعـال الماضيـة (التغذية المرتدة) والواقع أنه لا يوجد فارق جوهرى بين سـلوك الكائنات الحية وبين سلوك الآلات التى تتضمن هذه المقدرة على التغذية المرتدة([3]) •

وأيا ما كان سلوك « الآلة » فانها تحتاج الى قرارات مركزية تحدد لها

---

(١) Cf. N. Wiener, Cybernetique et Société, Edition Les Deux-Rives, Paris, 1962, p. 17.

(٢) Cf. Ibid., p. 39.

(٣) Ibid., p. 31.

الأهداف الواجبة الاتباع • وسوف نتناول هذه النقطة فيما بعد ، ولكن يكفي هنا أن نشير الى أن **الاختيار** choice عنصر « انساني » بحت بمعنى أنه ليس بطبيعته « آلي » لا يمكن تركه « للآلة » ولو كانت هـذه الآلة مما يتعلم من الخبرة السابقة • فكل مشكلة اختيار تنطوي على الاستناد الى مجموعة من القيم value. • وهذه القيم أمر انساني بحت لا يخضع لأي منطق صوري • وفي هذا الجزء يظل الانسان غير قابل للمجاراة من قبل الآلة على النحو الذي سنتعرض له فيما بعد •

وعلى ذلك ، فاذا كانت الأهداف الأساسية من الأعمـال الانسانية التي ينبغي أن تقدم « للآلة » فان **هذه الآلة تستطيع أن تقوم باتخاذ قرارات حول أهداف ثانوية وتابعة لتسهيل انجاز هذه الأهداف الأساسية**(١) فالآلة هنـا تبدو كما لو كانت تتخذ قرارات ذهنية لا تختلف عن القرارات الذهنية التي يتخذها الانسان • ولكن هذه القرارات هي في حقيقة الأمر من قبيل الأفكار التابعة أو الخادمة للأهـداف الرئيسية(٢) • كذلك ينبغي أن تكون الأفكار ـ التي تتدخل الآلة فيها ـ واضحة ، بمعنى أن تكون مفهومة ويمكن اعادتهـا وتذكرها ونقلها ، وتعليمها للآخرين •

وهكذا نجد أن السبرنطيقا قد ساعدت على ظهور ونمو علـوم جديدة متعلقة باتخاذ القرارات ، كما استفادت من تقدمها فائدة كبيرة جدا • ونشير بوجه خاص الى نظرية الألعاب ـ Theory of games وبحـوث العمليات operational researchs ، وما ترتبط به من برامج خطية Linear programming وبرامج ديناميكيـة Dynanic Programming وسوف نتعرض لهذه العلوم الحديثة المتعلقة باتخاذ القرارات فيما بعد •

---

(١) ومع ذلك فقد قدم دكتور اشبي (R. Ashby. Design for a Brain 1953) نموذجا لآلة تتعلم وبغير هدف وبحيث تبحث عن غاية لها من طريق سلسلة من مراحل التعلم •

(٢) Cf. Aurel David, La Cybernetique et l'Humain, Idée, Paris 1965, p. 37.

وفى ظل هذا الجو العلمى الجديدظهرت الاوتوميشن كتطبيق تكنولوجى فى الصناعة والادارة لهذه العلوم الجديدة • فيرى البعض أن الانتاج يتضمن تضافر عدة عناصر هى : المواد materials ، والطاقة energy ، والمعلومات information • فالمواد تمثل موضوع الانتاج ، ولا بد لتحويلها من بذل طاقة معينة • أما دور المعلومات فهو يحدد مواصفات الناتج ، والرقابة على العملية الانتاجية والتأكد من مطابقتها للمواصفات ، وتعديل هذه المواصفات باستمرار بما يتفق مع تغير الأذواق • والاوتوميشن انما تتعلق باستخدام الآلات فى الجزء الخاص بالمعلومات(١) • وقد دعا ذلك البعض الى اطلاق كلمة « عصر الطاقة » على الفترة ١٨٥٠ — ١٩٥٠ حيث قامت الآلة ببذل الطاقة ، وكلمة « عصر المعلومات » على الفترة الحالية حيث تدخلت الآلة فى ميدان تجميع المعلومات والتصرف فيها(٢) •

واستخلاصا مما تقدم وتلخيصا له يمكن أن نقول بأن الاوتوميشن تقوم على عدة مبادىء أساسية هى :

الآلية mechanization ، وادماج المراحل الانتاجية فى سلسلة متصلة continuous process والتحكم الآلى ، والذاتى automatic control ، وترشيد القرارات rationalization (٣) •

فأما الآلية فهى تشير الى أن الأوتوميشن انما يعنى تطبيقا متزايدا للآلة• فالآلية فى القرن التاسع عشر كانت محدودة باستخدام الآلة فى ميدان الطاقة،

---

(١) Cf. E.R. Crossman, Taxonomy of Automation, Conference on the Manpower Aspects, of Automation, O.E.C.D. Paris 1966, cited in Social Research on Automation, London, Heineman, 1968, p. 23.

(٢) Cf. A. Kaufman, Les Cadres et la Révolution Informatique, Entreprise Moderne d'Edition, Paris 1970, p. 7.

وقد أطلق على عصر الطاقة Lère énergétique وقد أطلق على عصر المعلومات Lère informatique

(٣) Cf. Walter Buckinghamm, Automation, Mentor, New York, 1961, p. 14 ; — John Rose, Automation, its Uses and Consequences, Oliver & Boid, London, 1967, p. 56.

أما الأوتوميشن فهو يجاوز ذلك حيث أصبحت الآلة تقوم بأعمال كان الاعتقاد بأنها مقصورة على الانسان • فالآلة الآن تتدخل فى اتخـــاذ القرارات • وعلى ذلك فالاوتوميشن لا يعنى نفى الآلية ،وانما يعنى مجاوزتها ، فهى آلية ،وأكثر من ذلك • ولذلك فان كثيرا من المشاكل التى عرفناها منذ الآلية التقليدية فى القرن التاسع عشر لا تزال ذات أهمية فى عصر الاوتوميشن •

ويشير **ادماج المراحل الانتاجية** فى سلسلة متصلة من العمليات ، الى ما صاحب التقدم الآلى من النظر الى العملية الانتاجية كوحدة واحدة متتابعة من العمليات وبحيث يقل تدخل الانسان عند نقل المنتج من مرحلة الى المرحلـة التالية وانما يتم ذلك آليا • وقد تم هذا الادماج على مراحل قبل أن يصل الى حالته الراهنة • ولعل أولى الخطوات الى تحقيق هـــذا الادماج هو ما تم فى شركات انتاج السيارات فى الولايات المتحـــدة الامريكيـــة وفى أوروبا من استخدام خط التجميع Assembly-line فلم يعد العامل ينتقل من مكان الى آخر ، وانما أصبح يقف فى مكانه بينما تتحرك أمامه الأجزاء التى يعمل فيها حتى يتم دوره فتنتقل الى المرحلة التالية وهى معلقة على حامـــلات وأسلاك ، وهكذا • ثم مع تقدم العلوم الالكترونية والهندسية أصبح انتقال الانتـــاج من مرحلة الى المرحلة التالية يتم آليا وباستخدام أجهزة الكترونية •

ويتعلق العنصر الثالث وهو **التحكم الآلى بظاهرة التغذية المرتدة** • فمع التوسع فى الآلية وتحقيق الاندماج فى مراحل الانتـــاج ولتشغيل ذلك آليا ، كان من الضرورى أن تعتمد الآلات ـ التى تشغل هـــذه السلسلة الانتاجية ـ على مبدأ التغذية المرتدة • فما تصدره الآلة من أوامر لتحريك الانتاج يتوقف على المعلومات التى تصلها عن المرحلة السابقة • وبالمثل فان التشغيل الآلى لهذه السلسلة المتصلة من الانتاج يقتضى أن تقوم الآلة بتعـــديل ظروف الانتـــاج باستمرار وفقا لخصائص الانتاج السابق ، وهكذا •

وأخيرا ، فان العنصر الأخير ـ **وهو ترشيد القرارات** ـ يربط الجـانب الهندسى للانتاج بالجانب الاقتصادى والادارى • فقد أصـــبح من اللازم بعد

تدخل الآلة في عملية اصدار القرارات ، عرض المشكلة عليها عرضا سلميا بحيث توضح الأهداف توضيحا كاملا وترتب الأولويات بين هـذه الأهداف كما تحدد القيود المفروضة ، وذلك حتى نستطيع أن نساعد الآلة على ترشيد القرار • وقد ساعد على التقدم فى هذا المجال ما تحقق من نجـاح فى علوم اتخاذ القرارات كما سنرى فيما بعد •

وهكذا نرى أن **الأوتوميشن مرحلة جديدة من مراحل التقدم الفنى فهى تكمل ولكنها تجاوز أيضا الآلية التقليدية التى عرفناها فى القرن الماضى•**

انتشار الأوتوميشن :

الاوتوميشن كما رأينا ظاهرة مركبة ، فهى أكثر من الآلية التقليدية • ولعل الحواسب الالكترونية تمثل الى حد بعيد خصائص هذه الظاهرة المركبة• فالحاسب الالكترونى آلة ذات خصائص جـديدة ، فهو يسـاعد على ادماج المراحل الانتاجية المختلفة عن طريق قدرته على التحكم الآلى وفقا للمعلومات التى يحصلها ، كما أنه عنصر من عناصر الرشادة فى اتخاذ القرارات لقدرته على اجراء الحسابات اللازمة لتحقيق الوضع الأمثل للبرنامج الذى يوضع له •

ولذلك فقد يكون من المناسب أن نستخدم صناعات الحواسب الالكترونية ومدى انتشار استعمال هـذه الحـواسب كمؤشر على مدى انتشـار ظاهرة الاوتوميشن •

والآن تعتبر صناعة الحواسب الالكترونية الصناعة الأولى فى العـالم من حيث معدل نموها السنوى اذ يبلغ حوالى ٢٢٪ سنويا[1] •

واذا كان معدل استهلاك الطاقة (من كهرباء أو فحم) يعتبر مؤشرا على مدى التصنيع والرفاهية فى الدولة ، فان الكثيرين الآن يقيسون درجة استعداد الدولة لمجتمع المستقبل القائم على الاوتوميشن ــ بعدد الحواسب الالكترونيـة

---

(١) Cf. Social Research on Automation, p. 6.

بها • والملاحظة العامة هي الاتجاه المطرد نحو زيادة أعداد هـذه الحواسب • فقد قدر(١) عـــدد الحواسب الموجودة فى أوروبا سنة ١٩٦٦ بنحــو ٥٥٢٠ حاسبا مقابل ٣٠٠ حاسب فقط سنة ١٩٥٩ ، والمعتقد أن هذا العدد سيصل الى ١٢٠٠٠ حاسب سنة ١٩٧١ • وقدر أن عدد هذه الحواسب سيصل فى انجلترا الى ٦٠٠٠ حاسب سنة ١٩٧٤ مقـــابل ٦٠٠ حاسب فقط سنة ١٩٦٥ • وقـد وصل عدد الحواسب الالكترونية فى الولايات المتحدة الامريكية سنة ١٩٦٦الى ٢٧٠٠٠ حاسب وذلك غير الحواسب التى تستخدم فى الأغراض الحربية •

واذا كانت الحواسب الالكترونيـــة تمثل الى حد بعيـــد خصـــائص الاتوميشن فى المرحلة الحالية ، فان المستقبل يدخر أجهزة أخرى أكثر تعقيدا وتستطيع أن تباشر عمليات أكثر خطورة من الحاسب الالكترونى • وبوجـه خاص فان الأجهزة المجمعة Combinators ينتظر أن تكون خطوة كبيرة فى المستقبل ، ويقدر لها الظهور حوالى سنة ١٩٧٥(٢) •

آثار الأوتوميشن :

الأوتوميشن تصعيد للانســـان وللآلة على السواء • واذا كانت فـكرة تصعيد الآلة تبدو واضحة ، فان دور الاوتوميشن فى تصعيد الانســـان يبدو أقل وضوحا • فاذا كان الانسان يتخلى باستمرار عن القيام ببعض الأعمـــال ويتركها لكى تنفذها الآلة ، فان هذا بالضبط هو ما نقصده بتصعيد الانسان فى ظل الاوتوميشن • ذلك أن نشاط الانسان ينقسم الى نوعين : نشاط انســانى بحت بمعنى أنه من غير المتصور أن تقوم به الآلة على أى نحو ، ونشاط آخر تقوم به الآلة أو تستطيع القيام به • واذا كان من الصعب تحديد الحد الفاصل بين النوعين من النشاط ، فانه مما لا شك فيه أن هناك منطقة معينة لن يمكن مجاوزتها وتظل دائما أبدا متروكة للانسان ، وهذه المنطقة هى ما أطلق عليها

---

(١) Idem.

(٢) Cf. A. Kaufman, Les Cadres et la Révolution Informatique, p. 8.

الفلاسفة اسم الروح . فالاختيار وما يتضمنه من تحديد الأولويات . ، وكل ما يتعلق بالقيم ، وهيكل تدرجها ـ كل ذلك انسانى بحت لا يمكن للآلة أن تقوم به لأنه لا ارادة ذاتية للآلة . وهذا النـوع من النشـــاط رئيسى وأولى بمعنى أنه ليس خاضعا لأى شىء آخر أعلى منه .

وعلى العكس من ذلك هناك أعمال ثانوية أو وسيطة ، بمعنى أنها تتخذ من أجل تحقيق الأهداف الرئيسية التى يختارها الانسان . وهـذا النوع من الأعمال الوسيطة intermediate هـو ما تقوم به الآلة(١) أو يمكن أن تقوم به . هذه الأعمال ليست بطبيعتها انســانية بل هى أقرب ما تكـون الى الأعمال الآلية . ويستوى أن تكون هذه الأعمال الوسيطة متعلقة ببذل جهـد أو طاقة لتحقيق هدف معين ، أو تكون عبارة عن بعض الأعمال الذهنية اللازمة لتحقيق هدف معين معطى . فالانسان يستطيع أن ينقل الأثقـال من مكان الى آخر ، وهذا بذل للطاقة لتحقيق هـــدف معين فى ذهن الانســـان من ذلك النقل ، والآلة تستطيع أن تقوم بهذا العمل بدلا من الانسان ، بل هى تقوم به بشكل أفضل من الانسان . وبالمثل يستطيع الانسان أن يقوم بعمليات الضرب والجمع أى اجراء بعض العمليات الرياضـــية المنطقيـــة اللازمة له فى سبيل تحقيق هدف معين ، كذلك اذا كان لدى الانسان هدف أو أهداف معينة يود تحقيقها وواجهته عدة سبل ، فانه يستطيع الاختيار بين هذه السبل بما يحقق هدفه أو أهدافه على النحو الأمثل . ورغم أن هذه العمليات ذهنية تقوم عـلى التصرف فى معلومات معينة ، الا أنها عمليات تابعة ووسيطة فى سبيل تحقيق الهدف المعطى ، وهى خاضعة لقواعد محددة سلفا من المنطـــق والرياضة . ولذلك فان الآلة تستطيع أن تقوم أيضا بهذه الأعمال بدلا من الانسان وبشكل أكفأ . ولا فرق فى الواقع بين عمل الآلة فى الحـــالة الأولى وبين عملها فى الحالة الثانية ، كلاهما عبارة عن القيام ببعض الأعمال التابعة أو الوسيطة لتنفيذ أهداف عليا معطاة . واذا كانت الآلية التقليـــدية فى القرن التاسع عشر قد

---

(١) Cf. A. David, La Cybernetique et l'Humain, p. 37.

اتجهت لكى تقوم الآلة بالنوع الأول فان الاوتوميشن فى القرن العشرين اتجه لكى تستوعب الآلة النوعين معا • وحقيقة الأمر أن هـــذا النوع من النشاط الوسيط هو نشاط آلى بطبيعته • ولذلك فان تخلى الانســـان عن القيام بهذه الأعمال وتركها للآلة انما هو اتجاه نحو تخلى الانسان عن القيـــام بالأعمال الآلية بطبيعتها ، ومن ثم فهو اتجـــاه نحو التخصص ، تخصص الانسان فى الأعمال الانسانية بطبيعتها ، وتخصص الآلة فى الاعمال الآلية بطبيعتها •وكلنا نعرف ما للتخصص من أثر على زيادة الكفاءة •

وهكذا نلحظ أمرين فى اتجاه الأوتوميشن :

*** البحث دائما عن آلات أكثر كفاءة وانضـــباطا للقيام بالأعمـــال الوسيطة •**

*** البحث عن النشاط الوسيط لدى الانسان لكى تقوم به الآلة وتعفى الانسان من مشقة الاستمرار فى القيام به •**

ويترتب على الاوتوميشن على النحو المتقدم مزيد من الكفـاءة فى أداء هذه الأعمال • فالآلة لا تعرف الملل والمشاكل النفسية التى يعرفها الانسان من ممارسة الأعمال الآلية بطبيعتها ، كذلك لا تطالب الآلة بأجـــازات وليس لها مطالب عمالية • فالآلة تستطيع أن تؤدى الأعمال التى كان يقوم بها الانسان ولكن بكفاءة أكبر وبسرعة أكبر بكثير ، كما تستطيع أن تؤدى أعمالا ما كان يستطيع الانسان أن يقوم بها فعلا ، وان كان يعرف مبدأها النظرى •

ولذلك فقد ترتب على الاستخـدام المتزايد للاتوميشن زيادة انتاجيـــة العامل ، وقد اختلفت هذه الزيادة من صـناعة الى أخرى بين ٥٪ ـ ١٠٠٪ • ولم يقتصر الأمر على الزيادة الكمية فى الانتاج وانما أمكن تحقيق مزايا كيفية بتحسين الجودة نتيجة للتركيز فى الادارة ونقص الفاقد والضياع(١) •

---

(١) Cf. Social Research on Automation, p. 55.

ويكفي هنا أن نشير الى بعض الظاهر الحديثة الناجمة عن هذا التقدم(١) فقد زادت سرعة الآلات التي يقودها الانسان أكثر من ٤٠ مرة في الفترة ١٩٤٣ - ١٩٦٤ ، وهي الآن تجاوز ذلك بكثير وخصوصا مع مركبات الفضاء • وفي نفس الوقت زادت قدرة الانسان على التدمير أكثر من ١٠ ملايين مرة ، كما زاد حجم المعلومات المتبادلة خلال العشرين سنة الأخيرة أكثر من ١٠٠٠ مرة • وهكذا نرى أن قدرة الانسان قد تضاعفت •

ومن ناحية ثانية فان اعفاء الانسان من القيام بالأعمال الآلية بطبيعتها واتجاهه نحو التخصص في الأعمال الانسانية سيؤدى بدوره الى فتح آفاق بعيدة في الخيال والفن والمعرفة •

واذا كان للاوتوميشن هذه الآثار فمن الطبيعي أن نتوقع نتائج بعيدة المدى في جميع نواحي الحياة الاقتصادية والاجتماعية والنفسية والثقافية •وكما سبق أن ذكرنا فاننا سنتناول في الفقرات الآتية بعض الامور المتعلقة بالاقتصاد• على أنه ينبغي أن يلاحظ أن الحياة الاقتصادية مترابطة وأن المتغيرات متداخلة بحيث يصعب دراسة الأثر على بعض جوانب الحياة الاقتصادية بعيدا عن الجوانب الأخرى • فزيادة انتاجية العامل تؤثر من ناحية في عرض ساعات العمل • ولكنها من ناحية أخرى تؤدى الى زيادة دخل العامل فتزيد طلبه على السلع مما يخلق الحاجة الى خلق فرص عمل جديدة • وهكذا فانه لا يمكن معرفة الاثر على أحد جوانب الصورة قبل ادراك الصورة النهائية والكلية • ولكن هذا التشابك يفرض صعوبة كبرى من حيث الدراسة والعرض • ولذلك فان الأسلوب الطبيعي هو محاولة التجزئة ودراسة كل جانب منفصلا على أساس أن الجوانب الأخرى لم تتغير ، وذلك حتى تتجمع الصورة النهائية• وهذا الأسلوب متبع في الدراسات الاقتصادية بوجه عام ، ويطلق عليه اسم التحليل الجزئي partial analysis. ويقصد بذلك أنه عند دراسة

---

(١) Cf. Jean Fourastié, Les 40.000 Heures, p. 17.

الظواهر الاقتصادية ذات المتغيرات المتعددة ، فاننا نفترض بقـــاء كل المتغيرات ثابتة Ceteris paribus ما عدا أحد المتغيرات • ورغم ما فى هذا الأسلوب من تجزئة صناعية فانه يكاد يكون الأسلوب الوحيد المتاح لنا قبل الدخول فى تعقيدات التشابك والترابط • وعلى ذلك فان معرفتنا بالحقيقـــة لا تتم دفعـة واحدة وانما عن طريق مجموعة من التقريبات المتـــابعة Successive approximations وعلى أساس هذا الأســـلوب نبدأ فى دراســـة آثار الاوتوميشن على بعض الجوانب الاقتصادية •

أولا ـ الأوتوميشن والعمل :

سبق أن رأينا أن الاوتوميشن فكرة مركبةتتضمن الآلية التقليدية ضمن عناصرها • ولذلك فان **جميع المشاكل التى أثارتها الآلية التقليدية فى القرن التاسع عشر تظل قائمة ، وان أضيف اليها أنواع أخرى من المشـــاكل • فاذا كانت الآلية التقليدية قد مدت من عضـــل الانسان فى القرن التاسع عشر ، فان الأوتوميشن قد مد ، فى القرن العشرين ، من عضل الانسان ومن فكره أيضا •**

وقد كان للآلية آثار بعيدة على العمل • فمن ناحية ظهرت طبقة العمال كطبقة متميزة ومستقلة • وقبل ذلك لم يكن العمـل عنصرا متميزا • ولذلك فان الثورة الصناعية الأولى قد ساعدت على الفصل بين العمل والملكيـــة • ومن ناحية أخرى ، فانه بعد اتساع نطاق التقدم الفنى ، وضحت المكانة التى يشغلها المديرون والفنيون • وهذا ما أدى بدوره الى انفصال الملكية عن الارادة، ودعا البعض الى دراسة الظاهرة الجديدة تحت اسم ثورة المديرين • وقد سبق لنا التعرض لهذه المشاكل فى مكان آخر[1] •

---

(١) أنظر : حازم الببلاوى ، التنظيم السياسى فى المجتمع التكنولوجى الحديث ، المقـــال المشار اليه •

وكانت المشكلة التى شغلت بال العمال عند ادخال الآلة فى القرن التاسع عشر ، هى الأثر المترتب على العمالة . وكان الاعتقاد السائد لدى الكثيرين فى اوساط العمال ، هو أن الآلة وهى تحل محل العامل . تؤدى الى طرده واقائه فى زمرة العاطلين . ومن هنا كان رد فعل كثير من العمال ضد الآلة .

وقد اتضح أن هـــذه النظرية قاصرة . فقد أظهرت الاحصـــاءات أن استخدام الآلة أدى دائما ــ فى المدة الطويلة ــ الى زيادة العمـــالة وليس الى انقاصها . ففى الولايات المتحدة الامريكية ، على سبيل المثال زادت العمالة منذ سنة ١٩٠٠ حتى أوائل الستينات بأكثر من أربعين مليـــونا من العمال ، وفى نفس الوقت زادت نسبة العمالة الى السكان بأكثر من ٦٠٪ (نتيجـة لدخول النساء الى ميدان العمل وذلك بالرغم من ارتفاع سنوات التعليم)(١) .

والواقع أن حجم العمالة يتوقف على عدة أمور : نمو القـــوة العاملة ، زيادة انتاجية العامل ، متوسط ساعات العمل فى الاسبوع ، نمو الطلب الاجمالى على السلع والخدمات . واذا كان نمو حجم القوة العاملة وزيادة انتاجية العامل تؤدى الى زيادة نسبة البطالة ، فان نقص متوسط ساعات العمـل فى الاسبوع ثم بوجه خاص نمو الطلب الاجمالى على السـلع والخـدمات يؤدى ، على العكس ، الى زيادة نسبة العمالة . والأثر النهائى يتوقف على مدى الأهميـة النسبية لكل من الاتجاهين المتقدمين . والملاحظ أن الأثر الثانى المتعلق بزيادة العمالة يبدو أوضح . فاذا كان حجم القوة العاملة قد زاد باستمرار مع التقدم الفنى (نتيجة انخفاض معدل الوفيات بشكل خاص) كما زادت انتاجية العامل بشكل كبير ، فان نقص متوسط ساعات العمل من ناحية وخصوصا زيادة الطلب الاجمالى من ناحية أخرى قد عوضت وجاوزت أثر البطـــالة . بحيث يمكن القول باطمئنان بأن الآلة تؤدى الى خلق فرص جديدة للعمل فى المدة الطويلة .

---

(١) Cf. W. Buckinghamm, Autcmation, p. 194.

وسوف يتضح ذلك عندما نتعرض لزيادة الحاجات مع زيادة الدخل نتيجة لارتفاع انتاجية العامل •

والواقع انه من الصعب تصور استمرار البطالة كنتيجة لادخال الآلة ، في المدة الطويلة • فقد لوحظ أن معامل الارتباط بين زيادة الانتاجية (المترتبة على دخول الآلة) وبين زيادة البطالة ، منخفض جدا ويتراوح بين صفر و ٢٥ر٠٪ وعندما نأخذ في الاعتبار فترات أطول فان هذا المعامل ينخفض دائما الى الصفر(١) •

وأثر الاوتوميشن في هذا الصدد لا يختلف عن أثر الآلية التقليدية ، فالأثر النهائي في المدة الطويلة لا يمكن الا أن يكون زيادة العمالة • ويقتضى الفهم الكامل لذلك التعرض لأثر الاوتوميشن على خلق وزيادة الحاجات وهو ما سنتناوله فيما بعد •

ومع ذلك فانه ينبغي أن يلاحظ أن النتيجة المتقدمة لا تصدق الا في المدة الطويلة • أما في المدة القصيرة فقد يترتب ، بل غالبا ما يترتب ، على ادخال الآلة التقليدية والآلة المؤتمتة automated تحويل للعامل من عمل الى آخر ، سواء في نفس النوع أو في فروع أخرى • ويقتضى هذا التحويل مشقة على العامل من حيث اكتساب خبرات جديدة وتغيير في ظروف العمل وغالبا في مكانه • ولذلك فان التحويل لا يمر عادة دون نفقة • **فاذا كانت مشكلة البطالة في المدة الطويلة مستبعدة كأثر للآلة التقليدية أو الحديثة ، فان مشكلة التحويل displacement تعرض بوجه خاص في المدة القصيرة كنتيجة لادخال الآلة •**

وقد يبدو أن العبرة بالأثر في المدة الطويلة ، ففي نهاية الأمر لن يترتب على الآلة أي نوع من البطالة ، ولكن عند التدقيق نجد أن ما يهم العامل فعلا

---

(١) Cf. The Employment Impact of Technological Change, Appendix, Vol. II, National Commission on Technology, Automation and Economic Progress Washington, 1966, p. 17.

فى حياته هو ما يحدث له فى المدة القصيرة ، ولذلك قال الاقتصادى الانجليزى كينز أننا فى المدة الطويلة نكون قد متنا جميعا : (In the long run, we are all dead) كذلك عندما نتحدث عن المدة الطويلة و « المدة القصيرة » فاننا نقصد المعنى المستخدم فى علم الاقتصاد • فالمدة هنا لا تشير الى أية فترة زمنية وانما تشير الى تغيير الظروف • فطالما لم يحدث تغيير فى الظروف القائمة فاننا نكون فى المدة القصيرة ولو طال الزمن، وعندما تتغير الظروف لتلائم الأوضاع الجديدة فاننا نكون قد دخلنا المدة الطويلة ولو تم ذلك فى زمن قصير• ولذلك فان القول بان الآلية التقليدية والأوتوميشن لا تخلقان بطالة فى المدة الطويلة ، لا يعنى أكثر من القول بأنه عند اجراء كافة التغييرات اللازمة فى أوضاعنا من حيث توفير الخبرة والتعليم وتطوير الأذواق والحاجات وايجاد التغييرات الضرورية فى الاسكان والمواصلات ــ عند ذلك لا تترتب بطالة على الآلية والاوتوميشن • ولكن هذا التغيير بالضبط هو ما يهمنا لكى نستطيع أن نواجه الأوتوميشن • فالانتقال من المدة القصيرة الى المدة الطويلة بالمعنى المتقدم يتضمن تضحيات جسيمة ونفقات كبيرة حتى نستطيع أن نحقق أكبر فائدة من الأوتوميشن •

وبطبيعة الأحوال فان جسامة التضحيات تظهر بشكل أوضح بالنسبة للفئات غير القادرة على التطور وملاءمة الأوضاع الجديدة • وقد قال فينر سنة ١٩٥٠ بأن الآلة هى البديل الاقتصادى عن العمل المستبعد ، ولذلك فان العامل الذى لا يتطور ويستمر فى القيام بنفس الأعمال التى أصبحت تؤديها فان عليه أن يقبل ظروف العمل المستعبد(١) • ورغم أن الأعمال الجديدة التى يتطلبها الأوتوميشن ليست بالضرورة أكثر مهارة من الأعمال القديمة ــ على ما سنرى ــ الا أن اكتسابها يحتاج مع ذلك الى مران وخبرة جديدة • وبصفة عامة فان هذا يفرض أعباء أكثر قسوة على بعض الفئات • فوطأة التحويل أشد قسوة على العمال المتقدمين فى السن منها على الشبان • وهذا يؤدى فى

(١) Cf. N. Wiener, The Human Use of Human Being, New York, 1950.

كثير من الأحوال الى اضطرار كثير من هؤلاء العمال المتقدمين في السن ، الى الاعتزال كلية في سن مبكرة نسبيا • والمسألة لا ترجع فقط الى حيوية الشباب ، وانما لأن الشباب يكون عادة قد حصل على مزايا أكبر تجعل التحويل أمامه أسهل • فالأجيال الحديثة تنال عادة ، قسطا من التعليم أوفر من الأجيال السابقة ، وهذا يجعلها أكثر قدرة ومرونة على الانتقال والتحويل • ففي الولايات المتحدة الامريكية نجد أن ٧٠ر٢٪ من العمال في سن ١٨ – ٣٤ ، في سنة ١٩٦٥ قد حصلوا على أربع سنوات على الأقل في مدرسة ثانوية في حين نجد أن هذه النسبة تنخفض الى ٤٦ر٤٪ للعمال في سن ٤٥ – ٦٤ ، وفي نفس الوقت نجد أن ١١ر٧ من المجموعة الأولى قد حصلوا على تعليم عال (أربع سنوات على الأقل) في حين تنخفض هذه النسبة الى ١٠ر٣٪ للمجموعة الثانية(١) •

كذلك من الطبيعي أن العناصر التي تضار مباشرة من عملية التحويل هي أقلية العمال العنصرية • ففي كثير من الدول نجد أن قوة العمل قد لا تتكون من عناصر متجانسة تماما ، فهناك أحيانا أقليات عنصرية أو دينية أو أجنبية • وقد لوحظ أن هذه العناصر أكثر تعرضا للاهتزازات الاقتصادية ، ففي فترات البطالة الدورية ، يكون هؤلاء أول من يطرد • وبالمثل فان عملية التحويل وما تقتضيه من تعديلات تصيب هؤلاء بدرجة أشد من غيرهم •

ومن الأفكار الشائعة أن الأوتوميشن يؤدي الى تحويل العمل بشكل متزايد نحو **الأعمال الماهرة** • فالأخذ بالأوتوميشن ، وبالمثل بكل تقدم فني كبير ، يؤدي الى تغيير في هيكل العمل سواء من ناحية الفروع الانتاجية أو من حيث نسبة كل نوع من أنواع العمل • وسوف نتناول مسألة تحويل العمل بين الفروع الانتاجية مع دراسة تطور الحاجات لأنها ترتبط بشكل أوضح

---

(١) Cf. Technology and the American Economy, Report of the National Commission on Technology, Automation and Economic Progress, Vol. I, Washington, 1966, p. 23.

بتغير الأذواق والطلب الاجمالى • أما هنا فتقتصر على التغيير فى أنواع العمل من حيث المهارة والخبرة • ومن الواضح أن أى تغيير فى هذا الصدد يفرض عبئا على العمل بضرورة التلاؤم والانتقال من أنواع العمل الآفلة الى المجالات المتسعة • وقد لوحظ بصفة عامة أن هناك اتجاها لزيادة نسبة الأعمال الفنيـة والمهنية ، ففى الولايات المتحدة الامريكية كانت نسبة هذه الأعمـال ٦ر٦٪ سنة ١٩٤٧ ، فأصبحت ٢ر١٢٪ سنة ١٩٦٤ ، وكانت نسبة الأعمـال اليدوية وغير الفنية (ذوى الياقات الزرقاء) ٤١٪ من قوة العمل سنة ١٩٤١ ، فى حين أن نسبة الأعمال الفنية والادارية (ذوى الياقات البيضاء) كانت ٣٥٪ فى نفس السنة ، فتغيرت هذه النسب فى سنة ١٩٦٤ لتصبح ٣٦٪ ، ٤٤٪ لذوى الياقات الزرقاء والبيضاء على التوالى(١) • وهـذا اتجاه عام موجود فى كل الدول المتقدمة والتى قطعت شوطا فى تطبيق الاوتوميشن •

ولكن لا ينبغى الاسراع فى استخلاص النتائج من هذه الاحصاءات التى تؤخذ على مستوى الاقتصاد القومى والقـول بأن الاوتوميشن فى ذاته يتطلب أعمالا أكثر مهارة وخبرة من وسائل الانتاج السابقة فى ظل الآلية التقليدية • فينبغى التفرقة فى أثر الأوتوميشن على المهارة بين أمرين • الأمر الأول هو مدى تأثير مهارة العمـل فى الصناعة التى تطبق وسائل الأوتوميشن بدلا من الوسـائل التقليدية • والأمر الثانى هو أن الأوتوميشن وهو يؤدى الى زيادة الانتاجية فى الاقتصاد وارتفاع الدخل القومى ـ يؤدى فى نفس الوقت الى تغير نمط الحاجات والأذواق ، وهذا بدوره يعنى ظهور أعمال جديدة قد تتطلب مزيدا من المهارة والعلم • ولا جدال فى أن تطور الحاجات مع زيادة الدخل القومى يؤدى الى خلق أعمال جديدة تتطلب مزيدا من العلم والخبرة وبخاصة فى ميدان الخدمات والتعليم والصحة والأبحاث •• وسوف نتناول ذلك فيما بعد • ولـكن الاستناد الى الاحصاءات المتقدمة للقول بأن الأوتوميشن يتطلب مزيدا من المهارة فى العمل فى المشروعات التى تأخذ بهـذا الأسلوب يعتبر

---

(١) Idem, p. 2.

مسألة أخرى •

وقد شكك عدد من الاقتصاديين[1] فى الفكرة الشائعة التى تقضى بأن الاوتوميشن يؤدى بذاته الى ترقية up-grading العامل وزيادة مهارته فى المشروعات التى تستخدم هذا الأسلوب للانتاج • ففى شهادة أمام الكونجرس الامريكى حول أثر الاوتوميشن اتضح أن حوالى ٢٣ عملا جديدا قد خلقها الاوتوميشن منها أربعة فقط تحتاج الى خبرة مهندسين والى اعداد خاص[2] •

ويبدو أن الاعتقاد بأن الاوتوميشن يؤدى بذاته الى الارتقاء بمستوى المهارة الفنية للعمال الذين يعملون فى المشروعات التى تأخذ بهذا الأسلوب للانتاج ـ يبدو أنه يستند الى عدد من الافتراضات التى يتضح عند مزيد من التدقيق أنها ليست كلها بالضرورة صحيحة • ومن هذه الافتراضات[3] :

ـ ان الآلة المؤتمتة automated machine تحتاج فى تشغيلها الى درجة أعلى من المهارة والتدريب لدى العمال مما هو فى حالة الآلة التقليدية •

ـ ان هذه الآلة تحتاج الى درجة أكبر من الرعاية والانتباه فيما يتعلق بالصيانة •

ـ ان الحاجة أكبر لعدد متزايد من المهندسين والفنيين لتصميم وبناء واقامة هذه الآلات •

ـ ان الاوتوميشن قد دخل بشكل كبير وفى فترة قصيرة نسبيا حتى يكون له أثر ملموس على هيكل العمل •

---

(١) من أوائل الدراسات التى أشارت الى هذه الظاهرة
James R. Bright, Automation and Management, Boston, 1958.

(٢) Cf. W. Buckeingham, Automation, p. 9.

(٣) Cf. James R. Bright, Relationship of Increasing Auomation and Skill Requirements, in the Employment Impact of Technological Change, p. 208.

ـ ان العامل العادى لا يستطيع أن يواجه الحاجات الجديدة للاوتوميشن الا بعد برنامج للتدريب المكثف •

ومن استعراض هذه الفروض يتضح أنها ليست بالضرورة صحيحة دائما ، أو على الأقل ليست صحيحة بالدرجة التى تبرر القول بأن الاوتوميشن يؤدى الى ترقية العمل فى المشروع الذى يأخذ به ويرفع من مهارة وكفاءة من يعملون فيه •

فمما لا شك فيه أن الجهد العضلى physical effort يتناقص باستمرار مع زيادة درجة الأوتوميشن بل ومع الآلية بصفة عامة • وهذا من شأنه أن يخفض الحاجة الى العمل غير الماهر والعضلى البحت (وهنا يمكن أن تتذكر ملحوظة فينر عن العمل المستعبد)• وفيما يتعلق بالجهد العقلى mental effort فان الأوتوميشن يؤدى أيضا الى تخفيف هذا الجهد ، فكلما زادت درجة الأوتوميشن ودرجة التحكم الآلى كلما قلت الحاجة للجهد الانسانى واليقظة اللازمة لملاحظة الآلات • ومع ذلك فان الدراسات التطبيقية فى هذا الصدد ليست كلها متوافقة • ففى بعض الأحوال زادت درجة اليقظة اللازمة بعد ادخال الأوتوميشن ، وفى أحوال أخرى قلت هذه الدرجة • ويرى البعض(١) أن السبب فى ذلك يرجع الى تقدم الآلية من ناحية وعدم وجود درجة كافية من التحكم الآلى من ناحية أخرى ، وبعبارة أخرى ان السبب فى زيادة درجة اليقظة المطلوبة انما يرجع الى نقص الأوتوميشن وليس الى ارتفاعه • كذلك قد يكون السبب هو انه مع زيادة درجة الأوتوميشن فانه يعهد عادة الى العامل مسئولية مجموعة كبيرة من الآلات لأن الآلة المنفردة لم تعد تتطلب رقابة كبيرة • وهكذا تزيد درجة اليقظة كنتيجة لهذه المسئولية المتزايدة •

---

(١) **Cf. James R. Bright, Relations of Increasing Automation and Skilled Requirement.**

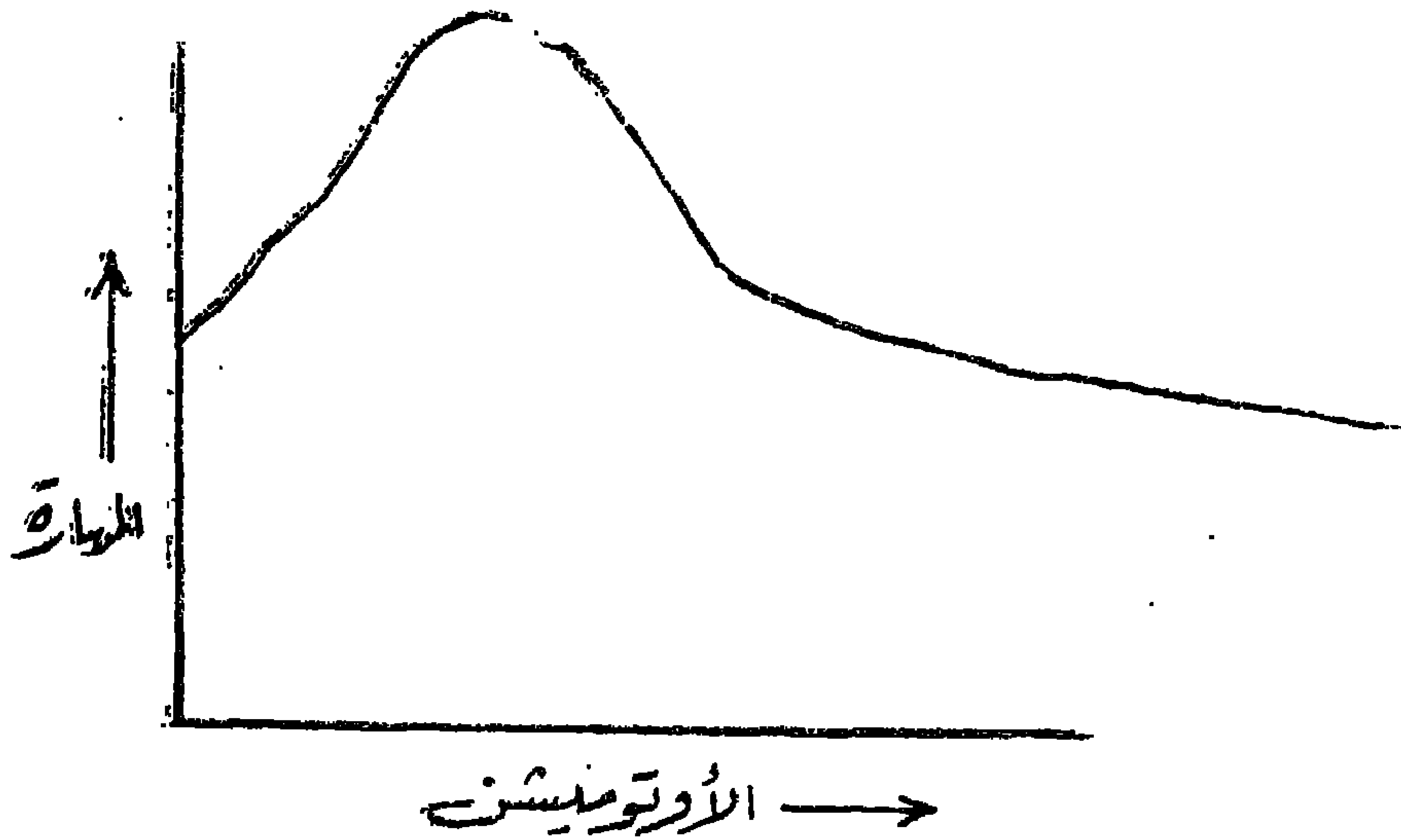
كذلك لا جدال فى أن ادخال الأوتوميشن يتطلب زيادة درجة التعليم اللازمة للعامل فهو يحتـــاج على الأقل الى معرفة كيفية عمـل الآلة وطبيعتها والمبادىء التى تقوم عليها • وهـــذا من شأنه أن يزيد من ترقية العـامل • ولكن هل يزيد معدل التعليم اللازم للعامل مع زيادة درجة الأوتوميشن ؟ يبدو أن ذلك غير ضرورى ، فبعد المبادىء الأولية اللازمة لفهم كيفية تشغيل الآلات بعد ادخال الأوتوميشن ، فان ما يحتاجه العامل من معرفة لا يزيد مع زيادة درجة الأوتوميشن •

وفيما يتعلق بالمهارة اللازمة للعامل للقيـــام بأعمال الصـيانة ، فانه من الصعب القطع باجابة حاسمة فيما يتعلق بأثر الأوتوميشن على ترقية العـــامل والارتفـــاع بمستوى مهـــارته • فمن ناحية نجـــد أنه مع زيادة درجـة الأوتوميشن ، يمكن استقصاء أسباب العطل بوسائل آليـة والـكترونية دون حاجة الى تدخل شخصى من العمال ، وهذا من شأنه أن يقلل درجة المهـارة اللازمة لأعمـــال الصيانة • ولـكن ، من ناحيـة أخرى ، فانه مـع ادخال الأوتوميشن تغيرت النظرة الى الصيانة كليـــة • فمع تركيب آلات وأجهزة غالية الثمن أصبح الاهتمام بالصـــيانة أكبر ومن ثم اتجهت المشروعات التى تأخذ بالأوتوميشن الى تجنيد عمال وفنيين أكثر مهارة وخبرة للقيـام بأعمال الصيانة •

وهكذا نجد أن ترقية العامل والارتفـــاع بمستوى المهارة الفنيـة ليسا نتيجة قاطعة للأخذ بالاتوميشن • وهذا ما يفسر عدم القـدرة على استخلاص نتائج محددة فيما يتعلق بالتأثير على مستوى المهارة للعمال فى الصناعات التى أخذت بالاوتوميشن • فبعض الصـناعات أظهرت ثبـــاتا فى مستوى الكفـاءة والمهارة ، والبعض الآخر أظهر ترقية محـــدودة ، كما أظهر البعض الثالث تراجعا محدودا فى هذا المستوى • ولذلك يتجه James Bright

الى محاولة استخلاص اتجاه عام لعلاقة درجة الاوتوميشن بدرجة المهارة والكفاءة ، بالقول أن المهارة والكفاءة تتزايدان فى أول الأمر مع زيادة درجة الاوتوميشن ، ثم بعد ذلك تثبتان وتبدءان فى الانخفـــاض مع التزايد

الأكثر في درجة الأوتوميشن • ويوضح الشكل الآتي نوع هذه العلاقة (١) •



على أن الملاحظات السابقة عن أثر الأوتوميشن على المهارة في الصناعات التي أخذت به ، لا يعنى أن هذا الأثر على الاقتصاد سيكون محدودا • وذلك لأن الأثر على الاقتصاد لا يأخذ فقط في الاعتبار ما نتج عن التغيير في أساليب الانتاج ، وانما أيضا وبوجه خاص ما يترتب عـلى ذلك من تأثير عـلى الطلب الإجمالي • وســـوف نلاحظ أنه مع ارتفاع الدخل القومي يتجـه الطلب الى الخدمات التي تحتاج الى مستوى مرتفع من المهارة والتعليم • كذلك ســوف نرى أنه مع نقص ســـاعات العمل وزيادة الفراغ والاعتزال المبكر ، تصـــبح المعرفة احدى الحاجات الأساسية للانسان التي يسعى الى اشباعها ممـــا ينتج عنه في النهاية مجتمع أكثر قدرة وكفاءة •

كذلك لا يخفى أن طبيعة المجتمع في ظل الاوتوميشن وما يتطلبــه من سرعة في التطورات التكنولوجية في الصـــناعة تتطلب البحث ،انما عن عامل

---

(١) Relations of Increasing Automation and Skilled Requirement, p. 217.

أكثر قدرة على متابعة التغيرات • فلا يكفى أن يكون العـــامل قادرا على أداء العمل المناط به ، ولكن ينبغى أيضـــا أن تتوافر فيه القـــدرة المستمرة على التطور • فالعامل المتخصص specialized لن يلبث أن يجد العمل الذى تخصص فيه وقد قامت به الآلة ، ولذلك فنحن فى حاجة أكبر الى الاخصائى specialist ونعنى بذلك العامل ذا المعرفة النظرية الأساسية التى تسمح له بالمرونة والتحول من عمل الى آخر(١) وهذا الاخصائى يحتاج الى معرفة نظرية شاملة ، وبوجه خاص ينبغى أن تتوافر له العناصر الآتية(٢) :

- معرفة بالرياضيات الحديثة •
- ثقافة عامة •
- علوم انسانية •
- دراسة أهمية المعلومات •

ولا يقتصر أثر الأوتوميشن على العمل ، على مشـاكل البطالة والتحويل وما يقتضيه ذلك من اعداد العمال للأعمال الجديدة وعـــلاقة ذلك بالتأثير فى مهارة العامل ـ ولكن الأوتوميشن يؤدى أيضا الى تغيير ظروف العمل ذاتهـا التى تحيط بالعامل •

فالاوتوميشن يساعد على تخفيف مخاطر العمل مما يزيد درجة الشعور بالسلامة والأمن ، كـــذلك نجـد أن المشروعـــات التى تأخذ بالاوتوميشن تستخدم آلات وأجهزة كهربائية والكترونية ، وبصفة عامة تتميز بنظافة العمل وبحيث تكاد تختفى الأعمال ذات المظهر القذر • فعادة نجد فى المشروعـات التقليدية أن العاملين ينقسمون الى طائفتين ، طائفـة العمـــال الذين يقومون

---

(١) Cf. George Friedmann, Le Travail en Miettes, Idées, Paris 1964, pp. 158-9.

(٢) Cf. A. Kaufmann, Les Cadres et la Révolution Informatique, p. 51.

بأعمال بعضها خطر ، وبعضها يؤدى الى الاتساخ مما يجعلهم عادة متميزين من حيث مظهرهم الخارجي (ذوى الياقات الزرقاء) ، وطائفة الاداريين والفنيين الذين يقومون بأعمال مكتبية وفنية بعيدة عن غبار المصانع (ذوى الياقات البيضاء) • ولكن مع اتساع الأخذ بالاوتوميشن تختفى تدريجيا هذه الأعمال غير النظيفة ، ويتجه التمييز فى المظهر الخارجى بين الطائفتين من العاملين الى الاختفاء • واذا عرفنا من ناحية أخرى أن الاوتوميشن يؤدى الى زيادة الدخول وحسن توزيعها ، فاننا ندرك كيف يساعد الأخذ بالاوتوميشن على تخفيف الفوارق داخل المصنع •

كذلك يؤدى الأوتوميشن الى تقليل التجمعات العمالية • فالأوتوميشن ـ كما رأينا ـ يؤدى الى ادماج المراحل الانتاجية فى سلسلة متصلة وخاضعة للتحكم الآلى ، وهذا من شأنه أن يقلل من تجمع العمال فى مكان واحد ، كما هو الحال فى ظل الآلية التقليدية • ولذلك ليس من النادر ، أن يعمل العامل وحده فى غرفة منعزلة للرقابة ولمدد طويلة فى المصانع التى تأخذ بالاوتوميشن • وهذه العزلة لها آثار نفسية واجتماعية بعيدة • فالكثيرون لا يجدون توازنهم النفسى الا وسط المجموع ، ولذلك فان العمل المنفرد يؤدى الى مضايقات عديدة لهم • ولذلك أيضا نستطيع أن نفهم كيف أن بعض النقابات الانجليزية للعمال قد طالبت « ببدل وحدة » lonesome pay للعاملين الذين يضطرون للبقاء فى العمل بعيدا عن زملائهم([1]) • كذلك لا يخفى أن أحد الأسباب التى ساعدت على تعمق الوعى العمالى فى القرن الماضى ، كان بالذات التجمع العمالى •

واذا كان الاوتوميشن قد ساعد على تخفيف أعباء الأعمال اليدوية والعضلية المرهقة عن العامل ، الا أن زيادة درجة المسئولية من ناحية وظروف العمل من حيث الوحدة أحيانا واستمرار العمل فى أوقات غير مناسبة أحيانا أخرى ـ كل ذلك أدى الى ارتفاع درجة الاصابة بالأمراض العصبية

(١) Cf. W. Buckingham, Automation, p. 89.

والنفسية • فاصابات القلب مثلا أقل بكثير عند العمال اليدويين منها عند غيرهم من القائمين على الأعمال الأكثر مسئولية(١) •

وبطبيعة الأحوال فان الاوتوميشن وهو يؤدى الى زيادة الانتاجية ، يؤدى فى نفس الوقت الى زيادة الأجور ودخول العمال • ونلاحظ أن المصانع التى حققت درجة كبيرة من الاوتوميشن تكون نسبة العمل الى رأس المال فيها منخفضة وهذا من شأنه أن يوفر درجة كبيرة من الشعور بالأمن والاستقرار للعمال ، لأن العمال الباقين بعد الأخذ بالاوتوميشن على نطاق واسع يشعرون بأنهم العناصر التى لا يمكن الاستغناء عنها • كذلك نجد أن ضآلة حصة هؤلاء فى النفقات الاجمالية للانتاج ، تجعل الادارة أكثر تساهلا فى اجابة مطالبهم سواء من ناحية زيادة الأجور أو من ناحية توفير مزايا أخرى لهم • وسوف تتعرض لأثر زيادة هذه الدخول على مستوى المعيشة ونوعها عندما نتعرض فيما بعد لتطور الحاجات •

ولكن هل تساعد الآلية والاوتوميشن على مزيد من المساواة فى توزيع **الدخول كنتيجة لزيادة الانتاجية ؟**

الواقع أنها تساعد على ذلك بسببين ، أما السبب الأول فهو أن المساواة أقرب الى التحقيق مع ارتفاع مستوى الدخول ، فمع الوفرة يكون من السهل قبول توزيع مزايا أكبر على الفقراء • واذا نظرنا الى البلاد المختلفة نجد أن التوزيع أقرب الى التساوى فى الدول الغنية وبصرف النظر عن نظامها الاجتماعى • وفى الشكل التالى نبين منحنيات Lorenz لتوزيع الدخول(٢) • فعلى المحور الرأسى نبين توزيع السكان كنسبة مئوية •

وعلى المحور الأفقى توزيع الدخول كنسبة مئوية أيضا •

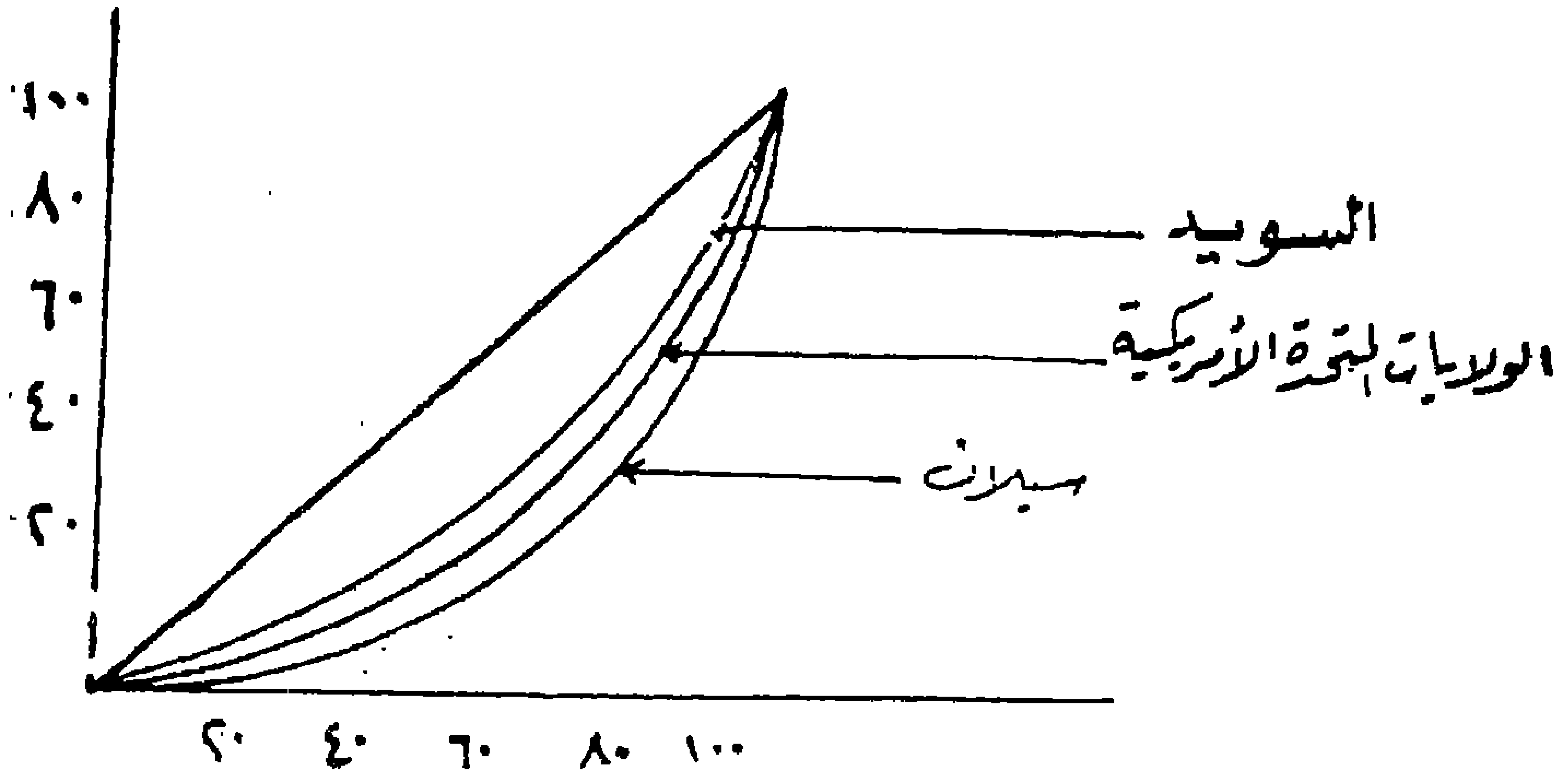
ومن الواضح أن التوزيع الأمثل هو المستقيم ٤٥° وكلما اقترب التوزيع

---

(١)

(٢) Cf. P.A. Samuelson, Economics, Mac Graw Hill, 1967, p. 111.

الحقيقى منه كلما كان التوزيع أقرب الى المساواة • ومن الواضح أن التوزيع فى السويد والولايات المتحدة الامريكية أفضل منه فى سيلان ذات الدخل المحدود :



أما السبب الثانى لتحقيق المساواة فهو أن الآلة تساعد على تخفيف الفروق بين الأفراد • فكما أن الآلة فى القرن التاسع عشر قد قللت من أهمية الفروق فى القوة العضلية لأن الآلة قد أصبحت تقوم بذلك ، فان هناك محلا للتساؤل عما اذا كان الاوتوميشن وهو يقوم أيضا ببعض الأعمال الذهنية من شأنه أن يقلل من أهمية الفروق عند الأفراد فى هذه الناحية أيضا •

وأخيرا لا يخفى أن الاوتوميشن وهو يؤدى الى زيادة الانتاجية انما يساعد على تقليل ساعات العمل وزيادة الفراغ المتاح للعمال • وهذا الموضوع من الأهمية بحيث يحتاج الى معالجة مستقلة وهذا ما نتناوله الآن •

* * *

ثانيا ـ الأوتوميشن والفراغ :

الاوتوميشن وهو يعنى زيادة الانتاجية يؤدى فى الوقت نفسه الى نقص العمل وزيادة الفراغ ، وذلك لأن زيادة الانتاجية تتضمن الحصول على نفس الانتاج من عمل أقل من ناحية ، كما أن ارتفاع الدخل الناتج عن زيادة

الانتاجية يؤدى بدوره الى زيادة الطلب على الفراغ •

ونلاحظ أولا أن مشكلة العمل والفراغ لم تعرض بشكل واضح الا منذ الثورة الصناعية([1]) ، أما قبل ذلك فقد كان الأمر مختلطا ، وعلى أى الأحوال فان **فكرة أن الزمن عنصر نادر وينبغى محاولة استخدامه أحسن استخدام فيما يتعلق بكيفية توزيعه بين العمل والفراغ ـ هذه الفكرة حديثة وترتبط بوجه خاص بالآلة •**

كذلك ينبغى أن نلاحظ أن التقدم الفنى وقد ساعد على زيادة عرض السلع والخدمات بشكل كبير جدا ، الا أنه ظل محدود الأثر فيما يتعلق بالزمن الذى لا زال عنصرا نادرا ، بل لعله الآن أكثر ندرة من أى وقت مضى • حقيقة ، يمكن القول بأن التقدم الفنى قد زاد من عمر الانسان حيث مكنه من القيام بأشياء كثيرة ما كان يستطيع القيام بها من قبل فى حياته ، ويكفى لهذا أن نرى التقدم الكبير فى السرعة ، فقد أصبح الانسان قادرا على رؤية العالم أجمع فى حيز محدود من حياته • ولكن مع ذلك يمكن القول بأن الزمن أصبح أكثر من أى وقت مضى عنصرا نادرا • وسوف نشير فيما بعد الى أن معظم الكميات الاقتصادية لها بعد زمنى سواء كانت استهلاكا أو استثمارا أو انتاجا • وهذا البعد الزمنى لا زال هو المحور الأساسى لقدرتنا على الاستهلاك بحيث أصبح فعلا أكثر العناصر ندرة على ما سنشير اليه تفصيلا • وحقيقة أن التقدم العلمى قد أدى الى تخفيض معدلات الوفيات بشكل كبير • كذلك فان متوسط average عمر الانسان قد زاد بشكل واضح • ولكن يبدو أن التقدم فى زيادة الحد الأقصى maximum لعمر الانسان لا زال محدودا للغاية ، وعلى ذلك فكل ما نستطيع أن نأمل فيه ـ على الأقل فى المستقبل المعقول ـ هو زيادة متوسط الأعمار لأفراد المجتمع مع بقاء الحد

---

(1) Cf. Juanita M. Kreps and Joseph J. Splenglen, The Leisure Component of Economic Growth, in The Employment Impact of Technological Change, p. 383.

الأقصى عند الحدود الحالية دون مجاوزة كبيرة([1]) •

وقد تم انقاص العمل وزيادة الفراغ المتاح للانسان كنتيجة للتقدم الفني المتحقق مع الآلية ثم مع الاوتوميشن بعدة صور استخدمت كلها أو بعضها فى نفس الوقت أو بالتتابع • فمن ناحية اتجهت ساعات العمل اليومية الى النقصان وبالمثل ساعات العمل الأسبوعية • ومن ناحية أخرى زادت الاجازات المدفوعة التى يحصل عليها العامل سنويا • ومن ناحية ثالثة اتجهت الحياة العملية للانسان الى النقصان المستمر سواء بتأخير الدخول فى الحياة العملية أو بالاعتزال المبكر منها •

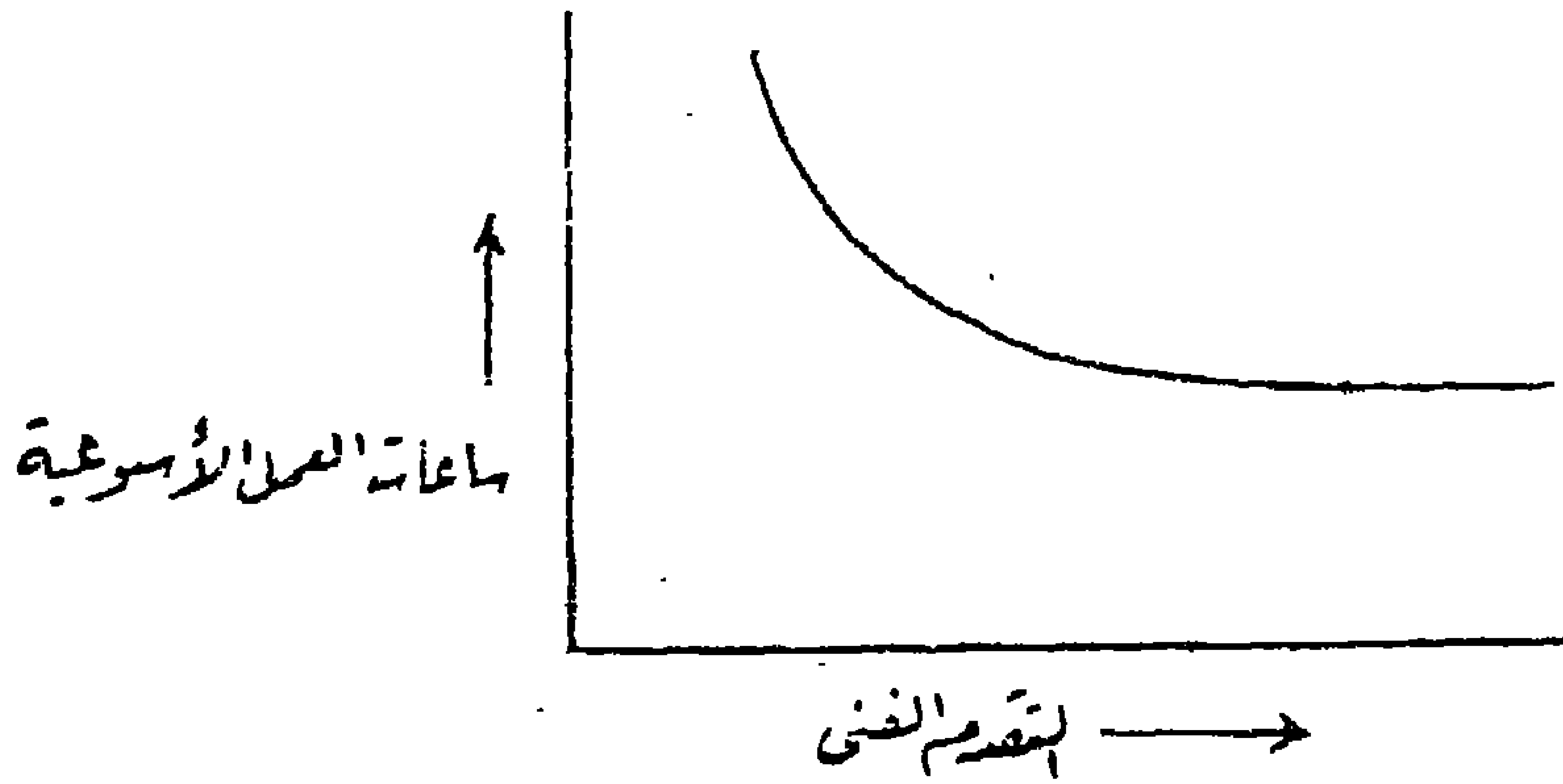
ولعل الصورة الأولى لزيادة الفراغ المتاح للانسان تمت فى شكل **انقاص ساعات العمل اليومية التى يؤديها العامل** • وقد بدأت المطالبة بانقاص ساعات العمل اليومية منذ القرن التاسع عشر وحيث كان العامل يعمل عادة حوالى ١٦ ساعة يوميا • وهذه المطالبة كانت تتم لأسباب انسانية ، كما كانت النقابات تطالب بها أحيانا كمحاولة لمحاربة البطالة • وكانت المطالبة بخفض ساعات العمل اليومية الى ١٠ ساعات احدى الأمانى الكبيرة للعمال فى القرن التاسع عشر • وقد أمكن بالفعل تخفيض ساعات العمل الى ١٠ ساعات لكثير من العمال المهرة ثم خفضت لثمانى ساعات فقط لبعض الطوائف ، واستمر التقدم فى **تخفيض ساعات العمل اليومية والأسبوعية** حتى منتصف القرن العشرين تقريبا • فقد كان متوسط ما يؤديه العامل الامريكى من عمل فى سنة ١٨٩٠ حوالى ٦١٫٩ ساعة فى الأسبوع مقابل ٤٠٫٧ ساعة فى الأسبوع سنة ١٩٦٣ •

وقد تحقق التخفيض الأساسى لساعات العمل فى الفترة ١٩٠٠ – ١٩٢٠ ثم استقر بعد ذلك • ولا شك أنه من الواضح أن ساعات العمل تقل مع زيادة التقدم الفنى • ولكن الملاحظة أسفرت عن أن العلاقة ليست دائما كذلك ،

---

(١) Jean Fourastié, La Grande Metamorphose du XXème siècle, P.U.F. Paris, 1967.

فبعد حين معين تستقر ساعات العمل الأسبوعية عند حد أدنى معين من الصعب تصور الانخفاض عنه • ويمكن أن نعبر عن ذلك بالشكل الآتى :



فمن الصعب تصور انخفاض ساعات العمل عن ٢٢ ساعة أسبوعيا (بل لعل ٣٠ ساعة فى الأسبوع تعتبر حدا أدنى معقـولا) • واذا كان آدم سميث يرى أن الهدف من الانتاج هو الاستهلاك ومن ثم فان الطلب على العمل طلب مشتق ، بمعنى أن الفرد يطلب القيام بالعمل من أجل الحصـــول على الدخل وانفاقه على الاستهلاك ، فانه يبدو صحيحا أيضـــا أن العمل وظـروفه جزء أساسى من حياة الانسان لا يمكن الاســتغناء عنه(١) ومن ثم فانه يمكن النظر الى الطلب الى العمل كمستقل يطلب لذاته • كذلك يمكن أن نلاحظ أنه بعد حد معين من تخفيض ساعات العمل بما يحقق ظروفا انسـانية للانتـــاج وبما يحمى الصحة البدنية والنفسية للعامل ـ فان كل فراغ يتاح للانسان بعد ذلك يجب أن يكون فى صورة تمكنه من الافادة به على أحسن وجـــه • وسوف نرى أن الافادة من الفراغ ـ بعد ذلك الحد الأدنى ـ تزداد كلما زادت كمية الفراغ المتاح دفعة واحدة • وبعبارة أخرى فـانه يمكن القـــول بأن الفراغ يعرف وفورات الحجم economies of scale ولذلك فان صور الفراغ الأخرى غير تخفيض ساعات العمل تبدو أكثر مناسبة •

---

(١) Cf. George J. Stigler, The Price Theory, 3rd. edition, Mac Millan, New York, 1966, p. 267.

ان تخفيض ساعات العمل الأسبوعية يقصد به تحقيق ظروف عمل مناسبة ومتوازنة من حيث العمل والراحة وبعض المتع المعقولة التى تساعد على العمل • ولكن الاستمتاع بالفراغ فيما جاوز ذلك ، لا يمكن أن يتحقق على الوجه الأمثل الا اذا أتيح للعامل فترات طويلة نسبيا من الوقت • فالرحلات والسياحة ومزاولة الكثير من الهوايات يستلزم أوقاتاطويلة ومتصلة ولا يمكن توزيعها دائما على فترات قصيرة لمدد متكررة وهذا ما نقصده بوفورات الحجم أو النطاق للاستمتاع بالفراغ • ولذلك لم يلبث أن أدى التقدم الفنى الى زيادة حجم الفراغ المتاح فى السنة وليس فى الأسبوع • فمع بقاء ساعات العمل الأسبوعية على ما هى عليه اتجهت المطالبات لزيادة الفراغ فى شكل اجازات سنوية طويلة ومدفوعة • وعلى ذلك فالاتجاه هو نحو زيادة الفراغ المتاح للفرد فى السنة وليس فى الأسبوع • ونستطيع القول بأن الفراغ المتاح فى الأسبوع يكاد يقترب من حدود استقراره •

ولم يقتصر الأمر على الاتجاه المتقدم بالنظر الى الفراغ فى السنة وليس فى الأسبوع ، بل جاوز ذلك الى تقصير فترة الحياة العملية ذاتها بحيث يتأخر الدخول الى الحياة العملية من ناحية ويتم الاعتزال منها بسرعة من ناحية أخرى • وبعبارة أخرى فان هناك اتجاها نحو النظر الى الفراغ فى العمر وليس فقط فى السنة أو فى الأسبوع • وهذا ما دعا أحد الكتاب الى القول بأن الحياة العملية للفرد لن تتجاوز ٤٠,٠٠٠ ساعة ، وهو العنوان الذى أعطاه لكتابه[١] (بافتراض ٣٠ ساعة فى الأسبوع ، ٤٠ أسبوعا فى السنة ، و ٣٥ سنة عمل فى حياة الفرد) • فسنوات التعليم الالزامى تزداد باستمرار فى معظم دول العالم ، وهناك اتجاه نحو جعل هذا التعليم الزاميا حتى سن ١٨ سنة • كذلك يبدأ خريج الجامعة فى الدخول الى الحياة العملية بعد سن الثلاثين • ونضيف الى ذلك أن اعادة التكوين المهنى والدورات التدريبية يحتاج اليها الجامعى الآن كل خمس سنوات تقريبا حتى يستطيع متابعة التطورات العملية فى

---

(١) Jean Fourastie, Les 40.000 Heures, op. cit.

ميدانه • ولذلك فانه يحتاج الى ما بين أربع أو خمس سنوات بعد ذلك خلال حياته العملية للدراسة والدورات التدريبية •

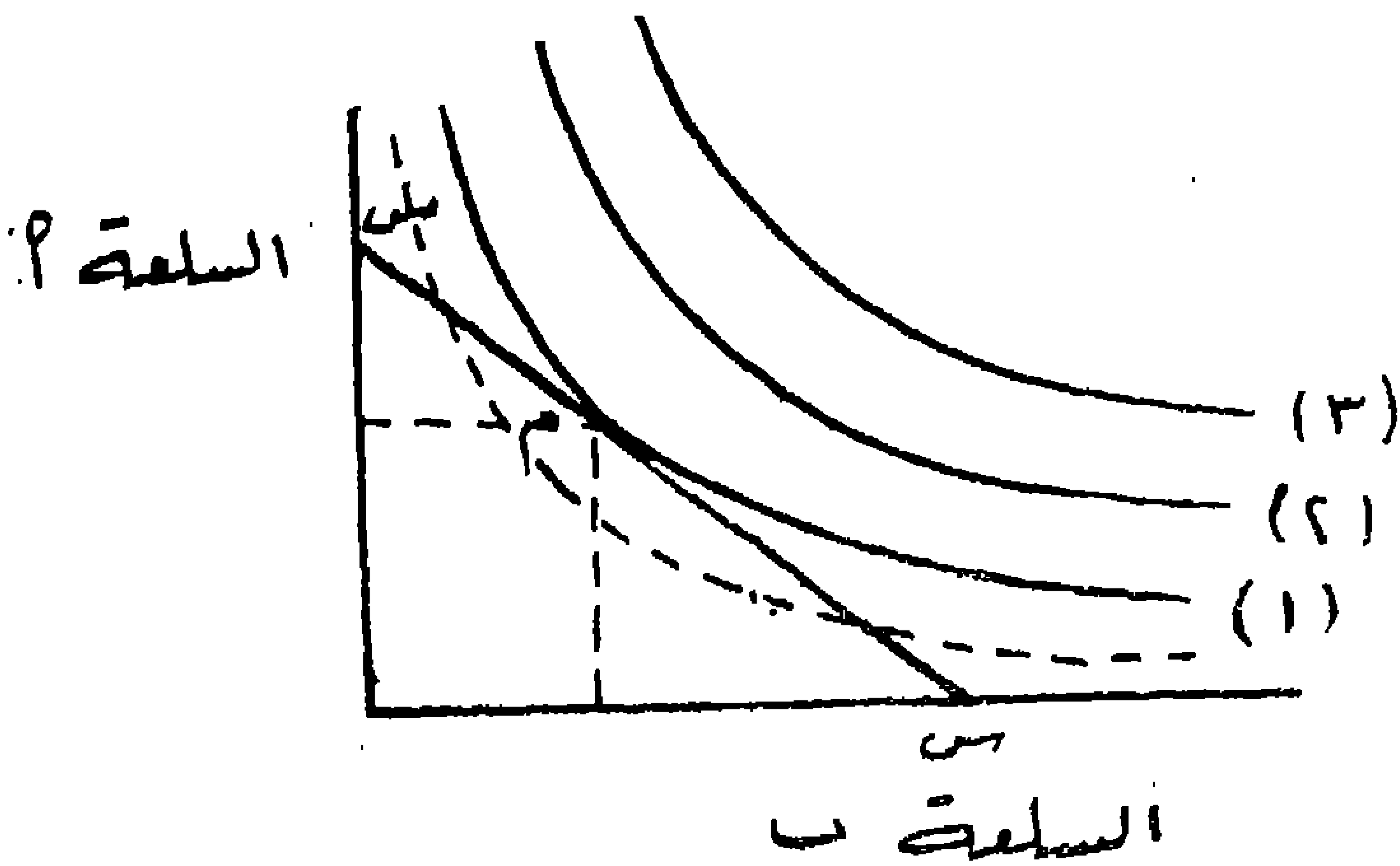
كذلك اذا نظرنا الى سن الاعتزال نجد أنه يتقدم باستمرار ، وقد كانت الفكرة السائدة فى أول الأمر أن تقديم سن الاعتزال يتم كاجراء للمساعدة على زيادة العمالة وافساح المجال أمام الشبان • ثم مع التقدم وتزايد وسائل الترف أصبح الاعتزال المتقدم من الوسائل الضرورية لكى يمكن الافادة من هذه الوسائل المتاحة ، فالرحلات حول العالم ودراسة خصائص الشعوب والحضارات المختلفة والتبشير بمذاهب أخلاقية ، وخلافه ، كل ذلك يحتاج الى وقت طويل لا يستطيع أن يوفره سوى قلة من العاملين فى هذه الميادين بالذات ، ولذلك فان عددا كبيرا من غير هؤلاء يفضل الاعتزال المبكر لكى يتمكن من الاحاطة بهذه الأمور • وهذا الاعتزال المبكر يؤدى بدوره الى خلق مشاكل جديدة سوف نتعرض لها فى تطور الحاجات فيما بعد •

والواقع أن أهمية الفراغ بالنسبة للانسان لم تخف ، فمنذ وقت طويل اهتم الاقتصاديون ببحث موضوع العمل والفراغ • واستعراض هذه الأفكار ومناقشتها يسمحان لنا بادراك أعمق لمشكلة الفراغ •

وقد جرت العادة على أن الاختيار بين العمل والفراغ يتم بناء على متغيرات هى الدخل والثمن النسبى لكل منهما • وعادة ينظر الى الطلب للعمل كطلب مشتق من الطلب على السلع والخدمات ، يعكس الفراغ الذى يطلب لذاته • ومع ذلك فان هذه التفرقة ليست صحيحة دائما ، على ما سنرى ، فالطلب للعمل ليس دائما طلبا مشتقا ، اذ أنه يعطى اشباعا مباشرا ، أهمية اجتماعية ، احترام الذات ، اشباع الهواية ، الرغبة فى خدمة الغير •• الخ •
كذلك فان الطلب على الفراغ قد يكون طلبا مستقلا اذا نظر اليه كمجموعة من الأنشطة والخدمات ، ومع ذلك فقد يكون طلبا مشتقا اذا أخذنا فى الاعتبار أن الاستهلاك يأخذ وقتا ، ومن هنا فان الرغبة فى استهلاك السلع والخدمات التى يوفرها الدخل تتطلب طلبا على الفراغ •
وسوف نتناول هذه النقطة فيما بعد • والواقع أن النظر الى طلب العمل

كطلب مشتق أو مستقل يتفق مع التفرقة التى قال بها Max Weber
من أن هناك مجتمعات تخضع للأخلاق البروتستانتية وحيث يكون العمل فيها واجبا ومن ثم فان الانتاج يكون نتيجة لهذا العمل by = product فهنا طلب العمل مستقل ، ولكن هناك مجتمعات أخرى تحب الاستهلاك ، بحيث يكون الطلب على العمل طلبا مشتقا •

وقد استخدم الاقتصاديون لبيان اختيار الفرد بين العمل والفراغ وسائلهم المعروفة فى منحنيات السواء indifference curves فهذه المنحنيات تبين المجموعات المختلفة من السلع التى يكون عندها المستهلك عند نفس المستوى من الاشباع • فنفرض أن لدينا سلعتين ، أ ، ب ، فكل منحنى يبين كمية من السلعتين أ ، ب بحيث يحقق عندها المستهلك درجة معينة من الاشباع ، والانتقال من نقطة الى أخرى على المنحنى يعنى أن المستهلك يضحى بكمية من احدى السلعتين ويستهلك كمية أكبر من السلعة الأخرى • ولكن ما حققه من منفعة نتيجة زيادة استهلاك احدى السلعتين يساوى ما ضحى به من منفعة نتيجة نقص نقط المنحنى الواحد ، ويستوى لديه أن يكون عند هذه النقطة أو تلك ولذلك يطلق عليه اسم منحنى السواء • واذا كانت كل نقط المنحنى الواحد متساوية فمن الواضح أن كل منحنى يختلف عن غيره ، وكلما بعد المنحنى عن المحاور كلما كان الوضع أفضل ونستطيع أن نبين ذلك على النحو الآتى :

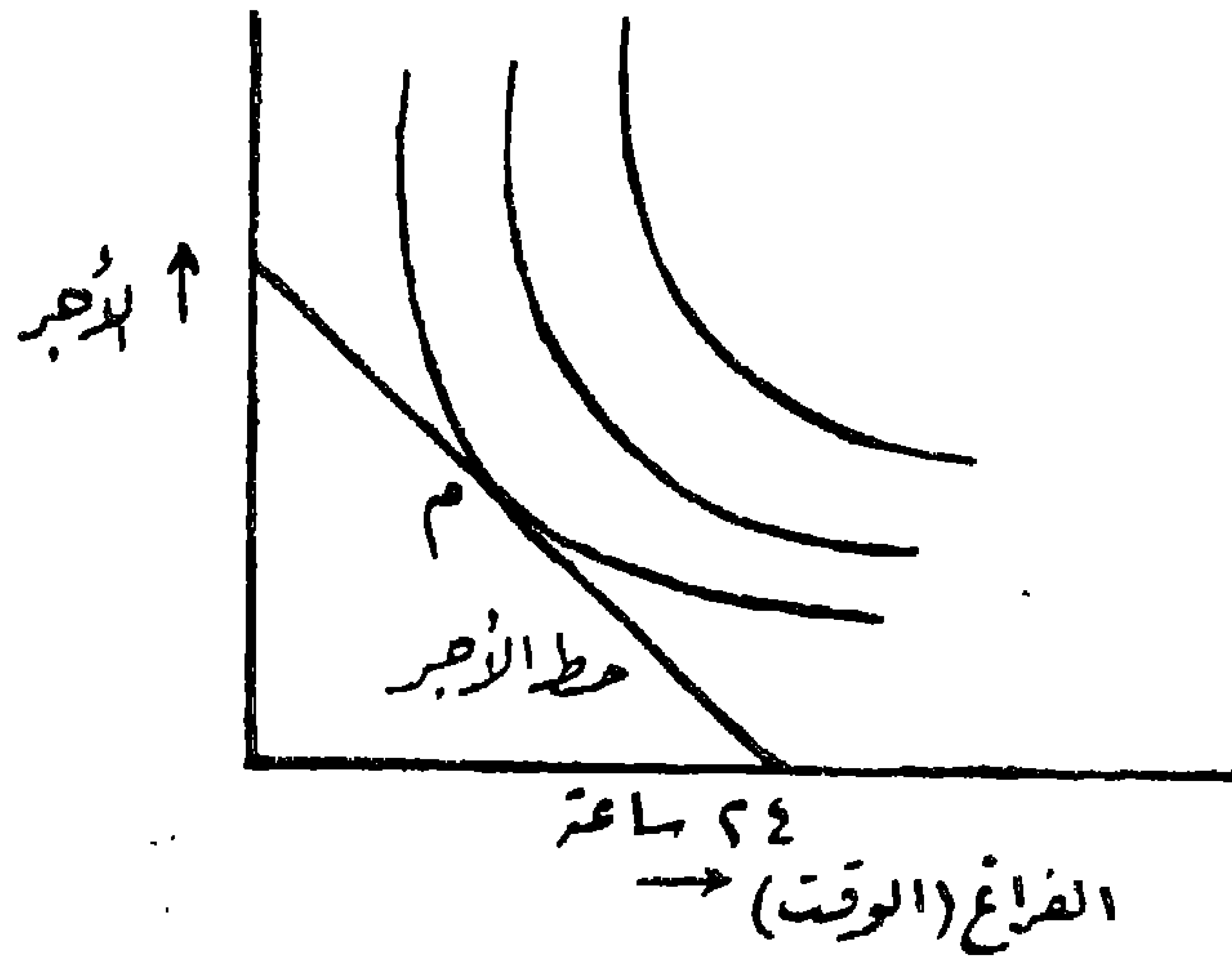


فهذه المنحنيات الثلاثة تبين درجات مختلفة من ناحية الاشـــباع • ومن الواضح أن المنحنى (٣) يفضل المنحنى (٢) الذى يفضل بدوره المنحنى (١) • ولكن جميع النقط على أحد المنحنيات متساوية فيما بينها • ويتحدد الاستهلاك عندما يمس خط الثمن س س أحد منحنيات الســـواء ، وهو فى الرسم عند النقطة م • وخط الثمن يعبر ميله عن الثمن النسبى للسلعة أ بالنسبة للسلعة ب ويطلق عليه أحيانا اسم خط الدخل • فالفرد قد يستطيـع بدخله كلـــه أن يحصل على س من السلعة ب أو على س من السلعة أ وفقا للأثمان النسبية السائرة للسلعتين ، وهو يستطيع أن يحصل على أى كمية من السلعتين أ ، ب ، وتكون واقعة على الخط س س • وأفضـــل وضـــع بالنسبة للمستهـلك هو الوضع م ، لأنه من ناحية يتفق مع دخله (لأنه واقع على خط الدخل) ، وفى نفس الوقت يحقق له أقصى اشباع ممكن لأنه يمس أعلى منحنى سواء ممكن فى حدود دخله ، فأى نقطة أخرى غير م وان كانت تتفق مع دخله الا أنهـا تقطع منحنى سواء آخر أسوأ من المنحنى (١) (لاحظ مثلا منحنى السواء غير المتصل) •

وقد استخدم الاقتصاديون نفس الأسلوب لبيان الاختيـــار بين العمـل والفراغ • والواقع أن الفرد يقارن بين التخلى عن الفراغ أو الـــوقت وبين الدخل الذى يحققه له العمل ، ذلك أن منفعة العمل هى الدخل الذى يحصل عليه العامل • ولذلك نستطيع أن نرسم خريطة لمنحنيات الســـواء map of indifference curves للفراغ والأجر على النحو الآتى(١) :

---

(١) Tibor Scitovsky, Welfare and Competition, Unwin University Books, London, 1952.



فكل منحنى يعبر عن مجموعة من النقط من الفراغ والدخل ، وهـذه المجموعات متساوية من حيث الاشباع ، فالانتقال من نقطة الى أخرى على نفس المنحنى يعنى التضحية ببعض الأجر (الفراغ) من ناحيــة وزيادة الفراغ (الأجر) من ناحية أخرى ، بحيث أن الألم المضـــحى به يســاوى المنفعة المتحققة ، وهكذا يكون الفرد فى وضع سواء • ومن الطبيعى أيضا أن المنحنى الأبعد يعتبر أفضل من المنحنى الأقرب للمحاور •

ويمثل خط الأجر ما يستطيع العامل الحصول عليه نتيجــة التخلى عن الفراغ والعمل ، وبما أن الحد الأقصى للوقت هو ٢٤ ســاعة فى اليوم ، فان الفرد يستطيع ألا يعمل اطلاقا ويحصل على كل وقته فراغا ، أو أن يتخلى عن الفراغ ويحصل على بعض الدخل • وفى الشكل المتقدم نجــد أن الوضـع الأمثل بالنسبة لهذا الفرد هو النقطة م • ويعبر عن تغيير الدخـل بانتقال خط الأجر بشكل متواز ، كما يعبر عن تغيير الثمن (معدل الأجر) بتغير ميل هذا الخط •

والآن ما هو تأثير تغيير الدخل وتغيير الثمن على العمل والفراغ ؟

يمكن التمييز فى تأثير الدخل على استهلاك السلع والخدمات بين نوعين ،

السلع العادية normal goods وهى التى يزيد استهلاكها مع زيادة الدخل وينقص بنقصانه ، والسلع الرديئة inferior goods وهى السلع التى ينقص استهلاكها مع زيادة الدخل • ويرى الاقتصاديون بصفة عامة أن الفراغ سلعة عادية وليست سلعة رديئة ، ومعنى ذلك أن زيادة الدخل تؤدى الى زيادة الطلب على الفراغ أى نقص العمل المعروض(١) •

أما الثمن وتأثيره فان زيادة أجر ساعة العمل يعنى أن التضحية بالأجر أكبر للحصول على ساعة فراغ ، ومن ثم يقل طلب الفراغ مع زيادة الأجر ويتم احلال العمل محل الفراغ •

والآن ما هو تأثير تغير الأجر على العمل والفراغ ؟

يميز الاقتصاديون بين أثر الدخل income effect وبين أثر الاحلال substitution effect وطبقا لأثر الدخل ـ فان ارتفاع الأجر يؤدى الى نقص المعروض من العمل (زيادة طلب الفراغ) وطبقا لأثر الاحلال فان ارتفاع الأجر يؤدى الى زيادة المعروض من العمل (احلال العمل محل الفراغ) ويتوقف الأثر النهائى على مدى أهمية أثر الدخل بالنسبة لأثر الاحلال •

وقد رأى آدم سميث(٢) على خلاف الاقتصاديين التجاريين أن زيادة الأجر تؤدى الى زيادة المعروض من العمل ، وبعبارة أخرى رأى أن اثر الاحلال له الغلبة على أثر الدخل • ونفس المنطق نجده عند الاقتصادى الفرنسى J.B. Say والاقتصادى الانجليزى A. Marshall وعلى العكس من ذلك يرى مالتس أن زيادة الدخول تؤدى الى نقص عرض العمل • والدراسات التطبيقية غير قاطعة ، فمن ناحية وبسؤال عدد كبير من ذوى المهن

---

(١) Cf. T. Scitovsky, Welfare and Competition, p. 87.

(٢) Cf. A. Smith, Wealth of Nations, University paper backs, London, p. 91.

الحرة ، وهم الذين يستطيعون التحكم فى ساعات عملهم ، تبـــين أنه لا أثر لتخفيض أجورهم على ساعات العمـــل التى يبذلونها(١) ، فى حين أنه تبين وجود دراسات أخرى توضح أن ذوى الدخل المرتفع يبذلون ساعات عمـل أطول من غيرهم(٢) .

والواقع أن التحليل المتقدم والذى يأخذ به الاقتصاديون عادة محل نظر، فتشبيه العمل بالسلع الأخرى عند تغير ثمن العمل ، والبحث عن أثر الدخل وأثر الاحلال نتيجة الأجر لا يمكن مقارنتها بتغيرات أثمان السلع الأخرى . فاذا كان لدينا سلعتان ، أ ، ب ، وتغير ثمن احـــداهما بالنسبة للأخرى فمن المعقول أن نبحث أولا عن تأثير هذا التغيير على الدخل الفردى ثم تأثير هـــذا التغيير فى الدخل بدوره على استهلاك كل من السلعتين ، وهذا هو أثر الدخل الفردى ثم نبحث بعد ذلك عن أثر احلال السلعة التى انخفض ثمنهـــا محل السلعة التى ارتفع ثمنها ، وهذا هو أثر الاحـــلال . أما فى حـــالة العمل والفراغ ، فان المقارنة تتم بين الفراغ وبين الدخل مباشرة ومن ثم فلا يكـــون هذا الشىء الثالث الذى نبحث عن تأثيره على الأمرين محل المقارنة . وبعبارة أخرى فى حالة الفراغ والدخل ، يدخل الدخل مباشرة باعتباره العنصر الثانى لعلاقة المقارنة ، أما فى حالة السلع فالمقارنة تتم بين السلع ، والدخل يدخل باعتباره عنصرا خارجيا يؤثر بدوره على عنصرى المقارنة . وعلى ذلك نستطيع أن نقول انه فى حالة المقارنة بين العمل والفراغ لا يوجد سوى اثر واحد هو أثر الاحلال .

وعلى ذلك ينعقد السؤال كيف يعمل أثر الاحلال بين الفراغ والدخل ؟

لبيان ذلك نقول أن هناك نوعين من السلع ، سلع متنافســة competitive وسلع مكملة complementary فأما السلع المتنافسة فهى سلـع تشبع نفس

---

(١) Cf. G.F. Break, "Income Taxes and Incentives to Work", American Economic Review, Sept. 1957.

(٢) Cf. Hardd Wilensky, The Uneven Distribution of Leisure, Social Problems, Vol. 9, 1961-62.

الحاجة ، والمستهلك يختار واحدة أو الثانية • أما السلع المكملــة فهى سلع يجب استخدامها معا لاشباع نفس الحاجة ، فالمستهلك عليه أن يختار السلعة الأولى والسلعة الثانية معا • وعلى ذلك ففى حالة السلع المتنافســة فان زيادة استهلاك الواحدة يعنى نقص استهلاك الثانية ، أما فى حالة السلع المتكاملة فان زيادة استهلاك سلعة يعنى زيادة استهلاك الأخرى أيضا •

وهنا نتساءل هل الدخــل والفراغ سلعتان متنافستان أم متكاملتان ؟ اذا كانتـــا متنافستين ، فان معنى ذلك أن زيادة الدخــل تعنى نقص طلب الفراغ ومن ثم زيادة العمل ، أما اذا كانتا متكاملتين فان معنى ذلك أن زيادة الدخل تعنى زيادة طلب الفراغ ومن ثم نقص العمل •

نلاحظ أولا أن الوقت محدود ، وسواء نظرنا فى ذلك الى عمر الانسان أو الى يومه فالانسان لديه كمية محدودة من الزمن لـكى يوزعها بـين العمل والفراغ ونلاحظ ثانيا أن الدخل وهو منفعة العمل عبارة عن مجمـــوعة من السلع والخدمات يستطيع أن يحصل عليها الفرد وأن اشباعه يأتى من استهلاك هذه السلع والخدمات • ويلاحظ ثالثا ان الاستهلاك ليس عملية مادية لا زمنية وانما هى عملية ممتـــدة فى الزمن ، بمعنى أن لها بعـدا زمنيا ، فالاستهلاك يتطلب وقتا ، ومزيد من الاســتهلاك يتطلب مزيدا من الوقت(1) • ومعنى ذلك أن الافادة من الدخل تتطلب وقتا لكى يتحقق ذلك •

وعلى ذلك نستطيع أن نعرف ما اذا كان الفراغ متنافسا مـع الدخل أو مكملا له • فاذا كان الدخل صغيرا وما يتطلبه من وقت لاستهلاكه محدودا ، فان الفراغ يعتبر متنافسا مع الدخل ، اذ يوجد لدى الفرد متسع من الوقت لا يستخدم فى استهلاك الدخل ومن ثم يمكن دائما زيادة الدخل وانقاص الفراغ • وعلى العكس من ذلك كلما زاد دخــل الفرد وتوافرت لديه سلع كثيرة ، كلما زادت حاجتـــه الى الوقت لاستهلاك هذه السلع ومن ثم يعتبر الفراغ حينذاك سلعة مكملة للدخل •

---

(1) Cf. Juanita M. Kreps & Joseph J. Splengler, The Leisure Component of Economic Growth, p. 385.

وهكذا نستطيع أن نرى كيف انه في المجتمعات المتقدمة يعتبر الوقت عنصرا نادرا ، كمـــا أن الفراغ الحقيقي لا يوجـــد ، فالوقت دائما مشغول اما بالعمل واما باستهلاك السلع والخـــدمات التى نحصل عليها نتيجة هـــذا العمل • أما الفراغ بمعنى الوقت المتاح للتأمل فانه لا يكاد يوجد • ومن هنا نفهم أيضا أنه بالرغم من التقدم الكبير فى الانتاجية وتقصير ساعات العمـل اللازمة للانتـــاج ، فان الأفراد لا يجدون الآن الوقت الـكافى الحر تماما • ولذلك فان مشكلة الجميع فى هـــذا العصر الذى زادت فيه الانتاجيـة هذه الزيادة ــ المشكلة هى أنه لا يوجـــد وقت لديهم • **ذلك أن الكسب المتحقق فى الانتاج قد استغرق فى استهلاك هذا الانتاج •**

كذلك نلاحظ أنه على حين أن المقـارنة بين السلع نتيجـة لاختـلاف الأثمان تمكن المستهلك من اختيار الـكمية التى يريدها من كل سلعة ، فان العمل لا يتمتع بالمرونة الكافية • فالعامل عليه أن يقبل العمل أو يرفضـه ، فلا يستطيع مثلا أن يعمل لفترات محدودة فى الأصل •• ولذلك فان الاكثار من نظام العمل الجزئى part time لما يحقق مرونة أكبر فى نظام العمل بحيث يتفق أكثر مع حرية اختيار الأفراد • وهذا النظام يناسب بوجه خاص ظروف عمل السيدات •

* * *

ثالثا ــ الأوتوميشن وتطور الحاجات :

ان تطور حاجات الانسان مع التطورات التكنيكية والفن الانتاجى يعتبر نغما قديما ناضـــل من أجله ماركس(1) وثار جـــدول كبير حـــول مدى عموميته ، ولكن لا يكاد يوجـــد اعتراض الآن ، على أن الانســان وحاجاته ونظمه الاجتماعية تتطور مع تطور الفن الانتاجى •

---

(1) Cf. A Letter to P.V. Annekov, 1848 in K. Marx & F. Engels, Selected Works, Vol. 2, Moscow 1962, the Preface to a Critique of Political Economy, 1857, Capital, Vol. 1, 1867, pp. 377-82.

واذا كان تطور الفن الانتاجي من الآليــة الى الأوتوميشن قد أدى الى زيادة الانتاجية والانتاج زيادة كبيرة ، فان تطور الحاجات نتيجة للفن وزيادة الانتاج لا يتبع بالضرورة اتجاهات الانتاج ولذلك فان تطور الحاجات وشــكل الاستهلاك يؤديان الى تغيرات كبيرة في الاقتصاد •

وقد عرف الاقتصاديون منذ وقت طويل ان زيادة الدخول مــع زيادة الانتاج تؤدى الى تحول الاستهلاك من السلع الزراعية الى السلع الصناعية • وقد أشــار كولن كلارك Colin Clark ([1]) الى أن وليم بتى فى القرن السابع عشر أبدى هذه الملاحظة • وقد جعل منهــا كولن كلارك أســاس نظريته فى أن ارتفاع الدخول (مع زيادة الانتاجية) يؤدى الى التحول من الصناعات الأولية الى القطاع الثانى فى الصــناعات التحويلية • وينبشى ذلك على ملاحظة آدم سميث « بأن قدرة المعدة محدودة » ، فكلما زاد الدخـــل زاد استهلاك السلع الزراعية بنسبة أقل ، وهـــو ما يعبر عنه بالقــول بأن المرونة الدخلية للسلع الزراعية صغيرة •

وقد أخذ هذه الفكرة ونماها بشــكل كبير الاقتصــادى الفرنسى جان فوراستيه([2]) ، فقد قسم الأنشطة من حيث التقــدم الفنى الى ثلاثة قطاعات ، قطاع أولى primary sector وتمثله الزراعة بوجه خاص ، ويعرف تقدما فنيا محدودا (وينبغى أن نلاحظ أن الزراعة قد عرفت تقدما فنيــا فى الفترة التالية للحرب العالمية الثانية جاوزت فى كثير من الأحوال التقدم المتحقق فى الصناعة • ولـــكن فوراستيه لم يأخذ بهـــذه الملاحظة) ، والقطاع الثــانى secondry sector وهو يتكون من الصناعات التحويلية ويعرف تقدما فنيــا ضخما ، وأخــيرا القطاع الثالث أو قطاع الخدمات ، والتقدم الفنى فيــه يكاد يكون معدوما • وفى مواجهة هذه التطورات فى جانب الانتــاج نتيجة للتقدم

---

(١) Cf. Colin Clark, Les Conditions du Progrès Economique, (trad.) P.U.F. 1960, p. 311, Paris.

(٢) Cf. Jean Fourastié, Le Grand Espoir du XXème Siècle, P.U.F. Paris, 1958.

الفنى نجد أن تطور حاجات الاستهلاك لم يكن مماثلا • فالطلب على استهلاك السلع الزراعية (القطاع الأول) لم يزد سوى زيادة محدودة جـــدا وزاد الطلب على استهلاك السلع المصنوعة (القطاع الثانى) زيادة كبيرة ولكنهـــا تكاد تقترب الآن من الاشــــباع ، وأخيرا فان الطلب على الخـدمات (القطاع الثالث) يزيد زيادة كبيرة ولا ينتظر أن يصل الى اشباع قريب • وقد أدى هذا التطور المزدوج للانتاج والاستهلاك الى تغيير هيكل العمالة • ويكفى فى هذا الصدد مقارنة الهيكل الحالى للقوة العـاملة فى الدول المتقدمة بمثيله فى القرن الماضى • ففى القرن الماضى كان أكثر من ٨٠٪ من أفراد اليـد العاملة يعملون فى الزراعة • والآن نجـد أن نصيب الزراعـة يتناقص باستمرار ، فهى فى الولايات المتحدة الامريكية حوالى ١٠٪ بل انها فى انجلترا لا تحتل أكثر من ٥٪ من قوة العمل • وعلى العكس من ذلك نجد أن نصيب القطاع الثانى والثالث فى تزايد مستمر • والملاحظة الجديرة بالذكر هى أنه بعد حد معين يبدأ تزايد القطاع الثالث بشكل كبير ، حتى انه يمثل الآن فى دولة مثل الولايات المتحدة الامريكية حوالى ٥٥٪ من قوة العمل • ويرى فوراستيه أن الوضع الطبيعى بعـــد تحقيق كافة التغيرات اللازمة ـ يكون بتوزيع القـــوة العاملة على النحو الآتى : ١٠٪ فى القطاع الأول ، ١٠٪ فى القطاع الثـانى ، ٨٠٪ فى قطاع الخــــدمات • **وهكذا يتضح أن حضارة الآلة ستكون حضارة خدمات(١) بالدرجة الأولى** •

ونلاحظ أن الخدمات بطبيعتها لم تعرف سوى تقـــدم بطىء من حيث الانتاجية ، ولذلك فان انتاجها واستهلاكها يحتـاجان الى وقت • ولعـل أبرز ما يميز الخدمات هى أنها لا تقبل ـ فى الأصل ـ الاختزان ، فاستهلاكها يتم بمجرد انتاجها • وقد كانت هذه الملاحظة هى السبب الذى رفض من أجله آدم سميث ادخال الخدمات ضمن العمـــل المنتج • ذلك أن آدم سميث وقد اهتم بزيادة ثروة الأمم ، فقد كان شاغله الكبير هو كيفية تكوين الاستثمارات

(١) Cf. Jean Fourastié, Le Grand Espoir, p. 59.

(تراكم رأس المال) لزيادة الثروة ، وهكذا فقد كان اهتمامه الأكبر بالسلع التي تقبل التخزين ومن ثم تصلح للاستثمار ، ولذلك فقد استبعد الخـدمات كلية من العمل المنتج • وبطبيعة الأحوال فان هذا النظر قاصر على ما سنرى بالنسبة لخـدمات التعليم والصحة وغـيرها • ولكن الذى يهمنا هنا هـو ما يستغرقه انتاج واستهلاك الخـدمات من وقت ، ولذلك فان البعد الزمنى يكون كبير الأهميـة بالنسبة للخـدمات • **وهكذا تربط الخدمات بمشكلة الفراغ ، فكلمـا زادت أهمية الخدمات ضمن الحاجات التى يطلبهـا الانسان كلما زاد ما يطلبه من وقت** • وهكذا نرى الارتباط بين اقتصاد الخدمات وبين اقتصاد الفراغ • فالفرد مثلا يستطيع أن يكدس ثلاث سيارات وعشرات من الأدوات الكهربائية ، ولكنه لا يستطيع أن يكدس مشاهدة عدة **مسرحيات أو** حفلات موسيقية أو زيارات سياحية دون أن يستهلك وقتا •

واذا كان التطور فى ظل الأوتوميشن والآلية هو نحو اقتصاد الخدمات ، فذلك لأن أهم ما يميز الخدمات هو أنها تعتمد بصـفة أساسية على العنصر الانسانى ، وهكذا نرى أن الحضارة الآلية تنتهى لتصبح حضـارة انسانية • وهذا هو ما قصدناه عند القول بأن الأوتوميشن يتضمن تصعيدا للانسـان • ومن مظاهر هـذا التصعيد فى الحيـاة الاقتصـادية الاهتمام بما يسمى باقتصاديات الموارد البشرية ، التعليم والصحة وانقاذ البيئة •

ان الاهتمام بقيمة الانسان قديم ، فنحن نذكر عبارة كارل ماركس بأن الانسان هو الثروة الحقيقية• كما نجد اشارات مماثلة عند **جون ستيوارت ميل**، ولكن الاهتمام الحقيقى بهذا الأمر لم يظهر الا حديثا جدا • ففى مقال حديث جـدا • أشار الاقتصـادى الامريكى شولتز(١) الى أهمية الاسـتثمار فى رأس المال الانسانى ، وبوجه خاص فى التعليم • وقد أثارت هذه المقالة ردود

---

(١) Cf. T. Schultz, Investment in Human Capital, American Economic Review, Vol: 51, 1961, reprinted in Economics of Educations, edited by M. Blaug, Vol. I, Penguin Economic, 1968.

فصل كبيرة حتى أن البعض يعتبرها بمثابة مولد فرع جديد من العلوم الاقتصادية هو اقتصاديات التعليم Economics of education.

والواقع أن التعليم يختلف فى طبيعته عن الكثير من أوجه النشاط . فقد تعلمنا من الاقتصاد التفرقة بين الاستهلاك والاستثمار . فأما الاستهلاك فيقصد به اشباع الحاجات الانسانية مباشرة سواء أكانت حاجات فردية أم حاجات جماعية ، وأما الاستثمار فيقصد به الاضافة الى الثروة بما يساعد على زيادة القدرة على الانتاج والاشباع فى المستقبل . أما التعليم فهوفى الحقيقة ذو طبيعة مختلطة[1] فهو من قبيل الاستهلاك والاستثمار معا . لا جدال فى أن الحاجة الى التعليم والمعرفة تعتبر من أرقى الحاجات الانسانية ، وكلما زاد تحضر الدولة كلما زاد الحاح هذه الحاجة ، ومن هذه الناحية نجد أن التعليم هو من قبيل الاستهلاك . ولكن العلم أمر ضرورى للتقدم وخصوصا فى العصر الحديث الذى تتولد فيه الاختراعات يوما بعد يوم تطبيقا لنظرية علمية أو لأخرى ، كما أن استخدام الكثير من الأجهزة بمهارة وكفاءة يحتاج أيضا الى معرفة وتدريب ، ومن هذه الناحية نجد أن التعليم هو من قبيل الاستثمار. والواقع أن مقاومة الاقتصاديين ـ لبعض الوقت ـ لفكرة التعليم كاستثمار ومن ثم كنوع من أنواع رأس المال ، ترجع الى التراث اللبرالى الذى عاش فيه الاقتصاديون . فالانسان الحر يصعب تشبيهه برأس المال وما يرد عليه من حقوق للتصرف فيه ، ومن قواعد للاسترشاد بها فى كيفية استخدامه . والعلاقة بين النمو الاقتصادى وبين درجة التعليم غير خافية . وقد بذلت عدة محاولات لقياس دور التعليم فى تحقيق النمو الاقتصادى . والخلاف الذى يثور فى هذا الصدد لا يتعلق بانكار دور التعليم وحيويته بالنسبة للنمو الاقتصادى ، وانما بالوسائل الفنية المستخدمة لقياس هذا الدور . وقد استخدمت فى هذا الصدد عدة طرق لم يخل أحدها من انتقادات حول مدى كفاءتها فى ابراز دور التعليم . ولعل أبسط هذه الطرق وأوضحها هو دراسة

---

(١) Cf. T. Schultz, Investment, p. 22.

معامل الارتباط Correlation method بين درجات التعليم وبين درجة النمو الاقتصادى • ومن أهم الدراسات فى هذا الصدد ما قام به Harbison and Myers (١) ، من البحث عن رقم قياسى مركب composite index لمستوى التعليم يجمع بين عدد الطلبة المقيدين فى الدراسة الثانوية كنسبة من البالغين ١٥ ــ ١٩ سنة وبين عدد الطلبة المقيدين فى الدراسات الجامعية والعالية مع اعطاء هذا العامل الأخير وزنا مرجحا • وقد استخدم هذا الرقم المركب لبحث العلاقة بالنمو الاقتصادى كما تظهر فى متوسط الدخل الفردى ونسبة العاملين فى قطاع الزراعة من القوة العاملة • وقد وجد الباحثان معامل ارتباط كبيرا بين الأمرين فى دراسة شملت ٧٥ دولة •

ويؤخذ عادة على طريقة معامل الارتباط أنها وان كانت تعبر عن اتجاه مواز للتعليم والنمو الاقتصادى الا أنها بذاتها لا تتضمن أية علاقة سببية • فقد يكون نمو التعليم ظاهرة تابعة للنمو الاقتصادى وليست سببا له ، باعتبار أن التعليم من الحاجات الاستهلاكية التى يزيد الطلب عليها عادة مع زيادة الدخل(٢) •

ولذلك فقد قامت محاولات أخرى لتقدير مساهمة التعليم فى النمو الاقتصادى ، عن طريق العائد من التعليم أو باستخدام طريقة البواقى residual method أو باستخدام طريقة تقدير حاجات القوة العاملة(٣) •

فأما طريقة العائد return method فهى تحاول أن تقيس ما يعود على

---

(١) Cf. H. Harbison and C.A. Myers, Education, Manpower and Economic Growth, Mc Graw-Hill, 1964.

(٢) وقد قام T. Schultz ببحث علاقة التعليم بالدخل فى الولايات المتحدة الامريكية فى الفترة ١٩٠٠ ــ ١٩٥٥ وذلك باعتبار التعليم سلعة استهلاكية فوجد أن المرونة الدخلية للتعليم تبلغ ٣ر٥ ، ومعنى ذلك أن زيادة الدخل ١٪ يترتب عليها زيادة فى التعليم قدرها ٣ر٥٪
T. Schultz, Education and Economic Growth, in Year book of National Society of Education, 1961, p. 60.

(٣) Cf. W.G. Bowen, Assessing the Economic Contribution of Education, an Appraisal of Alternatives Higher Education.

الفرد أو المجتمع من عائد نتيجة للانفاق على التعليم • وأما طريقـــة البواقى فهى تنظر الى النمو فى العوامل المعروفة مثل رأس المال وتقارن ذلك بالنمـو فى الناتج القومى وتنسب الزيادة فى النمو فى الناتج القـومى والتى لا ترجع الى العوامل المعروفة ، الى التعليم • وأخيرا فان طريقة تقـــدير حاجات القوة العاملة ، تستخدم بوجه خاص فى فرنسا، حيث تقدر الحاجات التعليميةاللازمة من أجل تنفيذ الأهداف المرجوة • وليس هنا على أى حال مجال مناقشة هذه الطرق المختلفة ، ولكن يكفى أن نؤكد وجود عـــلاقة بين النمو الاقتصادى وبين نمو التعليم ، وهى حقيقة ينبغى أن تدركها الدول النامية والمتخلفة بوجه خاص[1] •

وأيا كان الأمر حول طبيعة التعليم فان الحاجـــة اليه كبيرة جـدا سواء باعتباره نوعا من الاستهلاك المصاحب للنمو الاقتصادى أو باعتبــاره استثمارا ومن ثم ضروريا لتحقيق ذلك النمو • والملاحظـــة الآن هى أهمية ما يشغله التعليم فى حياتنا • وقد أطلق الاقتصادى الأمريكى **Muchlup** على القطاعات التى تقوم بالتعليم ونشر الأفكار والمعلومات اسم صـناعات المعرفـة[2] • وقد بلغت حصة هذه الصناعات من الناتج القومى فى الولايات المتحدة الأمريكيـة حوالى الربع سنة ١٩٥٥ (وهى نسبة أعلى ثلاث مرات مما كان عليـــه الحال سنة ١٩٠٠) وفى سنة ١٩٦٥ بلغت هذه النسبة حـــوالى الثلث ، ويتوقع أن تصل الى نصف الناتج القومى سنة ١٩٧٠[3] ، والأمر لا يتعلق فقط بالزيادة الكمية وانما تصطحب أيضا بتحسن نوعى ، ولعله أوبنهـايمر الذى قال « ان تسعة أعشار علماء التاريخ يعيشون الآن » •

وما قيل عن أهمية التعليم يقال مثله عن أهمية الرعاية الصحية •ولذلك

---

(١) انظر محمد زكى شافعى ، دور الجامعـــات فى التنمية الاقتصـــادية والاجتماعية ، مطبوعات جامعة بيروت العربية •

(٢) Cf. Fritz Muchlup, Production and Distribution of Knowledge in the U.S. 1962.

(٣) Cf. Peter Drucker, The Age of Discontinuity, Heineman, London, 1968, p. 248.

بدأت أيضا اقتصـــاد الصحة Economics of Health في الظهور • واذا كان الاقتصـــاديون التقليديون قد اهتمـــوا بمخصص الأجور wage fund باعتباره المورد الذى يحمى وجود العمال ، فان النظرة الحديثة لم تعد تقتصر على مجرد حماية هذا الوجود وانما تتطلب أن تتوافر له كل أسباب الصحة •• وهنا أيضا نستطيع أن ننظر الى الصحة وما ينفق عليها باعتباره صورة من صور الانفاق الاستهلاكى أو الانفاق الاستثمارى ، فمما لا شـك فيه أن الاستمتاع بالحياة يتطلب رعاية صحية مستمرة ، ولـكن الصـــحة الجيدة شرط أساسى لتحقيق قدرة الانسان على المساهمة الجادة فى الانتاج •

ونلاحظ أن خدمات التعليم والصحة وهى تحقق منفعة أكيـــدة للفرد الذى يحصل على الخدمة التعليمية أو الصحية ، الا أنها لا تتوقف عند ذلك • فهناك مزايا تعود على المجتمع فى مجموعه نتيجة هذه الخدمات • فبالاضافة الى ما تؤديه هذه الخدمات من دور فى تحقيق التنمية الاقتصـــادية والاجتماعية ، فان مما لا شك فيه أن الانسان يجنى سعادة كبيرة من وجوده فى وسط متعلم صحيح البنية • ويرى علماء المالية العامة أن السلع والخدمات نوعـان ، فهناك سلع خدمات تخضع لما يسمى بمبدأ القصر The exclusnon principle بمعنى أن منفعتها تعود على صاحبها وحده ، وهناك سلع وخدمات لا تخضـع لهذا المعنى وهى التى تشيع منفعتها بين الجملع(١) • وهـذه السلع والخدمات لا تخضع لمبدأ القصر لا يمكن أن تترك لجهاز السوق والملكية الخاصة ، وانما يجب أن تتحول الى مجال الخدمات العامة وباستخدام أساليب المـالية العامة • والواقع أن التعليم والصحة من المسائل التى يصعب فيها تطبيـق مبدأ القصر ، فانه بالرغم من المزايا التى يحققها من أديت له هذه الخدمات ، الا أن ما يترتب عليها من منافع يشيع فى المجتمع • ولـذلك لم يكن غريبـــا أن أدى ازدياد الاهتمام بخدمات التعليم والصحة الى اتساع مجال الخدمات العـــامة وتدخل الدولة •

---

(١) Cf. Richard A. Musgrave, The Theory of Public Finance, Mc Graw-Hill, 1959.

والواقع أنه مع التحول الى اقتصاد الخدمات نتيجة للتقدم الذى أشرنا اليه ، فان تغيرا مقابلا لا بد أن يحدث فى طبيعة الحاجات . وهذا التطور هو الانتقال نحو مزيد من الحاجات العامة وبحيث يميل الاستهلاك نحو أنواع جديد من **الاستهلاك الجماعى** لعل فى مقدمتها الآن الاجراءات التى تتخذ لتحسين البيئة أو الوسط environment الذى يعيش فيه الانسان .

فقد أدى الاستغلال الكثيف للموارد الطبيعة من ناحية ، والاهتمام بالعائد الفردى الذى يعود على المنشأة نتيجة غلبة دافع الربح النقدى من ناحية أخرى - أدى ذلك الى تحميل البشرية نفقات وتضحيات كبيرة لم نبدأ بادراكها الا حديثا جدا . فالانتاج الصناعى الكبير وما ترتب عليه من القاء الفضلات والعادم الى الأنهار والبحار ، وعادم الوقود الذى يملأ الجو الذى نعيش فيه ، والتجارب الذرية وغيرها من الأسلحة الكيماوية والميكروبية - كل ذلك وغيره أدى الى تلوث الجو الذى نعيش فيه والبحار والأنهار والأراضى التى نستخرج منها غذاءنا ، حتى أصبحت مشكلة التلويث pullution من المشاكل الأساسية فى السنوات الأخيرة . كذلك فان التكدس السكانى الذى صاحب الثورة الصناعية الأولى قد خلق مشكلات لا تقل خطورة ، سواء من ناحية الاسكان غير الصحى أو وسائل المواصلات غير الكافية أو الضوضاء والمضايقات النفسية التى يتحملها الآن سكان المدن الكبرى .

ولذلك فان من الميادين الجديدة التى بدأت تحظى باهتمام الجامعات ومراكز البحوث ، دراسات الوسط أو البيئة Environmental Research وهى دراسات تتكاثف على القيام بها فروع عديدة من الهندسة والاقتصاد والعمارة وعلم النفس والاجتماع . ولذلك فان الجامعات الامريكية قد بدأت تنشىء أقساما خاصة لهذا الفرع من الدراسات تدخله حينا مع الدراسات الهندسية وحينا مع الدراسات الاقتصادية وحينا ثالثا مع دراسات بحوث العمليات وهكذا . كذلك تهتم الامم المتحدة بهذا الموضوع أيما اهتمام ، وتخصص عام ١٩٧٢ عاما للبيئة ، وعند كتابة هذه السطور(١) ينعقد فى

(١) تم تحرير هذه الدراسة فى شهر سبتمبر ١٩٧١ .

نيويورك اجتماع تحضيرى لدراسة مشاكل البيئة (١٦ - ٢٣ سبتمبر ١٩٧١) .

وبطبيعة الأحوال فان علم اقتصاديات البيئة

Economics of Environment

لن يتأخر عن الظهور كفرع جديد ومستقل . والواقع أن الاقتصاديين لم يغفلوا عن هذه الظاهرة ، وان احتلت لديهم مكانا جانبيا . فقد أشار مارشال منذ نهاية القرن الماضى الى ظاهرة الوفورات الخارجية External economies والنفقات الخارجية External diseconomies (١) .

فالى جانب العائد والنفقة التى يعرفها المشروع وتظهر فى السوق معبرا عنها بشكل نقدى ، هناك مزايا وخسائر يتحملها الوسط المحيط ولا يعبر عنها فى شكل نقدى ومن ثم لا تدخل فى حسابات المشروع . ومن الأمثلة التى نجدها دائما فى كتب مبادىء الاقتصاد ، المزايا الناجمة عن وجود المشروع فى ايجاد يد عاملة مدربة والخسائر الناجمة عن الضوضاء وتلويث الجو بالغبار والدخان . واذا كانت هذه الفكرة لم تحتل سوى هذا المكان الجانبى فى تعاليم الاقتصاد فالسبب يرجع الى أنها لم تأخذ فى الماضى الأبعاد الخطيرة التى وصلت اليها الآن . ولذلك فان اقتصاديات البيئة مدعوة لدراسة المزايا والخسائر التى تلحق الوسط والبيئة التى يعيش فيها الانسان .

ويساعد الاوتوميشن على تسهيل حل مشاكل البيئة من عدة نواح : فمن ناحية نجد أن الاوتوميشن وهو يؤدى الى زيادة الانتاجية وزيادة الدخل انما يسهل عبء مواجهة نفقات تمويل تحسين البيئة . ومن ناحية ثانية فان أحد الأسباب الرئيسية لمشاكل البيئة ينتج من التكدس السكانى فى مناطق محدودة ومع الأخذ بأساليب الاوتوميشن على نطاق واسع فان هذا التركز العمالى لن

---

(١) الى جانب ظاهرة الوفورات والنفقات الخارجية ، نجد أن كتب الرفاهية الاقتصادية بوجه خاص تهتم بالتفرقة بين القيمة الفردية Individual value والقيمة الاجتماعية Social value وهو ما يرتبط بنفس الموضوع .

تكون له نفس القيمة • وأخيرا فان من الممكن استخدام أساليب التحكم الذاتى فى تحديد مواصفات المنتج وبحيث يقل أو ينعدم العادم والتلوث الى درجة كبيرة •

والى جانب كل ما تقدم فان تطورا فى شكل الحاجات لابد وأن يحدث نتيجة للتغيير فى شكل وطبيعة المستهلكين • فقد سبق أن أشرنا الى آن من أهم نتائج الاوتوميشن تقصير الحياة العملية للأفراد • وقد رأينا أن ذلك قد تم من ناحية بتأخير سن الدخول الى الحياة العملية ومن ناحية أخرى بتقديم سن الاعتزال • وقد أثار دخول الشباب كطائفة كبيرة من المستهلكين دراسات عديدة لا محل لاعادة ترديدها • ولكن الجديد يبدو مع قدوم الشيوخ كطائفة جديدة من المستهلكين • فقد أشرنا الى أن التقدم العلمى والصحى قد ساعد على اطالة متوسط الأعمار ، ثم مع الاعتزال المبكر ولذلك فان من الطبيعى أن نتوقع وجود طبقة كبيرة من المستهلكين الذين جاوزوا مرحلة الحياة العملية • ويكفى لبيان ذلك أن نقارن بعض النتائج المختلفةعن التغير فى متوسط العمر • فاذا افترضنا أن الأمل فى الحياة expectation of life كان عند الميلاد ٢٥ سنة (وهذا هو الوضع السائد منذ مائة عام) فان ٦٠٪ منهم يصلون الى سن ٢٠ سنة ، ٣٧٪ الى سن ٥٠ سنة ، ٢٠٪ الى سن ٦٥ سنة • فاذا أصبح الأمل فى الحياة عند الميلاد ٥٠ سنة ، فان النسب المتقدمة تصبح ٧٦٪ ، ٥٩٪ ، ٤١٪ ، للأعمار المتقدمة • واذا كان الأمل فى الحياة عند الميلاد ٧٤ سنة فان هذه النسب تصبح ٩٧٪ ، ٩٣٪ ، ٧٨٪ للأعمار المتقدمة • واذا كان الأمل فى الحياة عند الميلاد ٧٠٫٢ سنة ، وكان معدل تزايد السكان ٢٪ فى السنة ، فان نسبة من يزيد عمرهم على ٦٠ سنة تصبح ٨٫٥٪ من السكان فى حين أنه اذا كان معدل تزايد السكان ١٪ فى السنة (وهذا أقرب الى المعقول بالنسبة للدول الغنية) فان نسبة من يزيد عمرهم على ٦٠ سنة ترتفع الى ٢٢٪ من السكان[١] •

---

(١) Cf. United Nations, Methods for Population Projections by Sex and Age, New-York, 1956, p. 76, U.N., The Age of Population and its Economic and and Social Implications, New York, 1956, p. 37.

وغنى عن البيان أن وجود نسبة كبيرة من المستهلكين من الشيوخ الذين جاوزوا سن الاعتزال من شأنه أن يغير من شكل الحاجات ونمط الاستهلاك • واذا كان الحديث قد أصبح معـــادا عن « ثورة الطلبة »(١) فان هنـــاك محلا للتساؤل عما اذا كان المستقبل القريب سيعرف « ثورة الشـــيوخ » • فيكفى نظرة واحدة الى نمط الاستهلاك حتى ندرك كيف احتل الشباب جزءا ضـــخما من سلع الاستهلاك (برامج الراديو والتليفزيون والسينما ، شكل الملابس ، أنواع الرياضة) • وليس من الطبيعى أن يستمر هـــذا النمط من الاستهلاك حين يكون الشيوخ أكثر من خمس السكان ، وغالبا أكثر من نصف الثروة •

* * *

رابعا ـ الأوتوميشن والقرارات الاقتصادية :

سبق أن رأينا مدى الصلة بين الاوتوميشن والمعـــلومات • والواقع أن تأثير الاوتوميشن على القرارات الاقتصادية يتم خـــلال التأثير على المعلومات • فمن ناحية زادت المعلومات نتيجة الأوتوميشن ، ومن ناحيـــة أخرى ارتبط بالاوتوميشن تطور كبـــير من حيث ترشيد القرارات التى تتصرف فى هذه المعلومات •

فمع تقـــــدم وسائل المواصلات ومع وجـــود الحواسب الـــكهربائية والالكترونيـــة زادت المعلومات المتاحـــة للأفراد والمشروعات ، ومن ثم فان القرارات التى يتخذونها تصبح مدعمـــة أكثر من حيث استنادها الى وقائع أكثر • فمما لا شك فيه أن الرشادة الاقتصادية تزيد كلمـــا زادت المعلومات المتاحة للوحدة التى تتخذ القرار الاقتصادى • ولكن نلاحظ من ناحية أخرى أن الزيادة الكبيرة فى المعلومات قد أدت الى صعوبة عمليـــة كبرى من حيث ترتيب هذه المعلومات وتصنيفها ثم استخراجها عند الحاجة • وقـــد سبق أن أشرنا الى أن من أهم الوظائف التى تقوم بها الحواسب الالكترونية قدرتها

---

(١) أنظر ، حازم الببلاوى ، مجتمع الاستهلاك أو ثورة الطلبة فى مايو ١٩٦٨ ، ملحق الأهرام الاقتصادى ، أكتوبر ١٩٦٨ •

الفائقة على تخزين المعلومات وتصنيفها وامدادنا بها عند الحاجة • ولذلك فان الاوتوميشن يعتبر من هذه الناحيـــة عنصرا أساسـيا في ترشـــيد القرارات الاقتصادية سواء بالنسبة للمستهلك الفر دأو بالنسبة للمشروع أو بالنسبـة لسلطات التخطيط المركزية • فسيادة المستهلك كما تتصورها النظرية التقليدية تفترض توافر العلم التام عند المستهلكين كافة بالأثمان السائدة في الســـوق وبخصائص السلع • والواقع أن هذا الافتراض لا يتحقق عادة في العمل • واذا كان يصعب على كل فرد أن يمتلك أجهزته الالكترونية الخاصة بتخزين المعلومات ، فان مما لا شك فيه أن وجود هذه المعلومات في جهات متفرقة من الاقتصاد سواء عند المنتجين المتنافسين ، أو عند أجهزة الاعلام ، أو لدى مراكز البحوث ووحدات تجميع الاحصـاءات ـ من شـــأنه أن يمكن المستهلك من تحقيق درجة أعلى من العلم • فالمستهلك والحال كذلك يفيد من زيادة القدرة على تجميع المعلومات التى توفرت للاقتصاد في مجمـــوعه والتصرف فيها • وبالمثل بالنسبة للمشروع ، فان المعلومات التى تتوافرلديه عن السوق وظروف الطلب والظروف الفنية للانتاج تمكنه من اتخاذ قراره على نحـــو أفضل • وكذلك الأمر بالنسبة لسلطات التخطيط المركزية وسوف نتناول هذه النقطة ببعض التفصيل فيما بعد •

ولم يقتصر دور الاوتوميشن في القرارات الاقتصادية على مجرد توفير معلومات أكثر ووضعها تحت تصرف الوحدة الاقتصادية ، ولكن الأمر جاوز ذلك الى خلق مجموعة من الأبنية المنطقيـــة التى تسهل على الوحدة اتخـاذ قرارها على نحو رشيد • فقد ظهرت مجموعة من العلوم المرتبطـة بالقرارات والهدف منها وضع الاطار المنطقى اللازم لكى تتخذ القرارات بأكبر قدر من الكفاءة • ذلك أن الالتجاء الى الآلة للمساعدة في اتخاذ القــرارات قد أوجب توضيح المراحل التى يتم بها اتخاذ القــرار وفق قواعد محـــددة • وبعبارة أخرى ، فقد وجب وضع تصور شكلى formal لعملية اتخـــاذ القرار حتى تستطيع الآلة أن تقوم بدورها في المساعدة على اتخـاذه • وقد ســاعد ذلك

بدوره على تحقيق قدر أكبر من الرشادة فى اتخاذ القرارات • وبذلك اعتبر كسبا جديدا للاقتصاد فى هذا الميدان •

ولعل أول محاولة للوصول الى ترشيد القرارات ووضع نظرية فى هذا الميدان ترجع الى الرياضى فون نيومن Von Neuman والاحصائى مورجنسترن O. Morgenstern والتى تعرف بنظرية الألعاب Theory of Games (١) • ففى كثير من الأحوال يتخذ الفرد قراره فى مواجهة شخص آخر ، وكل منهما يتحدد قراره بحسب تصرف الآخر • ولذلك فان الأمر يشبه العاب الشطرنج مثلا • ومن هنا جاءت التسمية •

ويمكن التمييز بين نوعين من الألعاب ، ألعاب الحظ games of chance والعاب الاستراتيجية games of strategy وهذه الأخيرة وحدها التى تهمنا حيث أنها تقترب من ظروف اتخاذ القرارات • ويمكن تقسيم الألعاب من حيث عدد المشتركين فيها ، فقد يكون العدد اثنين أو أكثر • كذلك يمكن التمييز بين الألعاب من حيث النتيجة ، فأحيانا تكون النتيجة ثابتة constant-sum games بحيث يكون مجموع الكسب والخسارة ثابتا ، وقد تكون النتيجة غير ثابتة non constant-sum game. • واذا كانت اللعبة ثابتة النتيجة فان كل ما يمكن عمله هو توزيع هذه النتيجة على المشتركين • وهناك حالة خاصة من اللعب ثابتة النتيجة وهى الألعاب ذات النتيجة صفر zero-sum game وحيث يكون مجموع الكسب والخسارة صفرا ، فما يكسبه الواحد يخسره الآخر • وبطبيعة الأحوال يمكن تحويل الألعاب ذات النتيجة الثابتة الى ذات نتيجة صفر •

واذا فرض وكان أمام كل لاعب عدد محدود من الاستراتيجيات أو الخيارات ، فان النتائج تكون محدودة أيضا finite outcomes.

ولاعطاء فكرة موجزة ومبسطة عن كيفية استخدام نظرية الألعاب •

---

(١) Cf. Vn Neumann, O. Margenston, Theory of Games and Economic Behaviour, Princeton University Press, 1944.

نفترض أن لدينا لعبة يشترك فيها اثنان ، وأن اللعبة ذات نتيجة ثابتة •

ونفترض أن اللاعب الأول أمامه استراتيجيتان يستطيع أن يختار بينهما، وأن اللاعب الثانى أمامه ٣ استراتيجيات يستطيع أن يختار بينها • وتفترض نظرية الألعاب أن كل لاعب يعرف خصائص سلوك الآخر • واللاعب قد يكون من النوع المتهور أو من النوع الحذر ، وتفترض نظرية الألعاب أن اللاعبين من النوع الحذر • كذلك تفترض النظرية أن كلا من اللاعبين يعرف الاستراتيجيات المتاحة أمام خصمه وان كان لا يعرف على وجه اليقين أيا منها سوف يقوم باختياره بالفعل •

وتعرض عادة الاستراتيجيات المتاحة لكل لاعب فى شكل مصفوفة matrix تبين كل الاختيارات المتاحة • ونظرا لأن المصفوفات تعتبر نوعا من الرمزية ، لذلك فلا بأس من استخدم الحروف اللاتينية (لتسهيل الرجوع الى المراجع الأجنبية) •

ونستطيع أن نعبر عن الامكانيات المتاحة للاعب الأول بالمصفوفة A

$$A = \begin{bmatrix} a_{11} & a_{12} & a_{13} \\ a_{21} & a_{22} & a_{23} \end{bmatrix}$$

نجد أن هذه المصفوفة تتكون من صفين وثلاثة أعمدة ، تعبيرا عن أن اللاعب الأول أمامه : استراتيجيتان له ، وثلاث استراتيجيات لخصمه • فالصف يعبر عن كل استراتيجية للاعب ، والعمود يعبر عن استراتيجية الخصم • وعلى ذلك فان a_{13} تعبر عن الوضع الذى يختاره فيه اللاعب الأول الاستراتيجية الأولى ، واللاعب الثانى الاستراتيجية الثالثة • وبطبيعة الحال نستطيع أن نضع مصفوفة ثانية B مثلا للاعب الثانى • ولكن اذا كانت اللعبة ثابتة النتيجة فان هذه المصفة يمكن استخلاصها مباشرة من المصفوفة الأولى •

فاذا كان مجموع النتيجة من اللعبة ١٠٠ ، وكانت المصفوفة A على النحو الآتى :

$$A \quad \begin{bmatrix} a_{11} & a^{1}_{2} & a_{13} \\ a_{21} & a_{22} & a_{23} \end{bmatrix} \quad \begin{bmatrix} 30 & 40 & 50 \\ 50 & 60 & 50 \end{bmatrix}$$

فان المصفوفة للاعب الثانى تصبح :

$$B \quad \begin{bmatrix} b_{11} & b^{1}_{2} & b_{13} \\ b_{21} & b_{22} & b_{23} \end{bmatrix} \quad \begin{bmatrix} 70 & 60 & 50 \\ 50 & 40 & 50 \end{bmatrix}$$

ومن الواضح هنا أن استراتيجية اللاعب الثانى يعبر عنها بالعمود وليس بالصف .

والآن اذا عرفنا مصفوفة أحد اللاعبين ، فماذا يكون سلوكه ؟

اذا أراد أن يكون سلوكه متسما بالحذر وبحيث لا تلحقه أسوأ الآثار ، فعليه أن يختار :

١ ــ أقل استراتيجية تحقق له عائدا (الحد الأدنى فى كــل صف فى حالة A)

٢ ــ اختيار الاستراتيجية من بين ما تقدم وبحيث تحقق أعلى حد أدنى largest minimum .

وبهذا الشكل فان اللاعب يكون متأكدا من أنه مهمـا كان قرار خصمه فانه لن ينتهى بأسوأ نتيجة ، وان كان فى نفس الوقت يكون متأكدا من أنه لن يحقق أفضل نتيجة ممكنة . ويطلق على ذلك maximin .

والآن ماذا عن اللاعب الآخر ؟ عليه أن يقوم بنفس الطريقة ولكن على الأعمدة وليس على الصفوف وبحيث يختار أولا أكبر قيمة فى كل عمود ، ثم يختار من بينها أقل قيمة . وتعرف هذه الطريقة باسم minimax .

واذا كانت نتيجة اختيار اللاعبين واحدة ، فانه يطلق على هــذه القيمة

اسم نقطة السرج saddle point ويصبح الحل محددا determinate .

وليس الغرض هنا شرح نظرية الألعاب بالتفصيل ، ولكن فقط اعطاء انطباع عن المنطق الذى يحكم الوحدة فى اتخاذ قرارها وبحيث لا ترتب أسوأ الأضرار • وهو منطق شكلى واضح •

كذلك ظهرت فى فترة لاحقة ، ونتيجة لأبحاث الرياضى الأمريكى Dantzig فى البحرية الامريكية أثناء الحرب العالمية الثانية ـ طريقة حل البرامج الخطية المعروفة باسم simplex . •

والبرامج الخطية linear programming تحاول تحديد قيمة المتغيرات اللازمة اذا أردنا تحقيق القيمة العظمى maximum أو الدنيا minimum لمجموعة من الأهداف توضع فيما نسميه دالة الأهداف objectif function حيث تتكون المشكلة من مجموعة من المعادلات أو المتباينات inequalities الخاضعة لمجموعة من القيود constrains .

فالمشكلة الاقتصادية لا تعدو أن تكون مشكلة برامج خطية • فالانتاج من كل سلعة يجب أن يوزع على الصناعات المختلفة (بحسب حاجة كل صناعة وفقا لحجم الانتاج فيها) وبحيث يكفى الفائض لاشباع حد أدنى من الطلب النهائى للاستهلاك والاستثمار والتصدير • وهكذا يمكن وضع الهيكل الانتاجى للدولة فى شكل مجموعة من المتباينات التى تبين أن مجموع الانتاج أكبر أو يساوى مجموع الاستخدامات الوسيطة والطلب النهائى •

وينبغى أن يكون هذا النظام خاضعا للقيد بعدم مجاوزة استخدام القدر المتاح من الموارد • ويوضع عادة قيد آخر بألا يأخذ أى متغير قيمة سلبية حتى يكون لها معنى اقتصادى •

والهدف هو البحث عن الحجم الأمثل للانتاج فى كل صناعة والذى يعطى القيمة القصوى لبعض الأهداف الموضوعة • (دالة الأهداف) •

ومن الواضح أن البرامج الخطية تسعى أيضا لتحقيق مزيد من الرشادة

فى اتخاذ القرارات ، وهى باصرارها على ابراز التفرقة بين الأهداف المرجوة (دالة الأهداف) وبين الوسائل المتاحة (نظام المتباينات والقيود) انما تساعد على مزيد من التقدم فى طريق الرشادة .

وقد وضحت فيما بعد العلاقة الوثيقة بين نظرية الألعاب والبرامج الخطية(١) بحيث يمكن تحويل مشكلة من صورة لعبة الى صورة أخرى تستخدم البرامج الخطية والعكس .

واذا كانت البرامج الخطية تفيد من استخدامها فى كثير من الأحوال ،لأن فروض الخطية linearity لا تتحقق دائما ، فقد ظهرت محاولات جديدة لحل البرامج غير الخطية أو الديناميكية بما لا محل للتعرض له هنا .

والواقع أن الاهتمام بترشيد القرارات فى ضوء مجموعة من الأهداف الموضوعة قد ساعد على نمو فرع جديد هو ما يعرف باسم بحوث العمليات operational research . ويضم هذا الفرع الى جانب البرامج الخطية، وغير الخطية ونظرية الألعاب وما يعرف بنظرية الأشكال theory of graph وهى تعنى باستخدام الأشكال لبيان العلاقات المختلفة(٢) .

وهكذا نلحظ تكوين مجموعة من النظم الشكلية أو الصورية formal system التى تبين المراحل المختلفة التى يمر فيها القرار ،وتساعد على اتخاذه بأكبر قدر من الرشادة والكفاءة . ولكن ينبغى أن نعرف المقصود بالرشادة ، فهذا أمر لا شأن له بالأهداف التى قد نرى أنها أهداف غير حكيمة . فالمقصود هو السلوك الذى يحقق الأهداف على أحسن وجه وبصرف النظر عن تقديرنا للأهداف ذاتها .

وقد ساعد التقدم الذى تحقق فى ميدان ترشيد القرارات على اعطاء

---

(١) Cf. Dorfman, Samuelson and Solow, Linear Programming and Economic Analysis, McGraw-Hill, 1958, p. 446.

(٢) أنظر فى استخدام هذه النظرية فى الاقتصاد
G. Avondo — Bodina, Economic Applications of Theory of Graphs, Blackie & Son Ltd., London, 1962.

حلول لبعض المشاكل المعاصرة • فقد سبق أن أشرنا الى أن تطـور الحاجات قد اتجه نحو مزيد من الحاجات العامة ومن ثم نحو مزيد من تدخل الـدولة في الحياة الاقتصادية • كذلك يلاحظ أن تدخل الدولة لم يقتصر على الأمور المتقدمة وانما زاد هذا التدخل مع مشاكل التخلف الاقتصـــادى من ناحيـة وظهور الكثير من عيوب الرأســمالية من ناحيـــة أخرى وتولى الأحـزاب الاشتراكية الحكم من ناحية ثالثة •

وقد كان تدخل الدولة فى الحياة الاقتصادية على النحـو الذى نادى به الاشتراكيون محل نقد كبير من جانب الاقتصاديين وبوجه خاص **Von Mises** فقد أنكر هؤلاء على الدولة قدرتها على تحقيق الرشادة الاقتصـــادية بعد الغاء الملكية الخاصة • ورغم أنه قد تم اثبات امكانية تحقيق هذه الكفاءة من الناحية النظرية(١) منذ وقت طويل ، فقـــد رأى بعض الاقتصـاديين (**Robins**) انه من الناحية العملية يكاد يستحيل ذلك لأنه يتطلب حل الملايين من المعادلات بالرغم من الامكانية النظرية(٢) •

والجديد هو أن هذه الصعوبة العملية لم يعد لها محـــل ، بعد اختراع الحواسب الالكترونية ذات السرعة المذهلـة فى اجراء العمليـــات الرياضية والذهنية المختلفة • وبعد التقدم الكبير فى ميادين علوم القرارات على النحو الذى تعرضنا له فيما سبق •

وهكذا نجد أن الأوتوميشن وهـــو يتطلب التدخـل المتزايد من جانب الدولة فى ميدان الاقتصاد ، يزودها فى الوقت نفســـه وباستخدام أساليب الأوتوميشن بالوسائل الكفيلة بجعل هذا التدخل ممكنا وعمليا •

* * *

(١) Cf. V. Bareto, Cours d'Economie Politique, Lausane 1897, Vol. II, E. Barone, The Ministry of Production in the Collectivist State in Collectivist Planning, edited by Hayek, 1944.

(٢) Cf. L. Robbins, The Great Depression, London, 1934, p. 151.

خامسا ــ علم الاقتصاد نفسه من علوم التحكم الذاتي :

ان التقدم الكبير الذى حققته العلوم الجديدة وبخاصة فى ميدان التحكم الذاتي automatic control قد دعا البعض الى استخدام نفس أساليب هذه العلوم الهندسية فى ميدان الاقتصاد ، فالنجاح الكبير الذى حققته هذه العلوم عند التطبيق فى الاوتوميشن وجه الانظار الى امكانية الافادة بنفس الأساليب لدراسة الاقتصاد ٠

ومنذ وقت ليس بالبعيد تدخلت أعمال ادارة المشروعات مع الرقابة الفنية على الآلات والمعدات ، وهكذا وجد المهندسون والفنيون أنفسهم فى مواجهة مشاكل ذات طابع اقتصادى تستدعى منهم اتخاذ قرارات فيها ٠ وقد أدى ذلك الى التزاوج بين العلوم الاقتصادية والعلوم الهندسية ٠ فظهرت اقتصاديات المهندسين Engineering economics لاعطاء المهندسين الأفكار الضرورية فى مبادىء الاقتصاد ٠

ولكن الأمر لم يقف عند هذا الحد فقد حاول العديد من المهندسين مناقشة المشاكل الاقتصادية بنفس الأساليب المتبعة فى العلوم الهندسية وبخاصة فى التحكم الذاتى ، كما استقرفىالدوائر الكهربائية electric circuit والتطبيقات الأخرى للدوائر المغلقة closed-loop control (١) ٠

---

(١) ومن أوائل الاقتصاديين الذين استخدموا أساليب المهندسين
R. Goodwin, "The Non-linear Accererator and the Persistence of Business Cycle" Econometica, Vol. 19, 1951,

ثم من المهندسين الذين تحولوا الى الاقتصاد
A.W. Philips, Mecha- nical Models.
In Economic Dynamics, Economica, Vol. 17, 1950; Stabilisation Policy in a Closed Economy," Economic Journal, Vol. 64, 1954.

ومن أهم الكتب التى وضعها مهندس فى هذا الصدد
A. Tustin, The Mechanism of Economic Systems, Heineman, 1959.

وأخيرا فان R.G.D. Allen قد خصص الفصل التاسع من كتابه Mathematical Economics MaacMillan, 1959. لهذا الموضوع ، كما وضع الاقتصادى البولندى الأصل O. Lange كتابا حديثا فى الموضوع باسم :
Introduction to Economic Cybernetics, Pargam Press PWN—Polish, Warsow, 1970.

ونحن نعتمد على المرجعين الأخيرين ٠

والواقع أن علم الاقتصاد يهتم منذ البداية بنفس نوع المشـــاكل التى تثيرها السيبرنطيقا والتحكم الذاتى • فمشاكل التحكم تعتبر من صميم المشاكل الاقتصادية • فاقتصاد السوق لا يعدو أن يكون نظاما محكوما بشـــكل ذاتى self-regulated system . • بحيث اذا حدث اختلال فى أحد الأسواق فان الأثمان تتغير لاعادة التوازن من جديد ، ويتم ذلك ـ فى الأصل ـ بشكل تلقائى • ولهذا السبب فان أوســكار لانجه يقول فى مقدمة كتابه المشـــار اليه ، بأن الاقتصـــاديين كانوا يقومون بتطبيق علـــوم سيبرناطيقية دون أن يشعروا ، كما حدث فى مسرحية مـوليير الفكـــاهية Le Bourgeois Gentilhomme حينمـــا اكتشـــف مسيو جـوردان M. Jourdain بأنه يتحدث نثرا دون أن يعرف !

وما نود الاشارة اليه هنا ـ بايجـــاز ـ ليس فقط التشـــابه فى أنواع المشاكل بل فى استخدام نفس الأساليب وبوجه خاص أساليب التغذية المرتدة وتوضيح ذلك باستخدام أشكال Block- Diagrams • ومن المفهوم طبعا أن التقابل بين النماذج الاقتصادية والنماذج الهندسية لا يعنى أن العناصر المكونة لهما واحدة ، فالقرار بالانفاق على الاستثمـــار لا يمكن أن يكـــون مماثلا لاختلاف درجة الفولت Voltage difference رغم أن كليهما يعبر عنه بعلاقة معادلة تفاضلية أو معادلة فروقية • فالتشابة يقتصر فقط على الناحيـــة الشكلية •

وسوف نقتصر فيما يلى على اعطاء صورة مبسطـــة جدا لبعض أوجـــه التشابه ، وبوجه خاص نبين كيف أن الصيغة الأساسية للتحـــكم والمستخدمة فى نظم التغذية المرتدة بنفس شكلها مستخـــدمة فى الاقتصـــاد تحت اسم المضاعف • كما نعطى صورة مبسطة للنظام الاقتصـــادى باستخـــدام أشكال Block-diagrams على نفس النحو المستخدم فى التحـــكم الـــذاتى فى العلوم الهندسية • وسوف نستخدم هنا أيضا الرموز اللاتينية •

أى نظام يتضمن تحويلا لبعض المدخـــلات inputs الى مخرجات أو ناتج output • فآلة معينة تحول بعض المواد الأولية الى سلع تامة الصنع ،

هنا نحن بصدد مدخلات (المواد الأولية) ومخرجات أو ناتج (السلع تامة الصنع) . فالمدخلات هي مؤثرات خارجية تفرض على النظام ، والمخرجات أو الناتج هي النتيجة التي تؤول اليها هذه المدخلات بعد مرورها في النظام .

والمدخلات قد تكون عبارة عن متغير واحد أو مجموعة من المتغيرات ، ولذلك نستطيع أن نرمز لها بالمتجه X ، وحيث يحدد عناصره عدد المتغيرات .

$$X = (X_1, X_2, \ldots, X_m)$$

وبالمثل فان المخرجات أو الناتج قد تكون عبارة عن عنصر واحد أو أكثر ، ونرمز لها أيضا بالمتجه Y (vector) .

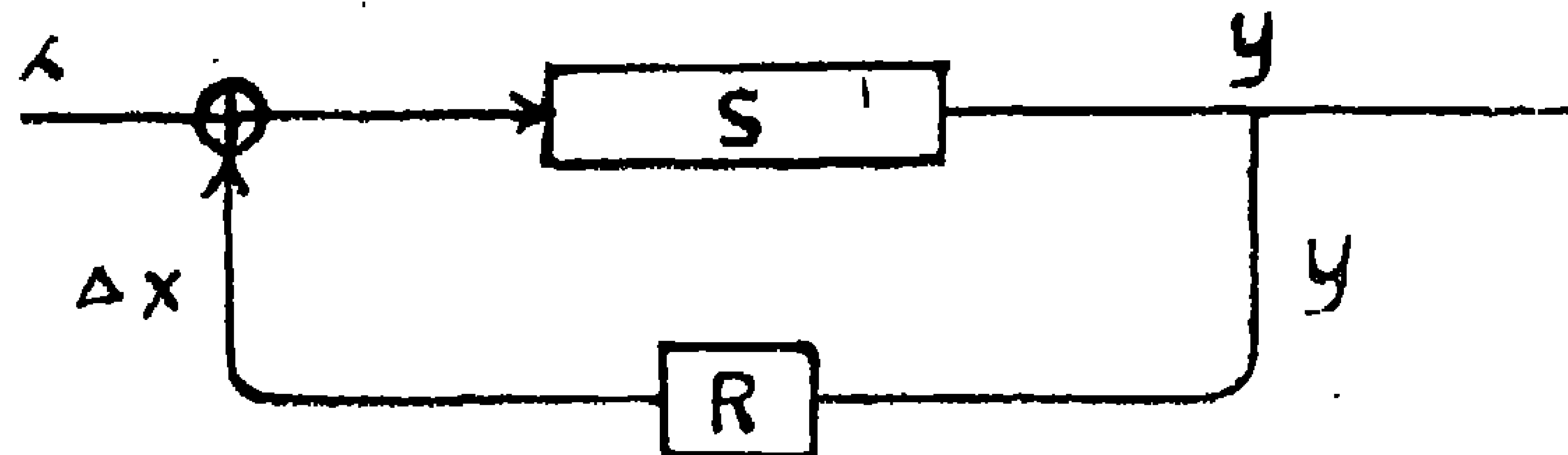
$$Y = (Y_1, Y_2, \ldots, Y_n)$$

وعلى ذلك فالنظام هو عبارة عن عملية تحويل transformation لمدخلات معينة الى مخرجات محددة وفقا لقانون أو قاعدة معينة :

$$Y = T X$$

T هي عبارة عن القانون أو القاعدة التي تبين كيفية تحويل المدخلات X الى المخرجات Y (وقد تكون عبارة عن دالة معينة ويرمز لها $(y = t(x)$.

فاذا كان لدينا نظام به تحكم ذاتي ونرمز له S بحيث اذا خضع لمدخلات محددة فان الناتج من S يؤثر على جزء من النظام يسمى الحاكم governor ونرمز له R وما ينتج عنها من مخرج يعتبر مدخلا يؤثر من جديد على S . وهذا هو المقصود بالتغذية المرتدة . ولنوضح ذلك بالشكل (block - diagram) الآتي :



فهنا المدخل X يمر عبر S ويخــرج النــاتج Y ، ولكن جزءا من هذا الناتج Y يمر عبر R فيؤدى الى ظهور مخرج جديد من R هو ΔX الذى يعود ليؤثر من جديد على ، وبذلك يصبح مجموع المدخلات التى تؤثر على النظام $X + \Delta X$.

ويمكن أن نعبر عن ذلك على النحو الآتى :

$$Y = S\,(X + \Delta X)$$

وهنا نحن ننظر الى S باعتبارها القانون الذى يتم على أساسه التحويل عن طريق R ولكن

$$\Delta X = RY$$

لأن الاضافة الجديدةفى المدخل ΔX كانت نتيجة تطبيق على الناتج

ولذلك نستطيع أن نضع العلاقة الآتية

$$\begin{aligned} Y &= S\,(X + \Delta X) \\ &= S\,(X + RY) \\ &= S\;X + SRY \end{aligned}$$

$$\therefore\ Y = \frac{S}{1-SR}\,X$$

$$= \frac{1}{1-SR}\,S\,X$$

وهذه هى الصيغة الأساسية فى التحكم(١) .

فاذا كان النظام خلوا من الحاكم . $R = O$

فان الصيغة المتقدمة تصبح

---

(١) Cf. O. Lange, Introduction to Cybernetics, p. 21.

$$Y = SX$$

وهى العلاقة البسيطة لعملية التحويل دون تغذية مرتدة ، وقد سبق أن رأيناها (تحت شكل $Y = TX$ ومن الواضح أنه لا أثر لتغيير اسم القانون T أو S) .

والواقع أن الصيغة الأساسية للتحكم تماثل تماما الصيغة التى نعرفها فى الاقتصاد باسم المضاعف multiplier والتى ذاعت شهرتها بعد كينز .

وكنوع من التذكير ، نقول ان الانفاق القومى (فى نموذج مبسط للغاية) يتكون من الانفاق على الاستهلاك والانفاق على الاستثمار . وعلى حين يمكن النظر الى الانفاق الاستثمارى باعتباره انفاقا مستقلا autonomous أى لا يتوقف على الدخل (كمرحلة أولية من التبسيط ، وهذا هو موقف كينز نفسه) ، فان الانفاق على الاستهلاك يتوقف على الدخل ويمكن النظر اليه كدالة للدخل (أبسط الأمور أن نعتبره نسبة ثابتة من الدخل) . ويمكن التعبير عن ذلك :

$$Y = I + C \qquad (١)$$

$$C = C(Y)$$

$$= cY \qquad (٢)$$

$$Y = I + cY$$

$$Y = \frac{I}{1-c}$$

$$= \frac{1}{1-c} \cdot I$$

حيث Y : الانفاق القومى (أو الدخل القومى)

C : الاستهلاك

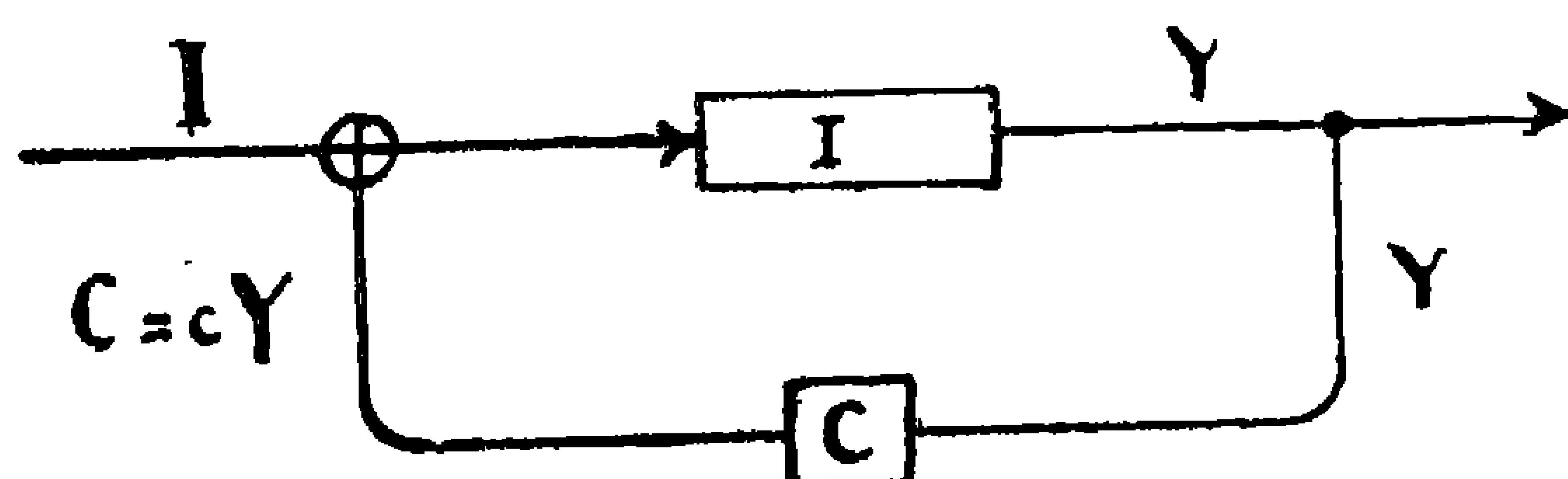
I : الاستثمار

والتعبير $\frac{1}{1-c}$ هو مضاعف كينز الشهير ، والذى يقضى بأن زيادة

الانفاق على الاستثمار تؤدى الى زيادة الانفاق القومى (الدخل القومى)بكمية أكبر ، وأن قيمة هذا المضاعف هى عبارة عن $\frac{1}{1-c}$ (أى مقلوب الميل الحدى للادخار) .

ولا يوجد هناك حاجة الى بيان التشابه بين مضـــاعف الاستثمار كمـا يستخدمه الاقتصاديون منذ كينـز بشكل يكاد يصبح غريزيا ، وبين صيغـة التحكم المستخدمة فى العلوم الهندسية للتحكم الذاتى .

ويمكن أن نعبر عن مضاعف الاستثمار بالشكل الآتى :



فهنا قيمة S' = 1 ، لأن الانفاق على الاستثمار يؤدى بذاته الى زيادة فى الانفاق القومى بنفس القدر Y ولكن هـــذه الزيادة تؤثر فى الاستهلاك فيزيد الانفاق على الاستهلاك cY .

وهذا بالضبط هو الأسلوب المتبع لشرح كيفية عمل مضاعف الاستثمار فى كتب مبادىء الاقتصاد . ولبيان ذلك نفترض أن الاستهلاك نسبة ثابتة من الدخل مثلا $\frac{٤}{٥}$ الدخل(c = 4/5) فى هذه الحالة فان الانفـــاق الاستثمارى يعنى توزيع دخول جديدة ، ولكن هذه الزيادة من الدخول تؤدى الى زيادة الاستهلاك بنسبة $\frac{٤}{٥}$ وهكذا دورة بعد دورة . فاذا كان الانفاق الاستثمارى الأول عبارة عن (١٠٠ دينار مثلا) فسوف نجد لدينا سلسلـة من الزيادات المتتابعة فى الانفاق .

$$١٠٠ + ١٠٠ \times \frac{٤}{٥} + ١٠٠ \times (\frac{٤}{٥})^{٢} + ١٠٠ \times (\frac{٤}{٥})^{٣} + ...$$

وهذه متوالية هندسية حدها الأول ١٠٠ والأســـاسى $\frac{٤}{٥}$ ولذلك فهى تؤول الى $١٠٠ \times \frac{١}{١-\frac{٤}{٥}} = ٥٠٠$

ما تقدم لا يعدو أن يكون صورة مبسطة جدا للاقتصاد وحيث يوجد فيه مصدر واحد للتغذية المرتدة ، وهناك نماذج كثيرة أكثر تعقيدا وحيث ينظر فيها الى الاستثمار كمصدر آخر للتغذية المرتدة • وفي بعض النماذج يؤخذ في الاعتبار الفاصل الزمني time lag للتغذية المرتدة • وبطبيعة الأحوال ليس هنا مجال عرض ومناقشة هذه النماذج فذلك أمر يحتاج وحده الى مؤلف كامل • ولكن الغرض هو بيان كيف أن الاقتصاد كعلم قد بدأ يتأثر بالتطورات العلمية التى حققت الثورة التكنولوجية التى نعيشها الآن • ولا جدال في أن احدى المزايا الكبيرة التى حققها تزايد المعلومات هو انهيار الحواجز بين العلوم ومحاولة كل علم الافادة من وسائل البحث التى تحققت في ميادين أخرى •

***

وبعد ،

فاذا كانت الآلية قد مدت من ذراع الانسان فى القرن الماضى ، وكان الأوتوميشن قد مد من ذراعه ومن فكره في القرن الحالى ، فان ذلك لا يكفى • فالانسان مطالب الآن بالقيام بخطوة مماثلة ، فيجب أن يتسع خيال الانسان بشكل يسمح له بمسايرة هذا التطور في القوى العضلية والذهنية • وبدون انطلاقة خيالية جبارة فقد تكون هذه التطورات التكنولوجية وبالا عليه • فقدرته الآن على التدمير الشامل والانتحار الجماعى لم يقم لها مثيل في تاريخ الانسان • وبقدر ما توافرت وسائل لتحرير الانسان بقدر ما أمكن أن تستخدم نفس الوسائل للقضاء على حريته ، ولذلك فان الخلاص لن يكون الا بقدرة خيال الانسان على خلق وعى جديد يمكنه من تسخير نتائج فكره بدلا من الوقوع فى قبضتها • وهذا ما تستطيع أن تقدمه لنا الفلسفة والأخلاق • فنحن بحاجة ، أكثر من أى وقت مضى ، الى فلسفة جديدة تفسر لنا لماذا نعيش ، وأخلاق جديدة تشرح لنا كيف يكون ذلك • فهل يستطيع ضمير الانسان أن يتطور وينمو كما استطاع فكره أن يخلق ويخترع ؟ هذا هو السؤال !

خاتمة

العالم الثالث فى مواجهة الثورة التكنولوجية

وأين « نحن » من كل ذلك ؟

وأقصد « بنحن » العالم الثالث أو ما اصطلح على تسميته بالدول النامية. ففى كل عصر وجد فقراء وأغنياء ، ولكن لم تصل الفجوة بين أولئك وهؤلاء ما وصلته الآن ، وهى فجوة ما تزال تتزايد يوما بعد يوم • كذلك لم يعرف العالم فى أى وقت من الأوقات من وسائل الاتصال المادية والمعنوية ما يعرفه الآن ، ومن ثم لم يصل الوعى بهذا الانقسام ما وصله فى العصر الحالى •

والواقع أننا منذ الثورة التكنولوجية بدأنا نعيش عصرا جديدا فى حياة الانسان ، ولا زالت بعض بقايا الماضى تعيش معنا فيما نطلق عليه الآن اسم « العالم الثالث » أو الدول المتخلفة أو النامية • فهذه أوضاع من الماضى بسبيلها الى الزوال أو هكذا ينبغى • وتسمية « العالم الثالث » توحى نفسها بذلك • فهذه التسمية أخذت من الفرنسية Tiers - Monde ، وهى اشارة الى أوضاع فرنسا قبل الثورة الفرنسية وحيث كان مجلس الطبقات يتكون الى جانب النبلاء ورجال الكنيسة من ممثلى الشعب Tiers--Etat ، ولكننا لا ننسى أن Tiers تعنى أيضا « الغير » ، ولذلك فان تعبير العالم الثالث يشير الى هذا « الغير » أو « الغريب » عن الحضارة التكنولوجية الحديثة • ويؤكد هذا النظر الى « العالم الثالث » باعتباره « بواقى » Residu _ أنه لا توجد خصائص مشتركة بين دول هذا العالم سوى فى الفقر وعدم استخدام وسائل الانتاج الحديثة ، أما فيما عدا ذلك فهذه الدول تكون مجموعة غير متجانسة فيما يتعلق بأسباب تخلفها ومظاهره ، فمنها من يعانى من ندرة السكان (معظم دول افريقيا السوداء) ، ومنها على العكس ما يكاد يختنق من الانفجار السكانى (مصر والهند) ، منها الدول التى تكاد تتعرف على الوحدة الوطنية وما تزال

تبحث عن مقوماتها من لغة وتاريخ ، ومنها على العكس ما ينوء من حمل تاريخ طويل يقيد حركتها . ولذلك فعلى حين أننا نجد نظرية اقتصـــادية للدول المتقدمة ، وهى نظرية قائمة على الرشادة الاقتصـــادية ، فان « نظرية التنمية الاقتصادى » لا تزال تبحث لنفسها عن مكان ، وذلك لأنها تحاول أن تحلل أوضاعا جد مختلفة ، فيما عدا القاسم المشترك وهو الفقر واتـــباع الأساليب التقليدية .

ولعل أهم نقاط تحول الانسان فى تاريخه الطويل ، ترجع الى ثورتين أساسيتين فى الفن الانتـــاجى ، **الثورة الزراعية ثم الثـورة الصناعية**(١) . فالثورة الزراعية ــ حين اكتشف الانســـان الزراعة قبل حوالى عشرة آلاف سنة فى مكان ما فى الشرق الأوسط (على خـــلاف بين المؤرخين بين مصر والعراق) ــ هذه الثورة نقلت الانســـان من مرحلة الجنى واللقط الى مرحلة الاستقرار وبناء الحضارات ، وبذلك « انتقلت الانسانية للمرة الأولى بنوع من الطفرة من تجمعات غير واضحة المعالم social diffus الى الحياة الاجتماعية المنظمة social organisé »(٢) . وعاشت الانسانية منذ ذلك الوقت ، وبخاصة منذ العصور التاريخية ، هذه الحضارة الزراعية . واذا كانت هـذه الثورة تمثل قطيعة فى التاريخ ونوعا من الطفرة ، فان معدل التطـور اللاحق كان بطيئا الى حد بعيد وغير ملموس . أضف الى ذلك أن الجماعات المختلفة كانت تعيش فى عزلة نسبية ، فلم يكن هناك عالم واحـد وانما عوالم متعددة تعيش فى انفصال الا من بعض العـــلاقات العارضة من غزو أحيـانا واتجار محدود أحيانا أخرى . بل انه فى وقت متأخر نسبيا وحتى العصر الرومانى ، وبالرغم من اتساع فتوحاتها ، فاننا نجد هذه الحضارة غير قادرة على الاعتراف للأجنبى بحقوقه كشخص الا فى فترة لاحقة ، وحيث كان الاعتقاد الســائد هو أن الأجنبى شىء Res من الأشياء وليس انسانا يشـــارك الرومانى فى

---

(١) Cf. Carlo Cipolla, The Economic History of World Population, Plican Book, 1962. p. 17.

(٢) Cf. Teilhard de Chardin, Le Groupe Zoologique Humain, édition Albin Michel, Paris, 1956, p. 100.

خصائصه . ونذكر كيف أن ماركوبولو Marco Polo في نهـــاية القرن الثالث عشر وبداية القرن الرابع عشر قد أخـذ بألباب الأوربيين وهو يقص عليهم مشاهداته في الصين ، لا ، بل حتى القرن الســابع عشر كيف كان الفرنسي يعجب لأي يكون الانسان فارســيا ، كما يذكر لنـا مونتسكيو(١)
(Ah, ah, Monsieur est Persas ? C'est une chose bien extraordinaire ! Comment peut-on être Persan ?).

وهكذا كانت الحياة يسودها الاستقرار والركود والاطمئنان والقناعة . ولم يكن لفظ « التقدم » نفسه معروفا ، فهو من الأفكار الحديثة التي دخلت ألفاظ الحضارة في وقت متأخر نسبيا ، بل اننـــا نجد أن بسكال ، في القرن السابع عشر ، يعطي « التقدم » معنى يفيد التذبذب والتقلبات

"La nature agit par progrès. 'itus et reditus', elle passe et revient, puis va plus loin, puis deux fois moins, puis plus que jamais, etc.. Le flux de la mer se fait ainsi, le soleil semble marcher ainsi' (٢)

« فالتقدم » باعتبـــاره تغيرا في الزمان نحـــو « الأفضل » ـ أيا كان تعريفنا للأفضل ـ لم يكن معروفا ، بل ان التغير في الزمان كان فكرة غريبة على الأذهان . فالزمان في أحسن الفروض لا يعدو أن يكون بعدا كالمكان ، ولذلك يجب أن يعامل معاملته . وعلى سبيل المثـــال فقد غلب على الاغريق الاهتمام بالبحث في قوانين الاتساق والجمال في المـكان ، ومن ثم فقد لعبت « الهندسة » عندهم دورا متميزا في المعرفة ، ويكفي أن يضع أفلاطون عـلى باب أكاديميته : « من يجهـل الهندسة لن يدخل هنـــا » . واذا كان بعض

(١) Cf. Montesquieu, Lettres Persanes, Classiques Garnier, Paris, Paris, p. 69.

(٢) Cf. Blaise Pascal, Pensées, No. 771 (355), Edition du Seuil, p. 318.

المفكرين قد تناولوا دراسة التاريخ فان ذلك ـ وربما باستثناء تيوكيديد Thucydides ـ كان عادة على شكل دورات متسقة مرحلة تتلو مرحلة .. ثم نعود من جديد الى المرحلة الأولى ، فالأمر أشبه بالدائرة . وهكذا خضع الزمان لمعالجة هى أقرب لمعالجة الهندسة للمكان . ولذلك لم يكن غريبا أن تكون الرياضة الجديدة مع ليبنز ونيوتن فى القرن السابع عشر طفرة كاملة . فالتفاضل والتكامل وهى تتعامل مع معدلات التغير انما تشير الى الدور الذى بدأ « الزمن » يحتله فى الفكر وما يرد عليه من تغيرات .

وقد تغير كل ذلك مع الثورة الصناعية ، فتغير الفن الانتاجى وتغيرت الأفكار وتغير نمط الحياة . وقد عرفت أوربا هذه الثورة فى القرن الثامن عشر وعرفتها أمريكا الشمالية منذ القرن التاسع عشر ، واستمر التطور فى هذه الدول على النحو الذى تعرضنا له فيما سبق فى هذا الكتاب بما لا محل لاعادة ترديده هنا . **واذ أدت هذه الثورة الى مزيد من التقدم المستمر للدول التى أخذت بأسبابها ، فانها أدت من ناحية أخرى الى مزيد من ترابط العالم ووحدته ، فهى تتضمن حضارة بطبيعتها شاملة وعالمية** . ومع ذلك فان هذا الامتداد لآثار الثورة الجديدة على العالم أجمع لم يؤد الى تحقيق توزيع عادل للفوائد والمغانم . فالدول المتقدمة ـ وقد اتجهت لضم بقية المناطق الى الدخول فى دائرة واحدة من الاقتصاد العالمى ـ انما أرادت أن تستغل موارد هذه المناطق فيما يعود عليها بالفائدة ، فكانت علاقة المتبوع بالتابع . وكانت استجابة المناطق المتخلفة للعلاقات الجديدة استجابة سلبية ، فقبلت بعض مظاهر التقدم الذى « فرض » عليها بالقدر الذى يجعل مواردها تحت تصرف الدول المتقدمة فى أحسن الشروط الممكنة . وهذا هو ما يطلق عليه « الاستعمار » . وليس معنى ذلك أن الدول المتخلفة لم تحقق أية فائدة من هذا الاندماج العالمى ، ذلك أنها حققت بعض الفوائد : ادخال الاقتصاد النقدى ، انشاء شبكة طرق حديدية وبرية وبحرية ، خلق طبقة من المتعلمين (تعليما محدودا) من الوطنيين ليقوموا بدور كلب الحراسة لمصالح الدول المتقدمة ... الخ . ولكن هذه الفوائد التى حققتها المناطق المتخلفة لم تأت

لذاتها وانما فقط كنتيجة by-product لضرورة حسن استغلال مواردها • ولذلك فانه فى أغلب الأحوال نجد أن المصالح الأجنبية التى دعت الى ادخال بعض مظاهر الحضارة الجديدة ، تقف عقبة فى سبيل انتشارها بعد حد معين •

ولكن يبدو أن « للتقدم » منطقه الخاص وديناميكيته الخاصة • فيكفى أن يبدأ التعليم حتى تزيد المطالبة بانتشار التعليم أكثر وأكثر • فهناك علاقة جدلية (ديالكتيكية) ، والدول المتقدمة اضطرت الى ترقية المناطق المتخلفة بعض الشيء حتى يحسن استغلال مواردها ، ولكن هذا بدوره يخلق قوى تلقائية لمزيد من التقدم وللمطالبة بالقضاء على كل مظهر من مظاهر التبعية • وقد كانت الحرب العالمية الثانية المناسبة التى أكدت مزيدا من الاتصال بين الشعوب ومن ثم الوعى بالفروق التى تفصل بين « الأغنياء » و « الفقراء » ، وأدت الى تراجع الوضع النسبى للدول الاستعمارية التقليدية • وهكذا عرف العالم فى الفترة التالية للحرب موجات من حركات التحرر الوطنى ومن استقلال كثير من الدول المتخلفة • وهكذا وجدت الدول المتخلفة نفسها أمام مسئولياتها فى محاولة اختصار الفجوة التى تفصل بينها وبين العالم المتقدم •

والآن علينا أن نتساءل عما اذا كان هذا العالم المتخلف قادرا على الاستفادة من الخبرة الانسانية المتاحة له ، وهل يحقق بذلك ميزة نسبية من وصوله متأخرا حين يجد تحت تصرفه (جاهزا) وسائل الحضارة الحديثة ؟ أم أنه على العكس فانه فى هذه المواجهة الصارخة بين تحد العصر العنيف وبين حياته التقليدية الراكدة مهدد بالتحلل ومحكوم عليه بالفشل والاحباط ؟ أو اذا أردنا أن نستعير أفكار توينبى فى « التحدى » و « الاستجابة » ، فانه ينبغى أن يتوافر نوع من التناسب بين حجم التحدى وبين القدرة للاستجابة ، فلا ينبغى أن يكون التحدى عارضا غير مؤثر بحيث يمر عابرا غير ملحوظ تاركا الجماعة منصرفة عنه ، كما لا ينبغى أن يكون التحدى صارخا بحيث يسحق الجماعة سحقا • وسؤالنا ، هل التحدى الذى يواجه العالم الثالث هو من قبيل « الحجم الأمثل » ـ مسايرة لمصطلحات الاقتصاديين ـ أم أنه على

العكس أقل أو أكبر من ذلك ؟ •

ومن الواضح أن هذا السؤال ليس مما يتحمل اجابة بسيطة « بنعم » أو « لا » أو حتى « بنعم ولكن » • ولذلك سوف نكتفى بالتعرض لبعض مظاهر الدول النامية ، وهى مظاهر متناقضة فى دلالتها • وسوف نتناول فيما يلى هذه المظاهر من الناحيتين الايجابية والسلبية ، فنتعرض أولا للجوانب الايجابية ثم للجوانب السلبية •

بعض الجوانب الايجابية :

لا شك فى أن الدول النامية قد استفادت من نتائج الثورة التكنولوجية ، وأن الوصول متأخرا قد مكنها من أن تجد تحت تصرفها مجموعة من الوسائل مكنتها من السيطرة على البيئة وتحسين ظروفها بنفقات محدودة جدا لا تقاس بما اضطرت لتحمله الدول المتقدمة فى أول عهدها بالتصنيع • وقد تحملت الدول المتقدمة حاليا تضحيات بالغة فى أول مراحل التصنيع ، ونتيجة للتطورات المستمرة فى الفن الانتاجى لم يعد تحمل هذه التضحيات ضروريا ، على الأقل بنفس الدرجة • ولذلك فاننا نجد أن الدول النامية الآن قادرة على تحقيق فوائد كبيرة من مجرد استعارة الوسائل الفنية الحديثة والأخذ بها • ونجد لذلك أمثلة عديدة فى شتى الميادين : فى السكان ، فى الزراعة ، فى الصناعة وغيرها •

فنتيجة للتقدم العلمى فى مجالات الطب والصحة أمكن تخفيض معدلات الوفيات بشكل جذرى • فالجدرى والحمى الصفراء والملاريا كانت من الوسائل العادية لحصاد الملايين من البشر • فحتى وقت متأخر وخلال عامى ١٩١٨ ـ ١٩١٩ قضى على الملايين من الهنود فى مجاعة ، فى حين أنه فى ظروف مشابهة فى ١٩٦٥ – ١٩٦٦ ، ١٩٦٦ – ١٩٦٧ لم يمت سوى بعض العشرات • فاستخدام الـ د• د• ت وغيره من المبيدات ساعد على تقليل الأوبئة ، كذلك فان البنسلين والمضادات الحيوية قد قامت بدور هام جدا فى هذا الصدد ، وتذهب بعض الدراسات الى أن النجاح فى مقاومة الملاريا

مســئول عن ٦٠٪ من الزيادة فى السكان فى العـالم منذ ١٩٤٥(١) • ولا يخفى أن سهولة المواصــلات وسرعتها قد ساعدت على التقليـل من أخطار المجاعات والـكوارث ، فتقديم المساعدة السريعة والفعـالة قد أصبح أمرا متحققا •

ومع ذلك فقد أدى هذا التقدم فى انقاص معدلات الوفيـات الى خلق مشاكل ضخمة للدول النامية وللعالم فى مجمـوعه ، وهى **مشاكل الانفجار السكانى** • فمع بقاء معدلات المواليد على ما هى عليه تقريبا ـ عند الحد الأقصى للخصوبة في الدول النامية (حوالى ٤٠ أو ٤٥ فى الألف) ـ فان انخفاض معدلات الوفيـات الى أقل من ٢٠ فى الألف ، قد أدى الى ارتفـاع معدل الزيادة السنوية للسكان فى كثير من الدول لأكثر من ٢٪ أو ٢ر٥٪ • وقد أدي ذلك الى تزايد سكان العالم بشكل يدعو للانزعاج • فعدد سكان العالم سنة ١٧٥٠ كان حوالى ٧٥٠ مليونا ، وفى سـنة ١٨٥٠ بلغ ١٢٠٠ مليونا ، ليصبح فى سنة ١٩٣٠ حوالى ٢٥٠٠ مليونا ويجـاوز الآن ٣٥٠٠ مليونا • والسؤال الآن ، هل يمكن للدول النامية ـ بعد أن أفادت من نتـائج التقدم الفنى فى التأثير على معدلات الوفيات ـ أن تنجح فى استخدام نفس التقـدم الفنى للتأثير فى معدلات المواليد ، وبذلك يمكن تحقيق نوع من التوازن بين البيئة البشرية والبيئة الطبيعية • ان ذلك يتوقف على مدى قدرة الدول النامية على تحديد النسـل وتنظيم الأسرة • والواقع أن أهم ما يهدد خطط هـذه الدول للارتقاء بمستوى المعيشة للفرد هو هـذه الزيادة المخيفة للسكان • ويرى بعض الاقتصاديين أن الانفاق على وسائل تحديد النسل ونشره يؤدى الى رفع مستوى المعيشة الفردى بأكثر من أى وجه من وجوه الانفاق الأخرى على الاسـتثمار ، حيث يجاوز أكثر من ١٥ مرة العـائد من أى اسـتثمار آخر(٢) • والواقع أن ما تخصصه الدول النامية للانفاق على تحديد النسـل

---

(١) Cf. Malaria Eradication and Population Growth, University of Michigan, 1965, p. 69.

(٢) Cf. Michael Lipton, The International Diffusion of Technology, in Development in a Divided World, a Pelican Book, 1971, p. 48.

وتنظيم الأسرة محدود جدا بالمقارنة الى أهميته البـالغة ولا يجاوز ٣٪ من انفاقها العام • ويرجع ذلك ــ الى جانب عــدم تصميم الحكومات على هـذه السياسة ــ الى بعض العقبـات وفى مقدمتها نقص الامكانيـات البشرية من الأطباء • أضف الى ذلك أن سلوك الأفراد لم يتغير بعد التقــدم فى انقاص معدلات الوفيات ، حيث كان من الطبيعى أن تنجب الأسرة عــددا كبيرا من الأولاد حتى يتحقق لها احتمال بقاء بعضهم على قيد الحيـاة ، وهى أمور لم تعد قائمة الآن ، ولكن سلوك الأفراد لم يتغير بالدرجة الـكافية • ومع ذلك فهناك بعض النتائج المشجعة ، فى الصين وفى فرموزا وفى جنوب كوريا وفى بورتوريكو ، كما أن اليابان مثال قديم ناجح فى هذا الصدد •

وفى مجال الزراعة أفادت الدول النامية من الوسـائل المتاحة وبوجه خاص فيما يتعلق بزيادة انتاج المحاصيل الحقلية • وهـو أمر سيظل ملازما للدول النامية فترة طويلة حيث أنها لا تستطيع فى القريب العاجل أن يعتمد فى غذائها على الانتـاج الحيوانى لما يتطلبه من موارد أكثر لاشـباع نفس الحاجات الغذائية • وهنا نجد عــدة وسائل ساعدت هذه الدول عـلى زيادة الانتاج الزراعى • وفى مقدمة هذه الوسائل تحسين البـذور وتهجين أنواع جديدة من البذور والفصائل الجديدة • ويؤدى ذلك عادة الى ظهور أنواع أكثر انتاجية وأقوى على مقاومة الآفات • ففى مصر زادت انتـاجية الأرز ٦٠٪ فى خلال ست سنوات ، وفى باكستان زادت انتاجيـة القمح أكثر من الثلث ، ونفس الظاهرة نجدها فى فرموزا (الأرز) وفى المكسيك (القمح)• كذلك ممـا ساعد على زيادة الانتـاجية فى الزراعة استخدام المخصـبات الكيماوية • فدراسة خصـائص التربة ومدى توافر العناصر المختلفة فيهـا وحاجة المحاصيل المتنوعة من هذه العناصر وتكملة العناصر الناقصة بالمخصبات الكيماوية ، كل ذلك أدى الى ازدياد مستمر فى انتاجه الحاصلات الزراعية • وهو تقدم أتيح لكثير من الدول النامية الأخـذ به • وأخيرا فلا يخفى أن استخدام الطاقة الكهربائية وخصوصا فى ميدان الرى والصرف ، واستخدام الآلة البخارية ومبدأ الاحتراق الداخلى للقيام بأعمـال الجر والحرث وكافة

الأعمال الحقلية (الجرارات بوجه خاص) ، كل ذلك أدى من ناحيـــة الى زيادة انتاجية الأرض ومن ناحية أخرى الى تخفيف الأعبـــاء على الحيوانات وتحويلها الى الانتاج الحيوانى بدلا من استخدامها كمصدر للطاقة فى الأعمال الزراعية • وهنا نجد أن الدول النـــامية قد أخذت بقدر محـدود ولا زال أمامها فرص كبيرة للافادة من التطور(١) •

واذا انتقلنا الى ميدان الصناعة وجدنا أمثلة عـــديدة للوسائل الجديدة المتاحة للدول النامية ، والتي يصعب تعدادها أو حتى الاشارة اليها • ومـــع ذلك فان هناك محلا للتساؤل عمـا اذا كانت هذه الوســـائل جميعـا تناسب حاجات الدول النامية ، فهى عادة تصمم وتصنع فى الدول المتقدمة آخذة فى الاعتبار ظروف هذه الدول من حيث مدي الوفرة والنـــدرة النسبية لمختلف عناصر الانتاج الأخرى ، والاذواق السائدة ، وليس من الضرورى أن تتشابه هذه الظروف مع الدول النامية • وللأسف فان معظم الدول النامية لم تنجح حتى الآن فى تطوير هذه الوسائل لما يناسب حاجتها فنجدها تنتج نفس أنواع وأشكال السلع التى تنتج فى الدول المتقدمة (فمثلا تنتج الدول المتقدمة كثير من السلع من مواد لا تعيش طويلا من أجـل تشجيع المبيعات ، فتقوم الدول النامية بمسايرتها فى ذلك دون ملاحظة لاختلاف الظروف) •

بعض الجوانب السلبية :

ومع ذلك فليست الحضارة الوافدة بالأمر السهل فى استيعابها وتقبلها • وفى كثير من الأحيان تبدو نفقات وتضحيات الاستسلام لهذه الحضارة الغالبة

---

(١) فى دراسة لنا ، قدرنا أن ميكنة الزراعة واستخدام الآلات بدلا من الحيـــوان فى الأعمال الزراعية فى مصر سيؤدى الى زيادة فى الانتاج الزراعى (الحيوانى) تعادل الى حد كبير الزيادة الناجمة عن مشروع السد العالى

El-Beblaouis, L'Interdépendance Agriculture-Industrie et le Développement Economique, l'example de la R.A.U., Paris, 1968.

وانظر لنا أيضا التنمية الزراعية مع اشارة خاصة الى البلاد العربية ، معهد الدراســـات والبحوث العربية ١٩٦٧ •

أفدح وأخطر من التضحيات التى عانتها الدول المتقدمة عندما قطعت الطريق الطويل وحدها ـ دون تجربة سابقة ـ من أجل الثورة الصناعية •

وتذكر لنا بعض مؤلفات التاريخ الاقتصادى وبخاصة تاريخ ظاهرة « التخلف الاقتصادى » ، ان هذه الظاهرة انما نشأت نتيجة الصدمة التى أصابت المناطق المتخلفة عند اندماجها بالعالم المتقدم ، وقبل أن يكتمل نموها الداخلى وتنضج بالدرجة الكافية لاستيعاب العصر الجديد • فظاهرة « التخلف الاقتصادى » انما ترجع عند عديد من المفكرين الى ما ترتب على فرض التقدم التكنولوجى من « الخارج » وليس نتيجة لتطور طبيعى داخلى • فيذكر لنا بول باران(1) ، كيف ان الصناعة (صناعة المنسوجات وهى نفسها التى قامت بدور الصناعة الرائدة فى انجلترا) كانت زاهرة فى الهند فى القرن الثامن عشر • وكان من الممكن فيما لو ترك التطور الداخلى وحده أن تقوم هذه الصناعة فى الهند بنفس الدور الذى قامت به فى انجلترا ، وتتحول الهند من الزراعة فقط الى الصناعة ايضا • ولكن الحكم البريطانى وما فرضه على الهند من ضرورة الاندماج الكامل فى التجارية العالمية ومن ثم الاخذ بسياسة الحرية الاقتصادية ، قد عرض الصناعة الهندية الوليدة لمنافسة عنيفة قضت عليها وظهرت ظاهرة عكسية للعودة من جديد من المدينة الى القرية بعد فشل الصناعة • فهنا أدى ادخال عنصر خارجى على التطور الى تحلل قوى التقدم فى الهند والقضاء على فرصة التطور الطبيعى من أجل التقدم • ومثل ذلك حدث فى مصر حيث بدأ التصنيع مع محمد على فى أوائل القرن التاسع عشر وقبل أن يبدأ فى اليابان (ينسب ذلك عادة الى حكومة الميجى Meiji ١٨٦٩) بل وقبل التصنيع فى ألمانيا ذاتها (ومع ذلك لا ينبغى أن ننسى أن ألمانيا قد عرفت حركة حضارية وفكرية سابقة على التصنيع بكثير ، وهو أمر لم يتوافر فى أى وقت من الأوقات لمصر) • ففى هذه

---

(١) Cf. Paul Baran, The Political Economy of Growth, Monthly Review Press, 1957. p. 147.

العصور استخدمت المناطق المتخلفة (الهند ومصر) أساليب لم تكن مهيأة لها ، وهى سياسة الحرية الاقتصادية ، وهو أمر فرض عليها من الخارج •

ومع ذلك فان الدول النامية الآن معرضة لأخطار من هذا النوع ، وان لم يكن من الضرورى ان يكون فرض العناصر المعارضة للتطور من جانب حكومات مستعمرة ، فابناء الدول النامية انفسهم قد لا يكونوا اقل خطورة فى هذا الميدان •

فالدول المتقدمة أفرزت الثورة التكنولوجية نتيجة تطور تلقائى وطبيعى للمجتمع ، ولذلك فهناك نوع من الاتساق بين الحياة الفكريه والقيم السائده واسلوب الحياة وسلوك الافراد ، بحيث يظهر التقدم التكنولوجى فى هيكل بنيان متكامل من العلاقات الاجتماعيه • اما فى الدول الناميه فان الاخذ باساليب الثورة التكنولوجيه ليس نتيجه لتطور طبيعى وانما هو امر مستعار ومضاف الى هيكل اجتماعى متخلف فى حياته الفكريه وقيمه السائدة واسلوب حياته • ولذلك فليس من الضرورى ان يؤدى الاخذ بهذه الاساليب الى مزيد من التطور ، بل على العكس ، قد يؤدى الى مزيد من الجمود واعاقة التقدم • فعلى سبيل المثال هناك فى المجتمعات التى نمت نموا طبيعيا نوع من التوازن بين الحكام والمحكومين • وبدرجة رقى الادوات فى يد الحاكم بدرجة ما يتوافر للمحكومين من وعى ومن معرفه ، بل وبقدر ما يتوافر للحاكم نفسه من تدريب ورقى • بل العادة ان يؤدى التطور الطبيعى للمجتمعات الى اختيار الحكام من نوعية تتفق مع العصر • فالدول الاوربية والتى أخذت بالثورة الصناعيه نتيجة لتطور طبيعى وتلقائى ، بدات تتخلى تدريجيا عن أشكال الحكم الاتوقراطى ويتولى امور الحكم فيها فعليا أو يسيطر عليها طبقات من المثقفين ممن قبلوا روح العصر • اما فى الدول النامية والتى لم تنضج تماما لتقبل حضارة العصر ، فان وضع الوسائل الحديثة تحت تصرف الحكام ـ من أسلحة وأجهزة اتصال سلكى ولاسلكى ووسائل اعلام ـ لا يؤدى بالضرورة الى مزيد من التقدم ، بل انه قد يقف عقبة فى سبيله ويؤدى الى مزيد من الجمود والانتكاس • ويؤكد ذلك أنه فى كثير

من الدول النامية لا يصل الحكم أكثر الفئـــات استيعابا للعصر ، بل انه فى أحوال كثيرة يكون الحكم فى أيد عناصر متناقضة تماما مـــع روح العصر • وهكذا تؤدى أساليب الثورة التكنولوجية فى أيد الدول النامية الى مزيد من الجمود كما تعرقل حركة التقدم • ولعل نظرة الى أولويات الانفاق فى معظم الدول النامية لتؤكد هذا الخطر ، فالتسليح ومظاهر الأبهة والعظمة والميادين واقامة التماثيل والمؤتمرات والتمثيـل الدبلوماسى ••• الخ لا يترك فى معظم هذه الدول مكانا معقولا للانفـــاق على التعليم والصحة والاسـكان والطرق والطاقة !

وليس خطر أساليب الثورة التكنولوجية على تجميد « التقدم » بقـاصر على انحرافات الحكام ، **فالمحكومون شركاء في ذلك** ، فالخطر عام وشـــامل • فازاء الحضارة التكنولوجيـــة الوافدة لم تقم الدول النامية دائما باختيار ذكى ، بل انها اقتصرت فى كثير من الاحوال على التقليد وهـــو تقليد اشبه بتقليد القردة يعتمـــد على ظواهر الأمور • فيمكن ان نقول بنوع من التبسيط ان حضارة التكنولوجيا الحديثه اقتضت تعـــديلا فى سلوك الافراد من ناحيتين ، باعتبارهم منتجين وباعتبارهم مستهلكين • فمن الناحية الاولى هناك مجمـــوعة من القيم المتعلقـــة بالعمــــل والانتظام والصبر والدقة والأمانة والانضـباط والرشادة ••• هذه القيم التى تجعل من الفرد منتجا كفؤا قادرا على استيعاب التطورات وعلى التخطيط والتنبؤ وعلى الدخول فى عمليات انتاجيـه متشابكة ومعقدة • ولكن النجاح فى هذا الجانب لابد وأن يؤدى الى وفرة فى الانتاج ومن ثم تثور مشكلة استهلاك هذا الناتج المتزايد • وقـد اقتضى ذلك بدوره تعديلا اخرا فى سلوك الأفراد باعتبارهم وحدات مستهلكة ، فظهرت مشاكل مجتمع الاستهلاك التى سبق أن تعرضنا لها • وأيا ما كانت درجـــة النجاح الذى حققته الدول المتقدمة فى التوفيق بين اعتبـــارات الانتاج الرشيد وبين اعتبارات زيادة الاستهلاك مع الرقى المستمر للفرد ــ فانه مما يدعو للغرابة أن الدول النامية قد أخذت من التقدم ، الجانب الاستهلاكى • ولعله لا غرابة فى ذلك ، فان هذا هو أسهل الطرق • ولذلك نجدنا فى مواجهة تناقضـات

لا حد لها ، فهذه الدول ـ أو على الأقل الفئات الصاعدة منها ـ هى من العالم الحديث وهى ليست منه • هى من العالم الحديث فيما تستخدم من أجهزة وأدوات : السيارة ، التليفزيون ، الأجهزة الكهربائية ، الاهتمامات •• ولكن الفارق مع ذلك كبير • فعلى حين أن نمط الحياة الاستهلاكى ينسجم فى الدول المتقدمة مع قدرتها الانتاجية ، فانه فى الدول النامية يضاف الى وسائل الانتاج التقليدية والى العقلية التقليدية • وليس هذا بمبدد لامكانيات الدول النامية فحسب ، بل انه يخلق مشاكل ومخاطر اضافية لا تعرفها الدول المتقدمة • فهذا الانفصام فى شخصية الدول النامية التى تنتمى الى الماضى بعقليتها ونمط حياتها ، وتعيش فى الحاضر بوسائلها وأجهزتها يؤدى الى تعقيد الطرق أمام « التقدم » لهذه الدول • فأنظر الى أية مدينة كبيرة فى دولة متقدمة أو متخلفة : باريس ، لندن ، أو القاهرة أو نيودلهى ، هناك مئات الآلاف من السيارات التى تملأ الجو سموما بالغازات وعادم البترول ، وتقتل أعصاب الراكبين والمشاة ••• الخ متاعب الحياة الحديثة ، ولكن هناك أمرا آخرا فى الدول المتخلفة هو أن راكب السيارة نفسه متخلف ، فهو لا يحترم قواعد المرور ، ويستخدم البوق (الكلاكس) اذا كان فى القاهرة كلعبة يلهو بها ، وهو لا يعرف أهمية الوقت • وهكذا تصبح السيارة ، بالاضافة الى كل ما تقدم ، أداة للقتل أحيانا ووسيلة لتعطيل المواصلات أحيانا أخرى • وقل مثل ذلك فى كافة الأجهزة الحديثة فى أيد متخلفة • (كم من مرة تمنى الانسان ألا يكون هناك ميكروفون أو راديو أو تليفزيون حتى يمكن أن نعيش فى هدوء بعيدا عن الازعاج) • فى أحد الكتب التى تجمع بين العلم والخيال يشير الكاتبان[1] الى الكيمياء القديمة Alchimie ـ وهى تختلف عن الكيمياء الحديثة chimie ـ فى أنها تجمع بين العلم والكهانة فالعلاقة بينهما تشبه العلاقة بين التنجيم A strologie وعلم الفلك الحديث A stronomie ـ ويذكران كيف لا تقتصر هذه الكيمياء القديمة

(١) Cf. Louis Panwels et Jacques Bergier, Le Matin des Magicien, Gallimard, Paris, 1960.

على تحويل العناصر ، وانما تقوم فى نفس الوقت باجراء تحويل مماثل على نفسية الباحث وبحيث يخرج بعد التجارب انسانا جديدا • وأيا كان وجه الحقيقة أو الخيال فى ذلك ، فانه يبدو لنا أن الأخذ بأساليب الانتاج الحديثة تؤدى الى احداث تغيير فى نفسية الفرد وبحيث يخرج انسانا جديدا ، تماما كما يذكر لنا المؤلفان عن تجارب الكيمياء القديمة • فالانتاج الحديث وما يتطلبه من ذهاب العامل يوميا فى ساعة مبكرة ومحددة للعمل لفترة محددة يأخذ بعدها راحة ، وما تفرضه عليه الآلة من ضرورة ملاحقتها والخضوع لتعليمات محددة والا عرض حياته او حياة زملائه للخطر أو عرض الانتاج نفسه للخسارة ، وما يراه من تشابك فى العمليات الانتاجية ومن ثم احساسه بالتكامل مع ما يقوم به غيره ، وأهمية التوقيت فى تسليم وتسلم البضاعة ، وضرورة التنظيم للوصول الى نتيجة جماعية ••• الخ ، كل ذلك يخلق انسانا مختلفا يعرف أهمية النظام وحسن الجوار والدقه والتوقيت •••وهكذا لا يستوى كل من استخدم أدوات الحضارة الحديثة ، فليس كل من ركب أحدث انواع السيارات بابن العصر ، فهناك من صنعها ومن تطور معها او قبلها بحيث تكون نتيجة لعبقريته وأداة فى يده ، ولكن هناك من رآها وهو بعد فى عقليته البدائية فبهر بها وأصبحت لعبة يلهو بها تصرفه عن العمل الجاد •

وليس أقل خطورة مما تقدم قبول مظاهر الحياة الحديثة دون أية **نظرة انتقادية** ، مثل انظر الى هذا التقديس الذى أصبحت تتمتع به بعض الالفاظ « كمعدل النمو » دون أية محاولة جادة لفهم دلالتها وحدودها • فنحن نعيش فى عصر تسيطر عليه فكرة « التقدم » ، والتقدم يكاد يعنى شيئا محددا « النمو » بل بالذات « النمو الاقتصادى » • وعندما نفكر فى كيفية تقدير النمو الاقتصادى لا نجد معيارا منصفا لقياس هذا النمو • وازاء ذلك فقد جرت العادة على اتخاذ « نمو الناتج القومى الاجمالى » .G.N.P مقياسا لهذا النمو الاقتصادى • واتخاذ الناتج القومى الاجمالى كمؤشر للأداء الاقتصادى وهو أمر معقول ، ولكن الخطورة تنشأ اذا نسينا دلالته وحدوده ، وقدسناه

فى ذاته[1] • فالناتج القــومى لا يعدو أن يكون رقما قياســيا أو متوسطا احصائيا ، وهو بذلك يعتبر مؤشرا على الأداء الاقتصادى ، ويعطى حقــائق تقريبية ، ولكنه ليس « التقدم الاقتصادى » ، بله « التقدم » • ولكن الذى حدث هو أن أصبح تعظيم الناتج القومى هـدفا فى ذاته وبصرف النظر عن أثر ذلك على الرفاهية الحقيقيــة للأفراد ، وبذلك اختلطت الوسيلة بالغـاية ـ كما يحدث كثيرا فى أمور الانسان • وأصبحت الحكومات تهلل اذا حققت معدلا للنمو ٥ر٥٪ بدلا من ٥٪ ، وكأننا بصدد مقاييس علمية دقيقة • ويكفى أن نتذكر أن رقم الناتج القومى يهدف الى التعبير برقم واحــد عن التطور الذى لحق مجموعة كبيرة جدا وغير متجانسة من السلع والخدمات • ولذلك فان تجميع هذه المجموعة يقتضى من ناحية اتخاذ مقياس مشترك هو النقود ، ومن ناحيه أخرى تقدير الاهمية النسبيه لكل من هذه العناصر (فليس من الطبيعى ان يكون مضاعفة انتاج سلعه ضرورية كاللحم مماثله لمضاعفه انتاج سلعه كمالية ولذلك فلابد أن توضع أوزان لتقدير هذه الاهمية النسبية) • وتجرى العادة على استخدام الاثمان السائدة كاوزان للأهمية النسبية للسلع والخدمات التى تكون النــاتج القومى • ومع ذلك فان الأمر ليس بهـــذه السهولة ، فأى أثمان نأخذها فى الاعتبار • الأثمان كما نعرف ليست حقائق طبيعية ولكنها كميات اقتصادية متغيرة بتغير الظروف ، ولذلك فان الأثمــان فى تغير مستمر • ومن هنا يعرف الفن الاحصائى عديدا من الأرقام القياسية التى تختلف فى اختيار أى الأثمان ، هناك رقم Paasche ، وهنــاك رقم Laspeyres ، وهناك رقم Edgeweorth وغيرهم ، وكل منهم يعطى نتــائج مختلفة • فكيف بالله نسعد أو نحزن لارتفاع أو انخفاض ½٪ • أضف الى ذلك أن تكوين الأرقام القياسية للناتج القومى انما يقتصر ـ فى الأصــل ـ على ما يظهر فى السوق ويكون له ثمن • فخـدمات ربات البيوت لا تحسب فى الناتج القومى ، وعلى العكس الخدمات المماثلة فى المقاهى والمطاعم أو من

(١) Cf. E.J. Mishan, The Costs of Economic Growth, Pelican Books, 1969.

خدم المنـــازل تعتبر جزءا منه ، وهذا ما دعا أحد الاقتصاديين الى التنـــدر بالقول بأن من يتزوج خادمته ينقص الناتج القومى بمقدار ما كان يدفعه لها من أجر قبل الزواج • وأيا ما كان الأمر ، فهذه وغيرها بعض الأمور الفنية التى يعرفها واضعوا الأرقام القياسية للناتج القومى أو غيره • ولكن هـــل يكفى لقياس التقدم أن نقتصر معدل نمو الناتج القومى ؟ هل كل زيادة فى انتاج السلع والخدمات يقابلهـا زيادة فى الرفاهية ؟ **الا توجد سلع وخدمات سلبية تزيد من الاعباء وتنقص الرفاهية ؟** هـــل زيادة عـــدد رجال الشرطة للتقليل من مصـــاعب المرور المتكاثف فى الطرق ، وزيادة رجال الاســـعاف لانقاذ بعضا من الاعداد المتزايدة لحوادث الطرق ، وهل زيادة عدد الاطبـــاء النفسيين لمواجهة اثار الانهيارات النفسية ••• الخ ، هـــل كل ذلك مجرد زيادة فى التقدم والرفاهية ، ام انه لتعويض الخسائر التى تترتب عـلى زياده الانتـــاج الحديث • وما نتحدث عنه من ضرورة الانفـــاق لمنع تلوث الجـو والبحار والانهار والتربة ، وما نتحدث عنه من ضرورة حمايه البيئه •• هل كل ذلك مجرد زيادة فى الرفاهية ام انه محاوله لاصلاح ما افسده الانتاج الحديث للبيئه • وهكذا فان هناك فى الواقع من السلع والخدمات التى تضر اكثر مما تنفع وما نضطر الى الانفاق الكثير من اجـــل الحد من اضرارها ، وهذه هى ما نعرف فى النظرية الاقتصاديه باسم نقائض الوفورات الخارجيـــة External diseconomies ولكن على حين ان هذه النقائض لا تحتل فى النظرية التى ندرسها سوى مكانا جانبيا وطبيعة استثنائية ، فانها فى الحقيقـــه تبدو اكثر اهمية • فالصناعة التى يزيد انتاجهـــا باستمرار مع ما تلقيه من فضلات فى البحار والانهار وما تدفعه مداخنها الى السماء ، والســيارات التى تكاد تخنق الطرق ، والحياة المكتظة التى تقتل العلاقات الانســانية ، والمبيدات التى تقتل الحشرات ثم تهدد النبات نفســه والانسان والحيــوان •• كل ذلك وغيره مما يشوه البيئة الطبيعية ، والعـــــلاقات الانسانية ، ويقتل الاحساس بالجمال ــ كل ذلك لا يمكن أن ينظر اليه فقط بأنه اضـــافة الى الرفاهية • فبقدر ما ساعدت التكنولوجيـــا الحديثة على حسن استخدام البيئة ، بقـــدر

ما كادت تؤدى فى كثير من الأحيان الى قتل هذه البيئة[1] .

وفى نفس الوقت الذى بدأت فيــه الدول المتقدمة تشكو من مخـاطر المدنية الحديثة ، نجد أن دعاوى التقليد غــير الواع تدفع بالدول النامية الى اهدار البيئة بنفس الطريقـــة وربما بشكل أبشع . فالدول النامية كثـــيرا ما تضيف الى مساوىء هذه السلع والخدمات السلبية « مساهمتها الخاصة » من الجهل والتخلف . فالى جانب ما يسببه المرور من اختناق فى الجو وتوتر فى الأعصاب ، أصبح مع الرعونة وعدم احترام القوانين فى الدول النامية مسرحا للضحايا تستخدم فيه السيارات كأسلحة قتل عمد أو بتقصير .

ولم يقف التقليد عند الحد المتقدم ، بل جاوز ذلك الى ما يعتبر صراحة من أمراض العصر . فاتجاهات اللامعقول واليأس يمكن أن نجد لها تبريرا فى مجتمعات غلبت عليها موجة الانتاج المـــادى ، أما فى مجتمعات الرخاوة والكسل فأى معنى لها (ما لم يكن اليأس من عدم القدرة !) . واذا كانت قذارة الهيبى تمردا على المجتمعات المتقدمة ، فهل يمكن أن تعبر عنه هـــذه الأسمال القـــذرة التى يتحلى بها بعض الشباب فى العـــالم الثالث عن نفس التمرد ؟ اذا نظرنا الى الهند أو مصر أو السنغال مثلا وحيث يعيش الملايين فى ظروف قاسية ولا تصلهم مياه الاستحمام فى بيوتهم ، فهل لا زالت هنـا قذارة المظهر نوعا من التمرد والتحدى للمجتمع !

ولعله نتيجة لفشل الدول النامية فى استيعاب الحضـارة التكنولوجية ، ما نجده الآن من ظاهرة **هجرة العقول** Brain Drain . فهذه الدول وهى غير قادرة على الاستفادة ممــا أتيح لبعض أبنائها من علم ومعرفة ، نجـدها ونجدهم غير قادرين على المعايشة معــا مما ينجم عنه هجرة لبعض العلمـاء وشعور بالاحباط للبعض الآخر . وليس الأمر متعلقا بعدم مسئولية هـؤلاء العلماء الشبان أو برغبتهم فى الحصول على الكسب المادى ، بقدر ما يرجع الى

---

(١) أنظر ، د. عبد المحسن صالح ، المدنية الحديثة ومشكلة التلوث ، عالم الفكر ، المجلد الثانى ، العدد الثالث ١٩٧١ ، ص ٧٧ وما بعدها .

احساسهم بالعجز فى أن يكونوا نافعين بأى وجه من الوجوه لأبناء جلدتهم • فليس الأمر مجرد اختلاف فى الدخول وفى مستويات المعيشة ، وانما هو عادة أعمق من ذلك ويتعلق باعتبارات معنوية لتحقيق الذات والشعور بالمشاركة والاسهام فى تقدم الانسان • وهى أمور كان من الطبيعى أن يجدها هؤلاء العلماء فى دولهم التى تعانى من ندرة العلم والمتعلمين • ولكن الحقيقة أغرب من ذلك ، فهذا العنصر النادر يجد نفسه زائدا عن الحاجة !

وقريب من ذلك ما نراه من هجرة من الريف الى المدينة ، وهى هجرة تفقر القرية من أفضل عناصرها وتتخم المدينة بأعداد هى فى غنى عنها • وهذه الهجرة لا تشبه تحويل العمل من القرية الى المدينة الذى عرفته جميع الدول المتقدمة • فهذه الهجرة لا ترجع الى حاجة المدينة وما تباشره من تأثير « جذب » على سكان الريف ، بقدر ما ترجع الى تدهور أحوال الريف وما يفرضه من تأثير « طرد » لأهله نحو المدينة[1] •

« الأصالة » و « العصرية » :

وازاء هذه الصورة الممسوخة للحضارة التكنولوجية فى الدول النامية والتى جمعت بين أساليب الانتاج التقليدية وما يصاحبها من قيم وبين بعض مظاهر وأمراض العصر ـ ازاء ذلك وجدنا تيارا بين مفكرى هذه الدول يرى ترك الحضارة التكنولوجية كلها بحلوها ومرها ، والعودة للتراث • وكلنا يعرف ما تثيره النظرة « للماضى الزاهر » من تأثير سحرى على النفوس حيث كانت القوة والعزة وأهم من ذلك كله كانت الحياة الروحية • فها هو غاندى يرفض السكة الحديد والتلغراف والتليفون والمستشفى والطبيب والمحامى •• كل هذه ينبغى أن تختفى[1] • ويجب فقط العودة الى روحية الشرق • ولحسن الحظ أنه بعد أن نجحت دعوة غاندى فى اثارة الحماس الوطنى وأدت

---

(١) Cf. Galal A. Amin, Urbanisation and Economic Development in the Arab World, Beirut Arab University, 1972.

(١) Confession de Foi, 1909.

الى الاستقلال ، فان خلفه نهرو قد عمل من أجل المصنع والتلغراف والسكة الحديد .

والمدافعون عن العودة « للتراث » فئات متعددة ، يصل التطرف ببعضهم درجة تجعل المناقشة معهم غير مجدية لأنهم فى انغلاقهم عما يدور فى العالم لا يناقشون من أجل الوصول الى الحقيقة ، بل يتعصبون للقديم . فهذه حالة من حالات العاطفة ، وليس من حالات العقل ، ولذلك فهم غير قابلين لأية حجة . ومع ذلك فان العقلاء منهم يضطرون فى كثير من الحالات الى القول بنتائج غير مقبولة . ففى مناقشة جرت أخيرا فى مصر حول الفكر فى الثورة الليبية اشترك فيها عدد من المفكرين العرب(١) ، نجد أن الدكتور عائشة عبد الرحمن بعد أن تقول : « أنا أفهم الاسلام بعقلية النبى ، وأفهم العلم بعقلية الغد .. » تنتهى بنتيجة غريبة وتقول : « انني أريد الثورية ، أريد أن ينشأ جيل لا يعرف غير العربية .. ثم ينفتح على العالم .. » ، وكأن هذا الجيل يمكن أن ينفتح على العالم بدون معرفة بما يقولون (الأطرش فى الزفة) . ونجد بعض المستشرقين (جاك بيرك) يحبذون نوعا من ذلك ـ ليس بنفس الدرجة ـ تحت ستار كلمة لها سحر وهى « الأصالة » . فهذه الدول يجب أن تجمع بين العصرية والأصالة . فأما العصرية فأمرها واضح ـ نسبيا ـ فهى تعنى انتهاج أساليب الانتاج التكنولوجية الحديثة وما تفرضه من قواعد سلوك ومن قيم . وأما الأصالة فهى عبارة غير واضحة تماما وتحتاج الى دراسة وتعميق . فنحن نحتاج الى دراسات متعمقة لبيان ما يمكن أن يعتبر من الخصائص الأساسية للعبقرية (العربية أو غيرها من الدول النامية) ، وما اذا كان هناك حقا مثل هذه الخصائص الأساسية ؟ ونحتاج أكثر الى معرفة ما يصلح للابقاء فى ظروف العصر الحديث وما يحتاج الى تعديل . وفى دراسة قيمة قدمها الأستاذ الدكتور زكى نجيب محمود(٢) عن « تجديد

---

(١) الأهرام ، ٧ ابريل ١٩٧٢ .

(٢) تجديد الفكر العربى ، دار الشروق ـ بيروت ، ١٩٧١ ، ص ٩٥ ، ص ١٠٢ .

الفكر العربى » ، لخص رأيه بأن « ما نأخـــذه من تراثنا هـــو الشكل دون مضمونة ، فقد نجد الأسلاف ذوى وقفة يغلب عليها النظر العقـــلى ، فنأخذ عنهم هذه العقـــلانية فى النظر ، وأما موضوعاتهم التى صبوا عليهـا الفكر المنطقى ، فلم تعد فى أغلب الحالات هى موضوعاتنا » . فالمفكرون « فى عصرنا من طراز مختلف ، ومسائلهم من طبيعة مختلفة ، واذن فلن يجد المعاصرون عند الأقدمين قبسا يهتدون به فى أزماتهم الفكرية من حيث مضموناتهـــا ، وربما وجدوا عندهم ما يصبح الاهتداء به فى النظرة والمنهج بصفة عامة » . وهذه محاولة جادة لتحديد معنى « الأصالة » ، بدلا من الاقتصار على مجرد سرد القصص والنوادر عن واقع قل ـ أو استحال ـ أن يتكرر فى العصر الحديث . والواقع أنه مما يدعو للغرابة أن احساس الدول النامية أمام تحدى الحضارة التكنولوجية هو محاولة العودة للتاريخ ، فكما يقول الدكتور لويس عوض فى نفس الندوة المشـار اليها « ان ما أراه هو الحاســـة التـــاريخية عندنا أقوى ممـــا ينبغى ... فنحن نتعامل مع التاريخ تعاملنا مع السياســـة الحيـــة » . فازاء كل موقف جـــديد نعود بالذاكرة الى الوراء ، ولا نبعث بالخيـــال الى الأمام . **حقـــا ان أعظم ما تمتع به الانسان هـــو « الذاكرة » و « الخيال »** ، ولـــكن على حين أن الذاكرة انمـــا تخدم الخيـــال فى الدول المتحضرة ، فانها ، فى الدول المتخلفة ، تقيد من هـــذا الخيال . وليس معنى ذلك أنه يمكن اهدار التاريخ أو الذاكرة ، بل ان هذا هو الشرط الأساسى لقدرات الخيال ، فبدون تراكم المعرفة والتجارب ما استطاعت الانســـانية أن تتقدم . ولكن ينبغى أن يحصر التاريخ والذاكرة فى هذه الحدود دون أن تصل قدرته على رهن وحبس الخيال والتطور . « فسلطان الماضى على الحاضر هو بمثابة السيطرة يفرضها الموتى على الأحياء »(١) .

ثم أين هو هذا التناقض الأساسى ، ان الحضارة التكنولوجية الحديثـــة

---

(١) زكى نجيب محمود ، نفس الكتاب ص ٥١ .

تقوم على العلم ، والعلم يستند الى العقل ، والعقل هو الانسان[1] • ومزيد من العلم هو مزيد من كمال وانضباط الانسان • ونشير هنا أيضـــا الى ما ذكره الدكتور حسين فوزى فى نفس الندوة المتقدمة حيث يرى أنه « لا يوجد اليوم الا حضارة واحدة ، هى حضارة العالم ، شرقا وغربا •• هناك سواء شرقا أو غربا •• العقل المدبر ، العقل الباحث ••• الحضارة تعنى العقل » •

والواقع أنه اذا كانت الدول النامية براغبة حقا فى الاسهام فى الحضارة المعاصرة وفى تأكيد مشاركتها الأصيلة لهذه الحضارة ، فان ذلك يكون بمزيد من تأكيد العقـلانية وبيان حـــدود العقل • فالعقل ليس وقفـــا على الدول المتقدمة • كما أن ما قدمته هذه الدول فى هذا الميدان لا يخلو من قصور فى جوانب متعددة • فالعقل الغربى وقد تأثر الى حـــد بعيد بأفكار أرسطو فى السببية كان عاجزا عن قبول اتحاد المتناقضات ، وهى أمور عادية فى العقل والفلسفة الهندية • وقد جاءت بعض تطبيقـــات العلوم الحديثة وخاصـــة فى ميدان الطبيعية النووية تشير الى شىء من هذا • فامكانيات العقل غير محدودة والاضافات فيهـــا ميدان حر ، وقد أوضحت الأفكار الرياضـــية الحـديثة ـ نسبيا ـ فى الهندسات اللاأقليدية وفى الطوبولوجيا الامكانيات الرهيبة لما يستطيع أن يقدمه العقل والتصور ، وهى أمور لم تقتصر فائدتها على التـأمل والمضاربات العقلية وانما جاوزت ذلك الى التطبيقـــات العملية • أضف الى ذلك أن الحضارة التكنولوجية الحديثة وان قامت على العلم المستند الى العقل فانها قد انحرفت فى تطبيقاتهـــا كثيرا عن ذلك • ويكفى ما نشـــاهده من « اغتراب » للانسان الحديث • فالانتاج وهو وسيلة الانسان لرفاهيته وحريته قد تحول فى كثير من الأحيان الى عبء على الانسان ، وهو خلط وقع بـين الغاية والوسيلة • ويرجع هذا الانحراف وهذا الخلط فى الدول المتقدمة الى

---

(١) أنظر فى أزمة العقل العربى مقال دكتور سمير تناغو : أزمة الفكر العربى المعاصر ، جريدة الأهرام ١٩٧٢/٤/٢١ •

طبيعة هيكلها وبنيانهـا • والدول النامية الآن وهى تأخذ من الحضـارة التكنولوجية لا تجد نفسها مقيدة بأى من هذه الهياكل ، ومن ثم فهى تستطيع أن تختار ما هو معقول وتترك ما ليس بذلك • وبعبـارة أخرى فاذا كان « التقدم » قد تم فى الدول المتقدمة بشكل تلقائى الى حد بعيد ، فان الدول النامية وهى « تختار » التقدم بوعى الآن ، تستطيع أن تقدم اسهاما حقيقيـا لحضارة التكنولوجية يتحقق فيه التوازن بين الانسان وبين وسائله •

والواقع أن الحضارة الحديثة وهى تقوم عـلى العلم والمعرفة انما تفتح آفاقا جديدة أمام الانسـان ، وليس من المستبعد أن يؤدى ذلك الى ظهـور انسان جديد • فالقس تيلار دى شاردان[1] لا يرى فارقا بين المادة والحياة ، ولكنهما مرحلتين من مراحل التطور •ـ فالتطور من المادة الى الحيـاة قد تم بشكل مستمر نتيجة للتعقيد المتزايد فى المادة حتى وصلت مرحلة « الحياة » ، والحياة ذاتها وهى فى تطور مستمر نتيجـة للتعقيد بدرجـة أكبر أدت الى ظهور التفكير أو ظهور الانسان • وهو يرى أن التطور لم يتوقف ، فهناك مزيد من التعقيد حتى نصل الى الانسان الأعلى • ولكن التطور هنا لن يكون فى الشكل الخارجى للخلايا والهيكل الجسمانى بقدر ما سيأخذ شكلا داخليا عن طريق زيادة الوعى والمعرفة • وأيا كان وجه الحقيقة فى دراسة شاردان العلمية لتطور الكائنات أو للتنبؤ بالمستقبل ، فلا شك أننا ندخل عصرا جديدا لا يكاد يوجد فيه مكان للانسان بدون معرفة •

وهكذا يبدو الطريق أمام العـالم الثالث لا لبس فيـه ولا غموض ، اما معرفة متحررة بلا قيود ولا عقد ، واما ••• فناء ! واذا كان طريق المعرفة هو اختيارنا ، فان المعرفة هى أول طريق العمل •

---

(١) Cf. Theilhard de Chardin, La Place de l'Homme dans la Nature, le monde' en 10-18, Paris 1956.

الفهرس

	صفحة
تصـــــدير	٣
تقديم بقلم الدكتور زكى نجيب محمود	٩
التنظيم السياسى فى المجتمـــع التكنولوجى الحديث « وجهـــة نظر اقتصادى » (١٩٧٠)	
الحساب الاقتصادى	١٨
أهمية المشروع الصناعى الكبير	٢٥
أهمية طبقة الفنيين	٣٨
مجتمع الاستهلاك	٥٠
السوق والخطة	٥٨
عناصر القلق ـ الطلبة والمثقفون	٦٧
والتنظيم السياسى ؟	٧٧
مجتمع الاستهلاك أو ثورة الطلبة فى فرنسا (١٩٦٨)	٨٢
بداية الأحداث	٨٤
دور طلبة الفلسفة والاجتماع	٨٥
مجتمع الاستهلاك	٨٨
فرنسا ومجتمع الاستهلاك	٩٧
مشكلات التعليم	٩٩
موقف المنازعة ازاء مجتمع الاستهلاك	١٠٥
آراء الفيلسوف ماركوز	١٠٦
السمات الخاصة لمجتمع الطلبة	١٠٨

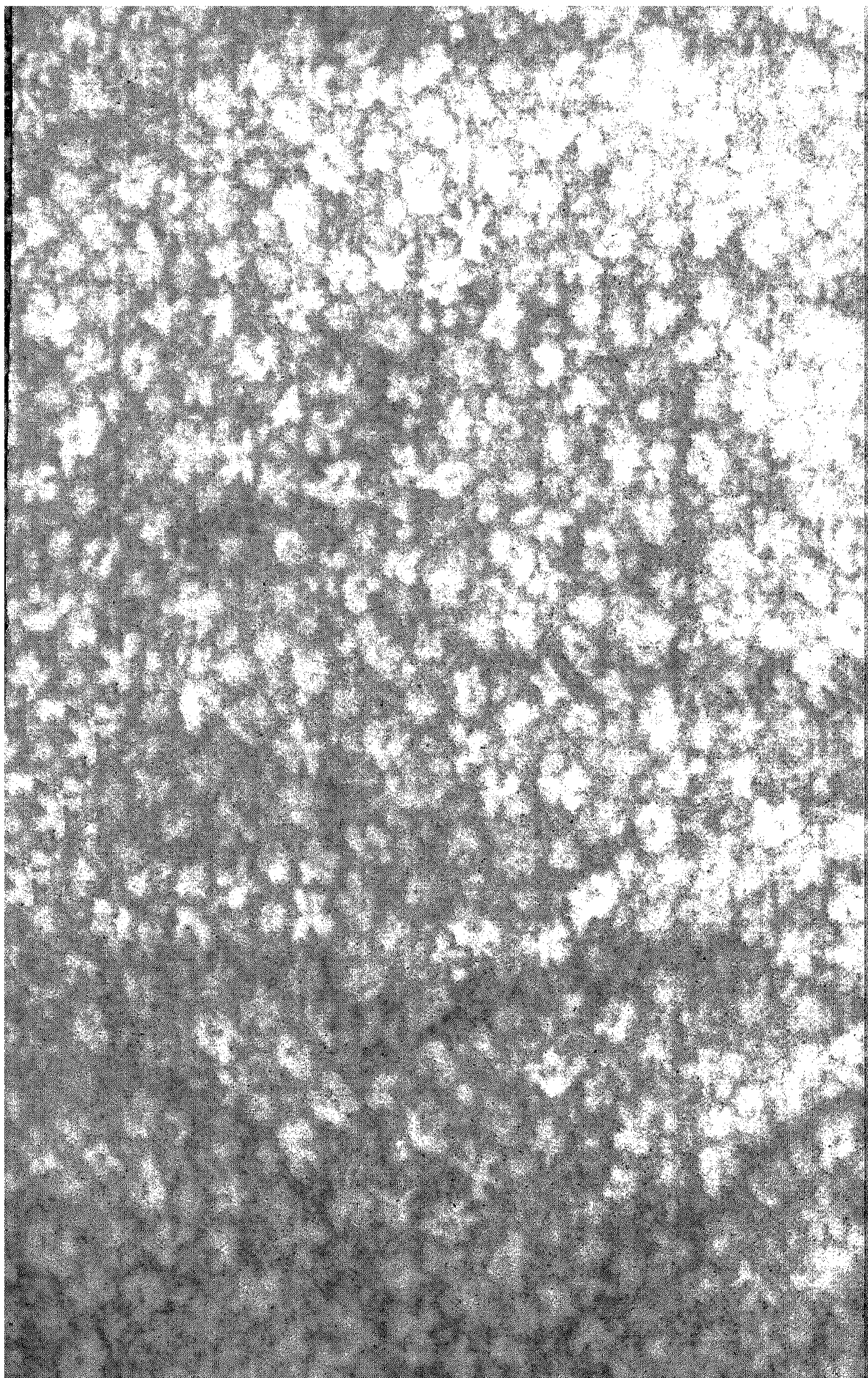
صفحة

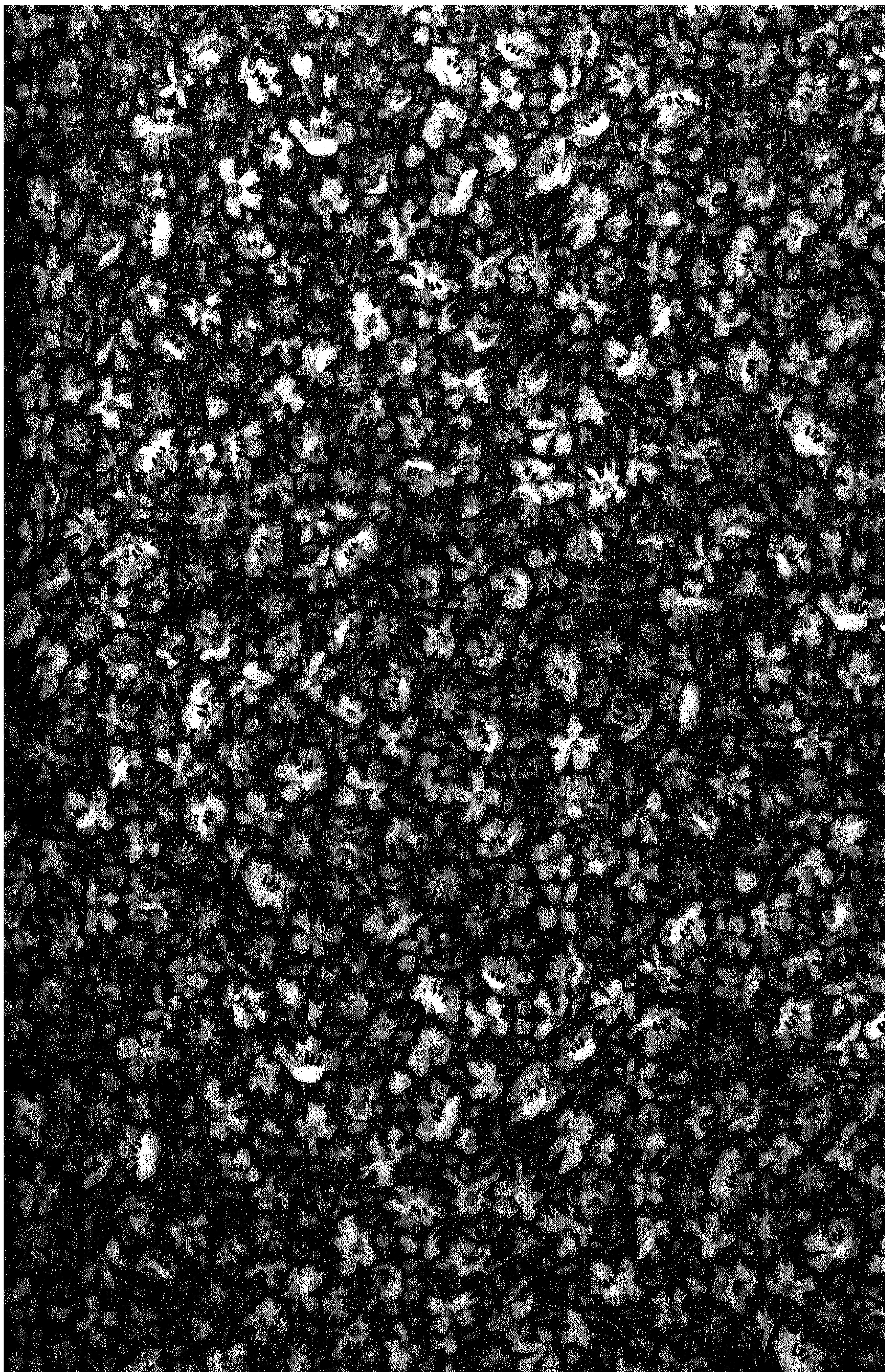
ظاهرة الاغتراب فى مجتمع الاستهلاك	١١٢
لماذا فرنسا بالذات ؟	١١٩
حركة تلقائية	١٢١
الخيال والواقع	١٢٥
حركة العمال	١٢٧
الجوانب السياسية	١٣٠
الأوتوميشن والاقتصاد (١٩٧١)	١٣٩
تحديد المقصود بالأوتوميشن ، الأوتوميشن والسيبرنطقيا	١٤١
انتشار الأوتوميشن	١٤٨
آثار الأوتوميشن	١٤٩
أولا ــ الأوتوميشن والعمل	١٥٣
ثانيا ــ الأوتوميشن والفراغ	١٦٦
ثالثا ــ الأوتوميشن وتطور الحاجات	١٧٨
رابعا ــ الأوتوميشن والقرارات الاقتصادية	١٨٩
خامسا ــ علم الاقتصاد نفسه من علوم التحكم الذاتى	١٩٧
خاتمة : العالم الثالث فى مواجهة الثورة التكنولوجية (١٩٧٢)	٢٠٥
أين « نحن » من كل ذلك ؟	٢٠٥
بعض الجوانب الايجابية	٢١٠
بعض الجوانب السلبية	٢١٣
الأصالة والعصرية	٢٢٢

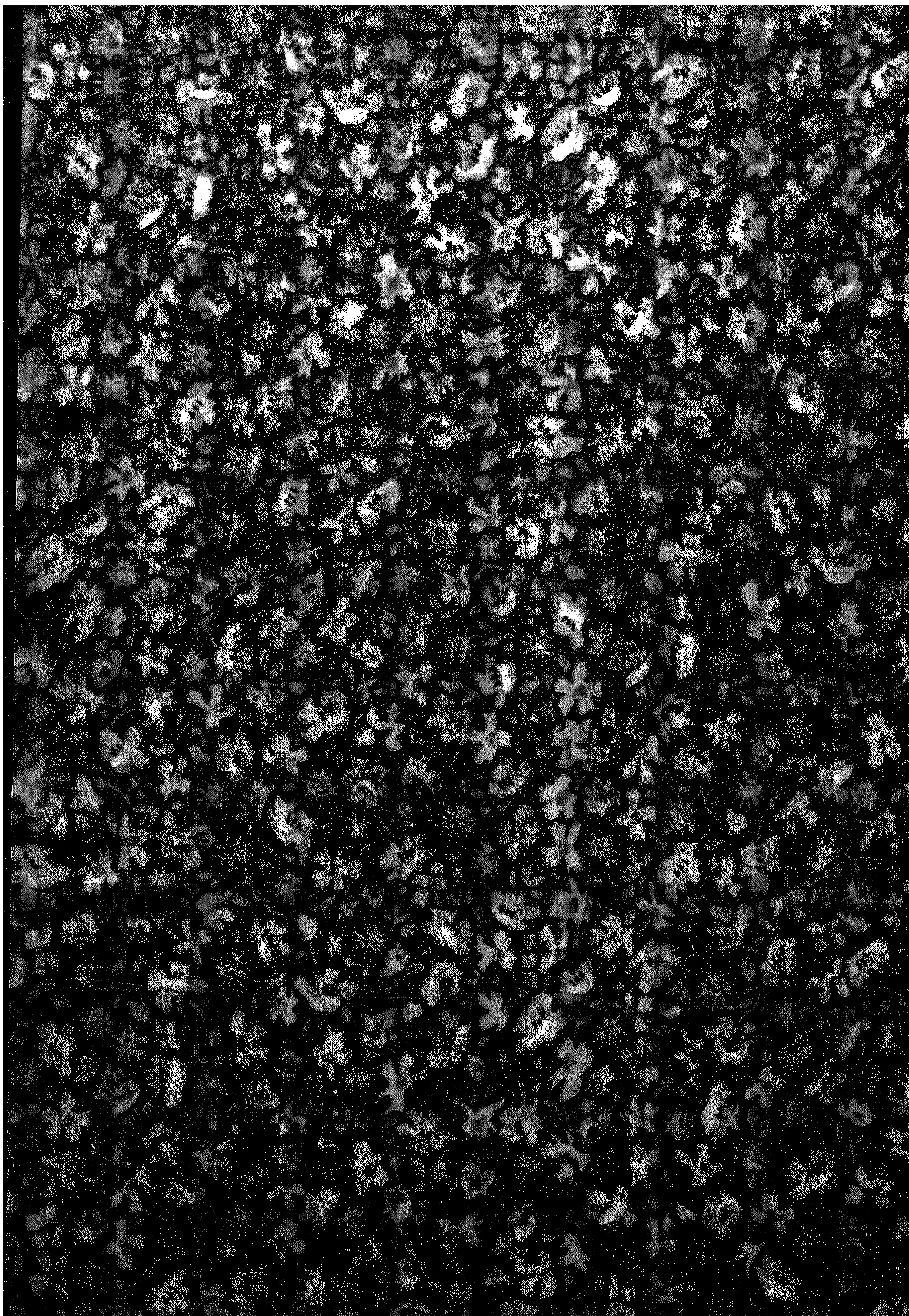
مطبعة أطلس

١١ ، ١٣ ش سوق التوفيقية ــ القاهرة

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٢/٤٣٢٨









Bibliotheca Alexandrina
03557523